أخبروهم أنها هنا

بحثًا عن ملكة مليحة



بدور القاسمي

أخبروهم أنها هنا

بدور القاسمي

أخبروهم أنها هنا

بحثاً عن ملكة مليحة



إصدارات روايـــات

(إحدى شركات مجموعة كلمات)

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

ص. ب. 21969 | هاتف: 97165566696+

info@kalimat.ae

www.kalimatgroup.ae

أخبروهم أنها هنا

تأليف: بدور القاسمي

تصميم الغلاف: مريم الرفاعي

صورة الغلاف: بكير سوزاك

الترقيم الدولي: 978-9948-65-627-2

الطبعة الأولى © 2026

لا يسمح بنسخ أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة من وسائل النسخ وبأي شكل كان إلا بإذن خطي من الناشر.

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP
Rewayat روايـــات

في ذكرى خالد

أُحيي ذكرى أخي الراحل خالد، رحمة الله عليه، الذي ارتحل ليلتحق بركب الأسلاف. لقد كان في حياته ورحيله تذكيراً لي بأن الوجود كله ما هو إلا رحلة روحية من التذكّر والتجلّي.

لقد علّمني خالد أن في الانكسار جمالاً، وفي التشظي معنى. كان حضوره يهمس لي بأن لا شيء في هذه الحياة يضيع سدى - لا ألم، ولا حيرة، ولا شوق.

فكل لحظة تجلٍّ، وكل تفصيلة خطوة على الطريق.

إِلَى الْأَرْوَاحِ الَّتِي هَمَسَتْ بِي إِلَى الْوُجُودِ -
أَسِيرُ فِي ظِلَالِكُمْ وَفِي ضِيَاءِ نُجُومِكُمْ.
أَنْفَاسُكُمْ تَجْرِي فِي رِئَتَيَّ، وَأَصْدَاءُ أَنَاشِيدِكُمْ تَتَرَدَّدُ فِي عِظَامِي.
كُلُّ خُطْوَةٍ أَخْطُوهَا عَوْدَةٌ،
عَوْدَةٌ إِلَى مَغَارَاتِ النُّورِ الْمُتَّقِدَةِ بِالْمَعْرِفَةِ،
إِلَى لُغَةِ الْحِجَارَةِ وَالرِّيحِ وَالْعَوَالِمِ الْخَفِيَّةِ.
عَلَّمْتُمُونِي أَنْ أُصْغِيَ - لَا بِأُذُنِي، بَلْ بِرُوحِي:
إِلَى رَفِيفِ الْأَوْرَاقِ وَهِيَ تَتْلُو لُغَاتٍ قَدِيمَةً،
إِلَى نَبْضِ الْأَرْضِ وَهُوَ يُخَاطِبُ قَدَمَيَّ،
إِلَى أَصْوَاتِكُمُ الصَّاعِدَةِ كَدُخَانٍ مُخْتَرِقاً الزَّمَنَ.
هَا أَنَا ذَا إِنَاءُكُمْ،
تَنْسَابُ حِكْمَتُكُمْ مِنْ بَيْنِ أَنَامِلِي،
تَتَلَأْلَأُ ذِكْرَيَاتُكُمْ فِي سَوَادِ عَيْنَيَّ.
فِي هَذِهِ الصَّفَحَاتِ أَنْتُمْ تَتَكَلَّمُونَ - لَا فِي مَاضٍ وَلَّى،
بَلْ فِي الْحَاضِرِ الْأَزَلِيِّ.
تُذَكِّرُونَنِي أَنَّ التَّذَكُّرَ عِبَادَةٌ،
وَأَنَّ الِاسْتِحْضَارَ بَعْثٌ لِسِحْرِ الدَّمِ الذي يرقد في نخاع العظم،
وَأَنَّ إِحْيَاءَ الذَّاكِرَةِ اسْتِنْهَاضٌ لِلْأَسْلَافِ فِي أَحْلَامِهِمْ،
كَيْ يَحْلُمُوا بِنَا نَحْوَ الْقَادِمِ.
أَنْتُمْ جَعَلْتُمْ لِكُلِّ نَفَسٍ أَتَنَفَّسُهُ مَعْنًى،
وَأَنَا لَسْتُ غَيْرَكُمْ،
أَنَا تَفَتُّحُ دعائكم،
أَنَا السَّلَفُ الْآتِي،
أَنَا مَنْ تَسْلُكُ الدَّرْبَ الْمُلْتَوِيَ عَائِدَةً إِلَى مَنْبَعِ النُّورِ.
هَذَا الْكِتَابُ هديةٌ نابضة بالحياة،

طَرِيقٌ مَنْسُوجٌ بِالسَّرَائِرِ وَالْيَقِينِ،
وَتَعْوِيذَةٌ تَهْمِسُ بِالذِّكْرَى وَتُوقِظُ النُّورَ الْكَامِنَ.
وَإِنْ كنتم الْآنَ تقرؤون هَذِهِ الْكَلِمَاتِ،
فَأَسْلَافُكِم قَدْ دَعَوْكم إِلَى هَاهُنَا أَيْضاً.
هَا هُمْ مُسْتَعِدُّونَ.
وَنَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ.
فَلْنَمْضِ مَعاً -
عَبْرَ حُجُبِ الغَيْبِ، وَمَجَاهِلِ السِّرِّ، وَمَجَرَّاتِ الرُّوحِ.
فَلْنُوقِظِ مَا طُمِسَ وَلَمْ يندثر أَبَداً.
لِيَعْلَمُوا...
أَنَّهَا هُنَا.

تمهيد

السَّيْرُ بَيْنَ العَوَالِمِ

هذا الكتاب ليس حكاية عابرة، بل هو مناجاة، وابتهال، ونسيج نوراني نسجتُه من خيوط الذاكرة والأسطورة.

إنّه إظهار لجذوري - تلك الجذور الضاربة بعمق في تُراب الأسلاف، المتشابكة بالروح، والحزن، والحنين، والحب. وحين أكشف جذوري، إنما أجسد روحي، متتبّعة خطى الذين ساروا قبلي منذ زمن بعيد، وما تزال أصداؤهم حيّة في كل ذرّة رمل، وفي كل هبّة ريح.

أي أسرار تخفيها هذه الأرض؟ وأي أساطير ترقد تحت سطحها تنتظر من يكشف عنها النقاب؟

إنّ حكاية هذه الأرض لا تنفصل عن حكايتي. فالدم الجاري في عروقي يتكلم بلغة الكثبان والنجوم. ولهذا كان عليّ أن أبوح بكل شيء - لا ادعاءً لها، بل استرداداً لها.

أبحث عن شظايا نفسي المبعثرة في أزمنة غابرة؛ لأجمعها وأعيدها إلى موطنها.

إنها استعادة - لا لقصتي الشخصية فحسب، بل للمكان، والوجود، والقوة.

هذا الكتاب هدية، وتذكّر، ومفتاح. إنّه رحلة لاستكشاف أراضي الأجداد والأساطير المنسوجة في ثناياها. هو جسر بين المحسوس وغير المرئي - بين الأثر والحلم، بين التاريخ والرؤيا، بين الجسد والروح. ومن خلال التراث، واللغة، والرمز، والذاكرة، نسعى إلى وصل ما انقطع - لا حنيناً إلى ماضٍ غابر، بل كعودة مباركة.

إذا تعرفت على أرضك أدركت ذاتك، ومضيت في تضاريسها بشموخ، وأيقظت الحقائق المكنونة في ثنايا عظامك. فليكن هذا الكتاب نبراساً في العتمة - شعلة تهديك في عودتك الميمونة إلى تراث الأسلاف.

يقول جلال الدين الرومي، العارف المتصوّف الذي عاش في قونية في القرن الثالث عشر:

«أن ترى المحيط وقد اجتمع في قطرة واحدة». ويعلّمنا الرومي، وهو المعروف بشاعر الحب، أن تذكّر أسلافنا هو إيقاظ لبحر الروح الإلهية الكامنة فينا؛ فتغدو أنفاسهم أنفاسنا، وتتحوّل أنفاسنا إلى صلاة وابتهال.

وقبل أن أبوح لك بالمزيد من ثنايا هذا الكتاب، لا بدّ أن أبدأ بحقيقة نورانية: إن كثيراً مما ستقرؤه قد وُلد من الأحلام والرؤى - همسات من عالَم الغيب. فمنذ بدايات وعيي، لم تكن أحلامي ظلالاً عابرة للأفكار، بل كانت حيّة، عميقة، مشبعة بالرموز التي تحرّك الروح. وفي السنوات الأخيرة ازدادت عمقاً، وصارت أبواباً - عتبات بين هذا العالم وعالم آخر، حيث تتكلم الأرواح بالصور والمشاعر.

دأب شيوخ التصوّف منذ زمن بعيد على القول إنّ الأحلام تنتمي إلى عالم المثال، ذلك العالم التخيّلي الذي تتجسّد فيه المعاني في صور، ويغدو فيه الغيب منظوراً. وقد وصف محيي الدين ابن عربي (1165-1240)، العارف البصير وشاعر العشق الإلهي، المعروف بلقب الشيخ الأكبر، الأحلام بأنّها برزخ بين عالم المادة وعالم الروح: فهي ليست وهماً، بل وطناً حقيقياً للمعاني الرمزية، حيث تسافر الروح ليلاً لتستضيء بالبصيرة. ويضيف ابن عربي أنّ الأحلام ليست ظلالاً عابرة، بل رسائل من الغيب، وملتقى بين الروح والجسد. وأنّ السير بين العوالم هو إدراك أنّ الإلٰه يخاطبنا على الدوام - في اليقظة والمنام - إن كان القلب يقظاً بما يكفي للإصغاء.

«لا تظنّوا أن الحلم يأتي من العدم؛ بل هو بذرة اليقظة». هكذا تمضي الكلمات المنسوبة إلى الشاعر العارف شمس التبريزي، لتزيح الحجاب بين العوالم، وتذكّرنا أنّ ما يبدو غيبياً قد يحمل في طيّاته أعمق الحقائق.

إنني أؤمن بكل كياني أنّ عالم الأحلام ليس منفصلاً عن العالم المادي، بل هو مرآته - بُعْدٌ متشابك تهيم فيه أرواحنا بحرية. هو موضع تتلاشى فيه الحجب، وتتردّد فيه أصوات الأسلاف بوضوح، حيث ينثر الكون رسائله في صورٍ واستعارات وأساطير. وحين نتعلّم الإصغاء - الإصغاء الحق - تكشف لنا أحلامنا المسارات المرسومة لنا. إنّها تحمل رسائل ممّن مضوا قبلنا، ومن المرشدين الذين يسيرون إلى جانبنا غير مرئيين، ومن النبض الأزلي للكون ذاته.

ويدعونا أبو حامد الغزالي (1058-1111) مجدّد الإسلام في عصره، في كتابيه «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ» وَ«الْمُنْقِذ مِنَ الضَّلَال»، إلى النظر إلى الأحلام لا كمجرّد رؤى عابرة، بل

إفصاح عما وراء الواقع المادي الملموس - تحركات للروح الطاهرة نحو كشف المزيد من التفاصيل عن عالم الحقيقة. وفي رؤيته، لا تنبثق الأحلام من خبايا الجسد، بل من روح نورانية متّصلة بالغيب. فهي للعارف سُبُل اتصال - جسور ترفع الحجب بين القلب وما وراء حدود الإدراك العقلي. وهكذا تغدو الأحلام تجارب كشفٍ إلهي، وومضات نحو وجودٍ خفيّ مستتر عن حياة اليقظة.

وإلى جانب إيماني، كنت دوماً منجذبة إلى عوالم الأسطورة، إلى الحكايات الشعبية التي تُروى همساً أمام جمر الغضى، إلى الأساطير الخالدة التي ما تزال تهيم في الرياح. هذه الحكايات ليست بقايا من زمن مندثر؛ إنّها خيوط حيّة، جدائل متلألئة تحمل ذاكرة الحضارات. إنّها البنية المقدّسة للمعنى، والرباط الذي يوحد روح الشعوب. إنّها الشيفرة المقدّسة التي عبرها تفهم المجتمعات مغزى الحياة والموت، وغاية الوجود، وأطوار التجدد.

وهكذا أصبحتُ أسير في العالمين معاً - عالم الأحلام وعالم اليقظة - لا كعابرة سبيل، بل كمن ينتمي إليهما معاً. لا أرى حاجزاً فاصلاً بينهما. فعندي، العالم الروحي والعالم المادي متشابكان أبداً، كخيوط السدى واللحمة في آلة النول. ما يحدث في أحدهما يتردّد صداه في الآخر. أسير في هذه الأرض حافية القدمين، بقلب منفتح على الوجود، غير أنني أتماهى أيضاً مع عوالم السرّ والخيال والحكاية. أتحدث لغة الأعماق ولغة المعنى الأسمى التي لا تُقال بل تُحسّ.

وهذا الوجود ليس لي وحدي - إنّه ميراث أسلافي الذين خطّوا هذا الدرب من قبل. كانوا يعبرون بين العوالم بوقار وخشوع، عارفين أن المرئي وغير المرئي محكومان بقانون مقدّس. لقد حلموا بوجودي حتى جئت، وها هم الآن، عبر إيقاع الأحلام، ينادونني ويدعونني لأتذكّرهم - لأجمع حكمتهم، ومعرفتهم القديمة، وأحملها إلى الأمام كشعلة متقدة أسلمها إلى أجيال لم تولد بعد.

لقد كنتُ حلماً في وجدان سلالة من قرّاء النجوم ورواة قصص الحضارات، أولئك الذين مشوا حفاة عبر الصحاري والجبال، يقودهم نبض الأرض. دماؤهم تنشد في عروقي، وأصواتهم تنسج أحلامي. وفي الصمت أسمعهم - النسّاجون، والمُعالجون، ورُصّاد القمر، يذكّرونني: العالم الروحي ليس بعيداً، إنّه على مقربة من كل الأشياء. هو في ارتعاش الورقة، وفي الزفرة بين الأنفاس، وفي سكون الغسق. هذا الكتاب ليس مجرّد سرد للرؤى - إنّه أشبه بمناجاة، ودعوة للتذكّر والاستحضار، وعودة إلى الموضع الذي لا تكون فيه

الأسطورة خيالاً، بل سرداً للسيرة الذاتية للروح نفسها.

وها أنا ذا أُصغي، ومستعدة.

مقبلة على استعادة ما تم نسيانه، وتكريم ما بقي. أكتب لأتذكّر. أكتب لأنسج من جديد. أكتب من أجل أبناء الأبناء، ليدركوا هم أيضاً الدرب الذي عرفته عظامهم على الدوام.

معاً، نصوغ أسطورةً جماعية جديدة، أسطورةً تجرؤ على قول حقيقة ما يعنيه أن تكون حياً بكامل حضورك، عميق الجذور، وأصيل الجوهر. هذه هي ذاكرة الروح. هذه هي العودة.

بهذه المعاني السامية أمضي معكم - عبر الحُجُب، وعبر الأزمنة، إلى رحم المعرفة العميقة. أدعُوكم للسير معي، لا بأبصاركم وحدها، بل بكل جوارحكم. دعوا الحكايات تبعث الذاكرة من سباتها، واتركوا الرؤى توقظ في ضلوعكم سرّاً أزلياً لا يبلى.

ودَعوا حقيقة الروح تعود إلى موطنها الأول.

المقدمة

ناسجات العالم

يقول المثل القديم: فلنبدأ في النسج، وسيهبنا الإله الخيوط.

تبدأ فصول هذه الحكاية باستعارة متجذّرة في الخيوط والأنوال. فالنسج ليس مجرّد حرفة، وليس مجرد عمل منزلي أو «عمل نسوي» لطالما قُلل من شأنه. بل هو - وكان دوماً - فن الابداع المقدّس. ففي كثير من الثقافات الأصلية عبر العصور، لم تُوكل مهمة النسج للنساء نظراً إلى سهولته، بل بدافع من الإجلال والتبجيل. لأن النساء، منذ الأزل، هن حافظات الأنوال، اللواتي يغزلن الحياة بأناملهنّ، وأنفاسهنّ، وأرحامهنّ.

إن النسج هو استدعاء للمستور. هو تشكيل للنظام من قلب الفوضى. هو جسر يمتد بين العوالم بخيوط السدى واللحمة. النسج ذاكرة، وأسطورة، وتجلي. إنه طقس كوني، تغزل فيه النساء لا الخيوط فحسب، بل المصائر والحكايات وعوالم بأكملها.

وفي الأساطير القديمة، ظلّت هذه الحقيقة حيّة.

تأمّل مثلاً في الأسطورة الإغريقية عن «أراكني» والإلهة «أثينا» – إلهة الحرب والحكمة، وراعية الأنوال المقدّسة. وفي أرض ليديا القديمة، فيما نعرفه اليوم باسم الأناضول، كانت هناك فتاة تُدعى أراكني تنسج بخفة يد خارقة. راقبتها أثينا، معلمتها السماوية، ورأت أن موهبة الفتاة فاقت حتى قدرات الآلهة. وبكل فخر وتحدٍ، رفضت أراكني أن تنسب الفضل لمعلمتها. غضبت أثينا، وتحدّتها في مسابقة. وكان نسيج أراكني بالغ الإتقان، إلى الحد الذي أثار سخط أثينا التي عُرفت بشدّة بطشها، فحوّلت الفتاة إلى عنكبوت محكوم عليه بالنسج إلى الأبد تكفيراً عن ذنبه. ومن هذه الأسطورة وُلدت كلمة «عنكبوت» (باللاتينية *arachnid*)، لتغدو الخيوط نسلاً يمتد إلى الأبد.

وهناك أيضاً «المويراي» – القدَر الثلاثي في الأساطير الإغريقية: «كلوثو» الغزّالة،

و«لاخيسيس» القَيّاسة، و«أتروبوس» القاطعة. من أياديهن الخفية تنساب مصائر البشر. كلوثو تغزل خيط الحياة، ولاخيسيس تقيس طوله، وأتروبوس تقطع الخيط عند نهايته. وهكذا نرى الولادة، والقدر، والموت - كلها محكومة بالأنوال.

وفي أساطير الشمال، تحت ظل الشجرة الكونية العظيمة «يغدراسيل»، تسكن «النورنز» - «أورد» و«فيرداندي» و«سكولد». هؤلاء النسوة الحكيمات يظهرن عند ولادة الإنسان، وأيديهنّ منهمكة بالفعل في نسج رحلة الروح داخل خيوط الزمن.

وفي أراضي البلطيق أيضاً، تُغزل خيوط القدر بأنامل أنثوية. فالإلهة الليتوانية «لايما» وشقيقتاها «كارتا» و«ديكلا» يشرفن على الولادة، والارتباط، والرحيل. إنهنّ الحارسات الرقيقات للقدر، ينسجن المسارات بين العوالم.

وحتى في ديانة الحوريين في الهلال الخصيب، والتي تعود إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد، تظهر ثلاث نسّاجات مقدسات: «هوتينا» - إلهات يجسدن القدر في انكشافه وتحقّقه.

ليست هذه محض مصادفات. فعبْر الثقافات والقارات، يرتبط النسج ارتباطاً وثيقاً بفعل الخلق الإلهي. فخيوط النسيج ليست مجرد ألياف - بل هي خطوط زمنية. هي حكايات. هي هندسة مقدسة منسوجة في قماش الوجود.

في العوالم القديمة، لم يكن النسج مجرد استعارة، بل كان طقساً مهيباً مقدساً، وسبيلاً روحياً يمدّ به الكهنة والشعراء والعرافون خيوط التماسك في جسد المجتمع. ويُحكى أن الإلهة المصرية «نوت» نسجت السماء ذاتها، باسطة جسدها ليصير قماش الخلق. كان النسج يحمل المعنى عبر دروب الزمن، ويغزل الروح في أوتار البنية، حتى غدا طريقاً للحقيقة المستورة وكشفاً لما وراء الحجب.

وماذا عن نساء أرضي؟

نساء البدو في الصحراء، حارسات فن «السدو» التراثي، يجتمعن في حلقات بأيادٍ تشبه من يتضرع بالدعاء، يَغزلن من شعر الإبل وصوف الماعز وخيوط الغنم. أنوالُهنّ المنخفضة، المصنوعة من جذوع النخيل، ضاربةٌ جذورَها في الأرض تماماً كما تمتدّ معرفتهنّ المتوارثة جيلاً بعد جيل. وبالحنّاء، والزعفران، والكركم، والنيل، يستحضرن ألواناً من عمق الأرض وباطنها. وفي أثناء الغزل، تتعالى أصواتهنّ بـ «التغرودة» - أنشودة الأجداد، تتصاعد كالدخان من لهيب النار.

إن منسوجاتهن ليست مجرد أقمشة، بل خرائط. تحتضن الكثبان والصقور والأعشاب والنخيل والإبل. يرددن صدى الرموز القبلية القديمة. كل نقشة تشبه التعويذة، وكل خيط يبدو كطلسم. ومن أنوالهن، صُنعت الخيام، والوسائد، وأغطية الجمال. لكن ما كان يُنسج قبل كل شيء هو الذاكرة - موثّقة في الزمن بأنامل النساء.

وإن كانت الحياة خيطاً، فالنساء هنّ حافظاته. هنّ ناسجات الوجود، غازلات الأنماط، مهندسات الروح والحكاية. تصف الكاتبة شارون بلاكي عن هذه الحقيقة الكونية بقولها:

«النساء هُنّ الغزّالات والناسجات... نستلّ الخيوط القوية الناعمة من قلوبنا وأرحامنا. لقد حان الوقت لنغزل خيوطاً جديدة؛ حان الوقت لنقوّي الأطراف البرّية المهترئة من ذواتنا، وننسج أنفسنا من جديد في نسيج ثقافتنا... وما إن عرفنا أنماط نسج العالم؛ ويمكننا تجميعها من جديد... يمكننا أن نعيد تشكيل العالم. هذا ما تفعله النساء. هذا عملنا».

وهذا الكتاب هو نسيجي السرمديّ - نسجته من نول قلبي، وغزلته من خيوط رحِمي. لا أكتب لمجرّد الحكاية، بل لأتذكّر، واستحضر، وأعيد بناء ما ظلّ حيّاً في الروح ولم يندثر. مع كل كلمة نطلق المكّوك، ومع كل صفحة نضفر الروح في هيئةٍ من بهاء. إننا لا ننسج من الذاكرة وحدها، بل من الممكن أيضاً- من قماشٍ تنبت خيوطه من الجذور، وتتشكّل من الأسطورة، وتتنفّس عطر الأجداد. فلننسج العالم معاً من جديد.

إن الأساطير التي أرويها هنا ليست آثاراً جامدة، بل هي حيّة، تتنفس. وكما يقول جوزيف كامبل، فإن وظيفة الأسطورة هي أن «تحمل الروح الإنسانية إلى الأمام». وهكذا نحتفي بالقصص والحكايات - تلك التي تناقلتها الأجيال، وتلك التي تُهمس في الأحلام، وتلك التي نُعيد اكتشافها بين الأطلال والكتب والقلوب المرتجفة. وتُذكّرنا ماكس داشو أيضاً أن النساء كنّ فيما مضى العرّافات، وناسجات القدر، وحارسات المعرفة المقدّسة. أن تمسكي بالمغزل، أو تسطّري بالحبر، أو تهمسي بالدعاء، هو أن تنصتي لنداءٍ قديم يسري في دمك - خيطٌ مقدّس يصل بينك وبين سلالة النساء اللواتي نسجن الوجود من أنفاسهن. وكما تقول كريستن رودريك، فإن الإمساك بالمغزل أو القلم، أو الهمس بالدعاء، لهو عمل مقدّس، واكتمال لرؤيةٍ وُلدت منذ البدء.

وفي الرؤية الصوفية، فإن النول ذاته هو تجلّي القَدَر- حيث كل خيط يضعه الخالق،

بوصفه النسّاج العظيم. قد لا نُبصر النقش الكامل، لكن كل تقاطع بين السدى واللحمة إنما يوجَّه بيد خفية، لتشكّل نسيج حياتنا بجمال يتجاوز إدراكنا.

هذا الكتاب هو هديتي إليكم. نسجته من رحِمي، من أحلامي، ومن دمي ودم سلالتي؛ مشغول بخيوط الذاكرة والأسطورة، ومصبوغ بألوان الحنين والعودة. فلنبدأ الآن بالنسج.. كلمةً إثر كلمة، وخيطاً تلو خيط، وذكرى تتبعها ذكرى. عسى أن يوقظ هذا النسيج فيكم صدى من أنتم حقاً، وعسى أن يناديكم إلى الجذور، إلى الأصل، إلى البيت الأول.

لا تبدأ حكايتي بلحظة واحدة، بل برابطٍ روحي، بخيطٍ أزلي يصلني بهذه الأرض. إنّه ارتباط عميق بالأسلاف، بسلالة تنبض بذاكرة رياح الصحراء وسياداتٍ عتيقة. تحمل عائلتي إرثاً ملكيّاً ضارباً في القدم، من نسل قادة حكموا القلوب والممالك، من الأراضي المقدسة وعبر بلاد الرافدين (العراق)، وصولاً إلى رمال السواحل في دولة الإمارات العربية المتحدة.

وُلدتُ في إمارة الشارقة، تحت أنفاس عامٍ يُسدل ستاره - في الليلة الأخيرة من التقويم الميلادي لعام 1977. لحظة معلّقة بين زفيرٍ مضى وهمس وعدٍ لم يُولد بعد. ولم يكن مكاني على الخارطة محض موقعٍ جغرافي، بل وعاءً للذاكرة، يحتضن خطى الأسلاف ويهمس بتاريخهم في تراب الأرض.

دمي يتذكّر ملكاتٍ ومحاربين، وعلماء وأصحاب رؤى مضيئة. تنحدر عائلتي من البيت النبوي الشريف، من نسل النبي محمد ﷺ، سلالة شريفة لا يزال نبضها يتردّد في عروقنا. وقد وثّق والدي، صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي - حاكم الشارقة الحالي، إحدى الإمارات السبع - هذا النسب بمحبة في كتاب يتعقّب فيه جذورنا إلى الحسن بن فاطمة الزهراء، ابنة النبي ﷺ، مُبرزاً مكانتنا في هذه السلسلة المباركة. إن أسرة القواسم، سلالتنا، قد حملت شعلة القيادة في هذه الأرض لأكثر من ثلاثة قرون، لا كغزاة، بل كحُماة للتاريخ والذاكرة والتقاليد.

ولم يكن والدي رجل دولة وحاكماً فحسب، بل مفكراً، وعالماً بالتراث والأنساب، ومؤرخاً لعصره - ناسجاً للحقيقة والزمن. كتبه تسكنها أصداء الحضارات وهمسات الأرواح المنسية. ومنه ورثت توقير الحكايات، وفضولاً لا يهدأ تجاه الماضي. كمريدٍ في محراب قديم، أجدني دوماً أبحث، أقرأ، أنصت بقلبي إلى أنين الأزمنة المطوية. وفي

السنوات الأخيرة، تحوّل هذا الشغف إلى حنين متّقد، ليغدو شوقاً إلى الكتابة، والابداع، ونحت المعنى من الحروف. لقد غدت الكلمات محرابي الذي ألوذ به، وأفيض فيه بالمعنى والحنين.

وقد كتبت الأنثروبولوجية المغربية فاطمة المرنيسي ذات مرة، قائلة:«الكتابة هي واحدة من أقدم أشكال الصلاة. أن تكتب يعني أن تؤمن بإمكانية التواصل، وأن تؤمن بأن الآخرين طيبون، وأنك قادر أن توقظ سخاءهم ورغبتهم في أن يكونوا أفضل».

هذه الكلمات تسكنني وتتردّد دوماً في أعماقي. فهي تُجسّد رونق الكتابة - إذ ليست الكتابة مجرّد فعل، بل دعاء وابتهال. كل جملةٍ عرضٌ يُقدَّم، وكل صفحةٍ بوابة تُفتح على معنى أكبر.

لكنني أحمل أيضاً وعياً بأن كثيراً من حكاياتنا، خاصة تلك المنقوشة في السجلات والذاكرة الرسمية، قد رُويت بعدسة الرجال. وغالباً ما تُهمل عبير الحدس وإيقاع الطريقة التي ترى بها النساء العالم وتعيشه. ولهذا أكتب لا لأتذكّر فحسب، بل لأعيد النسج- لأقدّم حقيقة أخرى، ونسيجاً آخر.

فكلٌّ منّا يحمل فرصةً سامية للمساهمة في الحكايات التي تصوغ عوالمنا الداخلية والخارجية. فالحكايات، في جوهرها، هي عظام الثقافة - وفي نخاعها تكمن قوة التأمّل، والشفاء، والتحوّل. ومن حقّ الجميع أن يروا أنفسهم في القصص التي نرويها - لا كظلال أو شظايا، بل بكلّ بهائهم وتألّقهم.

كما يُنسب إلى أفلاطون قوله: «من يروي الحكايات يحكم المجتمع».

إنّ الحكايات تُخبئ في أعماقها مخطّطاً للقدرات الكامنة. فهي خرائط تؤدي إلى عوالم مستقبلية بديلة، وأبوابٌ لأراضٍ حالمة تهيم فيها الأرواح حين يذبل العالم المألوف. تمتلك الحكاية قدرة خارقة على ولادة أزمنة جديدة، وعلى أن تهمس لنا بمستقبل لا يشبه ما مضى، مستقبل تنهض فيه أرواحنا حرّة، مكتملة، وسيدة لذاتها.

الفصل الأول

جبل الشموخ

أحمل في داخلي عشقاً عميقاً للعالم الطبيعي- للطبيعة البكر، الجامحة، لروح الأرض النابضة بالحياة. وهو إرث ورثتُه عن أبي. أجدني، مثله تماماً، منجذبة إلى دروب الغابات ومسالك الجبال - لا لمجرد الرياضة، بل لأن هذه المشاهد المهيبة تخاطب الروح. ففي السير نحو البرية تحرّر من أثقال الماضي، وخلع لجلود قديمة، خصوصاً حين يكون الجبل شامخاً ومهيباً، حين يستدعي شيئاً أعمق من أعماقي.

أول جبل صعدته كان كليمنجارو، ولم يكن ذلك من تخطيطي، بل من تخطيط الجبل لي. كان نداءً مفاجئاً، رحلة صعود لم أعلم أنني مُهيّأة لها. حين أخبرني بعض الأصدقاء بعزمهم على تسلق كليمنجارو، بعد أشهر قليلة، اهتز داخلي شيء خفي. أصغيت، واشتعل فضولي: «هل هو صعب؟» سألت، وأنا أشعر بقوة جذبه. فأومأوا بنعم - وهمُ الذين تمرّنوا شهوراً طويلة.

كنت قد أنهيت مؤخراً تدريباً لسباق عشرة كيلومترات، فجسدي كان قوياً وروحي متأهبة. قررت أن ألقي بنفسي في قلب المغامرة. استأجرت مدرّباً خاصاً وبدأت أتهيأ بجدية. صمم لي برنامجاً يحاكي الصعود، من خلال آلة سلالم بحقيبة محمّلة بالأثقال، وجولات لا تنتهي من تمارين المرونة والثبات والتي صارت فيما بعد طوق نجاة فوق الجبل من حيث لم أكن أعلم. كانت كل حركة، وكل قطرة عرق، ابتهالاً صامتاً، وخطوةً في رحلة أشبه بعبورٍ داخليّ إلى أعماقي.

في اللغة السواحلية، تعني كلمة «كليمنجارو» جبل الشموخ - وهو حقاً شامخ كما يُقال. عندما بلغنا أروشا، تلك العتبة المقدّسة قبل الصعود، قضينا المساء في الاستعداد. كان مرشدنا رجلاً ودوداً وقوياً يُدعى «غودلك» (Goodluck) (وهو اسم يحمل دلالة لا تخفى، فمعناه بالعربية «حظ سعيد»)، فتّش حقائبنا بدقة، وأصرّ أن نصعد بما هو ضروري وحده. كل ما اعتبره فائضاً أُزيل. حتى مرطب الشفاه الصغير رأيته يُلقى جانباً، فارتاب قلبي وتوسلت - إنه لا يكاد يزن شيئاً! لكن «غودلك» - كالجبل نفسه - ظلّ صلباً لا يلين. قال لي: هذا الصعود ليس جسدياً فقط. إنه رحلة ذهنية وروحية. عليك أن تتحرري من

كل ما يثقل كاهلك... حتى وإن بدا تافهاً وصغيراً.

تعلمت حينها أن الجبل لا يحمل ما تريد - بل يقبل فقط ما تحتاج.

كان لا بد من تجهيزات تقاوم المطر، فالأمطار هنا تهبط فجأة بلا إنذار. حملنا مصابيحنا الأمامية، وزجاجات الماء، والسكاكين، والأحذية الجبلية، والنظارات المظللة. ما حملناه لم يكن مجرد أمتعة، بل كان ما سيقودنا خلال رحلتنا إلى أعالي الغيوم.

استغرقت الرحلة سبعة أيام، كل يوم يرتقي بنا إلى عالم جديد. كان الجبل حياً، تتبدل ملامحه من حولنا. عبرنا غابات عتيقة، وأراضي عشبية، ومررنا بسهول بركانية وصمتٍ جليدي يثقل الهواء. كانت كل مرحلة تجريداً - من الراحة، ومن التنفس ومن الوهم. كنا نصعد عالياً، ثم نهبط لنبيت في الأسفل، كأنّنا في تمرينٍ روحيّ نتعلّم فيه فنَّ التأقلم. «اصعد عالياً، ونَم منخفضاً» كما كان المرشدون يرددون - إيقاع يتردد بين الاستسلام والتدبير، ورقصة بين الجهد والثقة. نصحوني بتناول دواء يُدعى «دياموكس» للتخفيف من آثار الارتفاع، وأحمد الله أنني فعلت. وحين جربت لاحقاً التخلّي عنه، قاوم جسدي وأعلن حدوده. لكل إنسان رحلته مع العلو، وعليك أن تعرف حدودك وتصغي إلى حكمتك الداخلية.

لكن ما هو السر الحقيقي لتسلق الجبال؟ أن تمضي بخطى وادعة. «بولي، بولي - ببطء، ببطء»، كان مرشدنا يرددها بالسواحلية كلما حاولت أن أسرع. قاومت في البداية، إذ كانت غرائزي تحثني على الاندفاع. غير أن الجبل يعلّم درساً آخر: أن النفس هي كنزك، والوتيرة رفيقك الأمين. كلما تمهلت، طال احتمال جسدك. كلما حضرت بكليّتك، اتسع فضاء وجودك.

وكما قال جلال الدين الرومي في القرن الثالث عشر: «هذا العالم جبل، وأفعالنا صداه - فيعود إلينا النداء». تُذكّرنا كلماته أن المناظر التي نعبرها ليست صامتة - بل تنطق وتجيب، فجبل الحجر في الخارج ما هو إلا انعكاس لجبل النفس في الداخل. كل صرخة نطلقها، كل خطوة نخطوها، كل فعل نرسله إلى الوجود يرتد في عظامنا كصوت عميق. الطريقة الصوفية تكشف لنا، أن القمة لا تُنال بالعزم وحده، بل بالانحناء والتسليم؛ فما نمنحه للجبل يعود إلينا دوماً في صداه.

كلما صعدنا أعلى، ازداد صمتي، وتحوّلت خطواتي إلى الداخل، وبدأت أحدث نفسي، أفكك عقد الأفكار، وأفتت المخاوف، وأفتش في الأشواق. كل خطوة غدت تأملاً، وصارت

كل شهقة محاسبة للنفس. ثمة سحر خفيّ في الصعود بصمت، حين تترك لسعة الطبيعة تحتضن أسئلتك التي لم تجرؤ على البوح بها يوماً.

في الليالي، نصبنا خيامنا حيث يشاء الجبل - أحياناً على منحدرات حادة تجعل الخيام تنزلق في العتمة، والصخورُ تهمس بقسوتها في ظهورنا، والنوم عصيّ المنال. كانت هناك ليالٍ ابتللت فيها حتى العظم، وارتجف جسدي بلا هوادة، ولم يكن الدفء إلا في قنينة ماء ساخن. وأذكر مرة أنني كدت أستسلم لانخفاض حرارة الجسد، متوسلة قنينة أخرى، يائسة أن أشعر بحرارة تعود إلى أطرافي.

تلك اللحظات غيّرتني.

أذلّت كبريائي، وفتحت قلبي.

بدأت أنظر إلى العالم بعينين جديدتين. ما كنت أعدّه عاديّاً - سرير دافئ، ثياب جافة، ماء نقي - صار يشعّ بالنور والمعنى. لم يعد شيء أمراً مسلّماً به. صرت أُصغي إلى تغريد الطيور قبيل الفجر، وأتنشق رائحة الأوراق المبتلة بعد المطر، وأشعر بصرير الحصى تحت حذاءٍ أنهكه الطريق. لم تعد هذه التفاصيل خلفية جامدة، بل هدايا - رسائل خفيّة تؤكد أن الحياة ذاتها أشبه باحتفالٍ صامت، وأن الجمال يسكن البساطة، وأن كل نفس وكل إحساس هو هبة ربانية تنتظر أن تُستقبل بالامتنان.

على ذلك العلو، يصبح البقاء جوهر الوجود. تشرب بخشوع، وتنام ممتناً، وتحمل أثقالك بنفسك، فتدرك ما الذي يهم حقاً. كل غرض في حقيبتك، كل ذرة طاقة في جسدك، يصبح مقصوداً. وتدرك أنه كلما خفّ حملك، علت خطاك.

لم يكن جبل كليمنجارو مجرد جبل. كان المنطلق، كان رحلة، كان مرآة. جردني من الزوائد وأراني حقيقتي. طرح عليّ السؤال الذي لا مهرب منه: ما الذي تحملينه وهو ضروري؟ وما الذي تستطيعين تركه؟

علّمني هذا الجبل كيف أنصت. كيف أتنفس. كيف أستسلم.

كيف أتغيّر.

القمة والذات

يذكّرنا القرآن بأن الجبال من آيات الجلال الإلهي: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ (النبأ: 6-7). أن تسير بينها بتواضع، يعني أن تستشعر صِغرك أمام عظمة الخلق، وقُربك من الخالق.

في الجبال سرّ لا يُفصح عنه - مهابة صامتة تستدعي الدهشة والخشوع، وأنا أصعد كليمنجارو، أدركت أنني لا أرتقي نحو القمة فحسب، بل أنحدر أيضاً إلى معرفة أعمق بنفسي. ثمة جمال يكتنفنا - هادئاً حاضراً على الدوام- إن نحن تباطأنا بما يكفي لنرى ونصغي حقاً. خطوة إثر خطوة، ساعدني الجبل أن أخلع عني أوزان هويات قديمة ومعتقدات لم تعد تخدمني. بدأت أعي أن ما يقيدنا ليس خارجياً بقدر ما يسكن أروقة عقولنا، فنحن نحمل قصصاً وشكوكاً وضجيجاً داخلياً يحجب الرؤية ويعطّل التحوّل.

لكن في صمت الجبل وضوح، وفيه فسحة وانفتاح.

كل يوم كنت أجلس مع أفكاري - لا لأهرب منها، بل لأشهدها وأقبلها. تعلّمت أن أعترف، أن أُفلت، أن أُنقّي الداخل من فوضاه. وفي إيقاع الحياة اليومية السريع، نادراً ما نمنح أنفسنا وقتاً لنكون فقط - لنصغي إلى ذواتنا بلا تشتت. لكن على الجبل، وعلى امتداد سبعة أيّام، فعلتُ ذلك حقّاً. أصغيت، وتأمّلت، وفتحت حيّزاً لشيء جديد كي يولد. كان الأمر أشبه بولادة ثانية - تطهير مقدّس للروح، ومسح للوحة الوجود.

ثم جاءت القمة. ذلك الصعود الأخير.

قلائل هي اللحظات التي تعجز اللغة عن احتوائها، وكانت هذه إحداها - انفجار من فرح وارتياح تعجز الكلمات عن وصفه. كنت أول من لمح القمة بين رفاقي. وعلى كليمنجارو، بحسب المسار، ثلاث قمم رسمية حسب المسار. مسارنا كان «ماشامي»، وهو يقود أولاً إلى «ستيلا بوينت»، ذلك العلو المهيب عند 5,756 متراً فوق سطح البحر. هناك، عرفت لاحقاً أن هذا الاسم جاء تخليداً لإستيلا لاثام، وهي امرأة إيرلندية وقفت في هذا الموضع نفسه عام 1925.

حين لمحت اللوحة ولم يعد يفصلني عنها سوى خمسة أمتار، غمرني حماس جارف،

فانطلقت بخطى متسارعة، لكن فجأة ارتفع صوت مرشدي - صارماً، آمراً إياي بالتوقف. في لحظات كان إلى جواري، قبض على ذراعي بقوة ووجهه متجهم. أوضح لي أن الاندفاع على هذا الارتفاع قد يكون قاتلاً، فهنا يقل الأوكسجين إلى حدٍّ مخيف، والجسد بالكاد يبقى في وضع النجاة. ذكّرني بالمتسلقين الذين سقطوا قبل بلوغ القمة بأمتار قليلة - ضحايا داء المرتفعات ومضاعفات الرئة. ولم يكن حديثه نظرياً؛ فقد رأيت بعيني من يُنزلون إلى الأسفل، شفاههم أرجوانية، عيونهم شاردة، وأجسادهم منهكة كأنها فقدت كل قواها

تواضعتُ أمام الجبل، وأبطأت خطاي.

ومن «ستيلا بوينت» امتدت أمامي مئة متر أخرى تفصلني عن «أوهورو بيك» - أعلى قمة في القارة الإفريقية. كانت كل خطوة تستنزف ما بي، وبدت أنفاسي متقطعة، حتى الكلام غدا عبئاً. ومع ذلك، واصلت... حتى بلغت القمة.

وهناك، كانت اللوحة تعلن بصرامة واحتفاء «تهانينا. أنت الآن في أوهورو بيك - أعلى نقطة في إفريقيا، وأكبر جبل قائم بذاته في العالم، وأحد أعظم البراكين، وموقع تراث عالمي، وأعجوبة من عجائب القارة».

كنت أقف فوق القارة، أطل على العالم الذي طالما أشرف عليّ. الجليد يمتد تحت قدمي كحراس صامتين يحفظون أسرار الزمن. الثلج من حولي كثيف، ناصع النقاء. السماء صافية كالبلور. لا صوت ولا أحد - سوى مرشدي يلتقط الصور، وأنا معلّقة في سكون نادر.

نعم، غمرني الفخر. نعم، سكنني الفرح. لكن ما اجتاحني أكثر من ذلك كله كان شعوراً عميقاً بالصِغَر.

صِغَرٌ شديد.

أتذكّر القول المأثور: «لا تتسلق الجبال ليُرى شأنك، بل لتَرى». وفي ذلك اليوم، رأيت. رأيت اتساع الأرض، ورأيت نفسي فيها - مجرّد قطرة في محيط لا ينتهي. شعرت بالمفارقة الكبرى: أن أكون لا شيء على الإطلاق، ومع ذلك متصلة اتصالاً عميقاً بشيء عظيم. كنت الجبل والحجر، كنت الكل والعدم.

مكثت هناك قرابة نصف ساعة، أمتص الطاقة، وأتشرّب الجلال، وأترك المشاعر

تجري كما تشاء. ثم التفت إليّ مرشدي برفق، وقال إن وقت النزول قد حان.

وحينها وقع ما هو استثنائي.

في طريق الهبوط جاء الوضوح - لا كبرق عابر، بل كموج متتابع يغمرني.

أفكار، إلهامات، قرارات - كلها انفتحت دفعة واحدة. شعرت أنني أتلقى رسائل مباشرة من الجبل نفسه. رأيت بصفاء ما يجب أن يتغيّر في حياتي - ما ينبغي تركه، وما يستحق البقاء، وما يجب أن أحفظه عميقاً في القلب. كأن حقيبتي على ظهري صارت مرآة: كما خففتها لأصعد، عليّ أن أخفف حياتي لأرتقي. تذكرت الثقل الذي حملته جسداً وعاطفةً، وكيف أن النزول منحني شعوراً بالتحرر. المشكلات التي أرهقتني ليالي طويلة صارت صغيرة، قابلة للحل. الأجوبة التي توارت عني في السهل انهمرت الآن بسلاسة، واحدة تلو الأخرى.

يتحدث أولياء الطريق عن التوكّل على الله باعتباره الزاد الحقيقي للمسافر: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: 3). وكالمتسلق الذي يخفف حمله، يأخذ السالك بالأسباب، ثم يسلّم الأمر إلى الغيب - «اعقلها وتوكل» - حتى تُفتح له قمم كان يظنها بعيدة المنال.

وحين وصلت أخيراً إلى القاعدة، كان أول حمام ساخن أشبه بالنعيم، وأول وجبة كأنها مائدة سماوية. لم أتذوق مثلها قط، ولم أشعر بالماء هكذا من قبل. كل عصب في جسدي كان يقظاً، حياً، ممتناً.

كنت قد تغيّرت.

كان الصعود بداية جديدة، تحوّلاً عميقاً، قيامةً من نوع آخر. أيقظ فيّ عشقاً جارفاً للطبيعة البرية - للجبال والغابات والأنهار - لكل الأمكنة التي تجرّدك لتكشف لكِ صورتك الحقيقية.

ومنذ ذلك الحين، لم أكفّ عن طلب الجبال. فقد أدركت أن كل جبل يحمل مرآة، وأن كل قمة تقف في انتظاري، تطرح سؤالها الأبدي: هل أنتِ مستعدة لمواجهة من تكونين حقاً؟

الفصل الثاني

أشواك كلباء وظلّ السَّمُر المُبارك

في صبيحة التاسع عشر من مارس 2020، وقبيل أيام من توقّف العالم بأسره في وجه جائحة كونية، وجدتني بعيدة عن الضجيج، أتنفّس إيقاع السكون على الساحل الشرقي للشارقة، في قرية الصيد الوادعة كلباء. هناك، بدا الزمن وكأنه يتباطأ. بين البحر وجبال الحجر الوعرة، كانت كلباء تنبض بجمال عتيق، حميم، لم تمسّه يد.

تبعد كلباء نحو مئةٍ وعشرين كيلومتراً عن مركز مدينة الشارقة، لكنها ليست مجرّد ملاذٍ ساحلي. إنها حرَم طبيعي، وملاذ لتنوع بيولوجي نادر، وموطن لطائر «الرفراف الأبيض المطوّق» المهدّد بالانقراض، الذي لا يُعرف له وجود على الأرض إلا هنا وفي موقعين آخرين في شمال عُمان. موطنه الأخير يتجذّر في عمق غابة القرم المحمية بخور كلباء. هذه الغابات، التي تتولى هيئة الشارقة للبيئة والمحميات الطبيعية رعايتها، اليوم صارت مهداً متجدّداً للحياة. منذ أن جرى الإعلان عن حظر التطوير العمراني والتدخل البشري في المنطقة، أخذت الحياة البرية تعود ببطء: السلاحف تنساب تحت سطح الماء، السرطانات تعبر البرك المالحة، والنظام البيئي يزدهر بصمتٍ لا يلين.

لكن كلباء ليست ساحليّة وحسب، بل إن روحها تنهض من الحجر أيضاً.

في ذلك الصباح، وقبيل أن يشق الفجر حجاب السماء، انطلقتُ في مغامرة جبلية مع دليل محلي. كان الهواء ما يزال بارداً، والسكون لا يقطعه إلا نداء عابر لطائر أو حفيف مخلوق صغير بين الأعشاب. تسلّقنا ساعتين تقريباً، عبر منحدرات متوسطة انفتحت على مشاهد شاسعة للوديان والأودية والحواف المذهّبة بأشعة الشمس. كانت الحياة من حولنا تنبض في النباتات البرية، وفي أزيز الحشرات، وفي رقصة النسيم الجبلي على بشرتنا.

خلال تلك الرحلة، عرفت أصل اسم «كلباء» - حكاية موغلة في جذور الأرض وشوكها. قيل لي إنّ «كلباء» تستمدّ اسمها من النباتات الشوكية التي تكسو المنطقة، وأبرزها نبات شرس لا يرحم يُعرف محلياً باسم «أم الغيلان»، وعلمياً (*Vachellia gummifera*). تنمو هذه النبتة البرّية بكثافة في تربة كلباء القاحلة، تلتفّ وتتلوى وتزدهر في صلابتها. أشواكها الحادة المنحنية ذائعة الصيت؛ تتشبث بكل ما يلامسها، ثوباً كان أو جلداً أو حتى نيّة.

يعرفها السكان جيداً؛ فهي تمزّق الثياب، وتعرقل الخطى، وتأبى أن تُتجاهل. والمرور في أرض تعجّ بـ«أم الغيلان» يعني أن تخرج منها موسوماً، مخدوشاً، عالقاً، متحوّلاً.

حينها أدركت كم هو ملائم أن تحمل أرض مشهورة بصلابتها الطبيعية اسم نبات لا يعرف التخلّي. كلباء، بأشواكها ومدّها وجزرها، بجبالها وأشجار المنغروف، تُجسّد التجربة الإنسانية: فاتنة، وعرة، ومجدِّدة.

وقد قرن فريد الدين العطار (ت 1221)، صاحب «منطق الطير»، الوردة دائماً بأشواكها؛ ففي «إلهي نامه» يقول: «لا تتفتح وردة إلا وفي قدمها شوكة». فالشوكة عند السالك ليست عدواً بل دليل؛ فكل جرح يروض الكِبر ويهدي القلب نحو جمالٍ مستور.

في ذلك اليوم، لم أكن أسير على درب فحسب، بل كنت أعبر طبقات من التاريخ والبيئة والاستعارة. غادرت كلباء وروحي أكثر تشابكاً - وأكثر يقظة.

تنهض أشجار السَّمُر برشاقة من تربة صخرية وعرة، منتشرةً بين القمم والوديان في جبال كلباء، مرسومة كأقواس رفيعة على صفحة السماء الصحراوية. وتضفي هذه الحارسات العتيقات، الكثيرة في الجيوب المحمية والأودية المتعرجة، على المشهد مزيجاً من الصلابة والجمال. وفي أثناء المسير، استوقفتني عيناي عند حمار وحيد يستظل تحت سمرة عريضة متشابكة الأغصان، يحتمي بظلّها من وهج الشمس، كأنّ السماء مدّت له ذراعيها بمظلّة رحيمة.

يُعرف هذا النوع علمياً باسم «فاكيليا تورتيلِس» *(Vachellia tortilis)*، فيما يُعرف بالإنجليزية باسم شجرة الشَّمسية الشوكية (Umbrella Thorn Tree)، ويُشار إليه في العربية عادةً باسم شجرة السَّمُر تاجها المسطّح المميّز وأشواكها الحادة يمنحانها حضوراً مهيباً في الطبيعية. وتؤدي أشواكها دوراً حيوياً في صدّ الحيوانات الرعوية مثل الإبل والماعز والحمير، فتشكّل درعاً طبيعياً يحميها وسط بيئة قاسية شحيحة الموارد. وتُعدّ شجرة السَّمُر من أكثر الأشجار صلابة وقدرة على التحمّل، ومن أوسعها انتشاراً في دولة الإمارات، إذ تنمو في السهول الحصوية، والسبخات الرملية، وعلى امتداد عروق الجبال الجافة حتى ارتفاعات متوسطة، محافظةً على خضرتها ووقارها رغم قسوة المناخ.

ومع ذلك، فإن فصيلة الـ«فاكيليا تورتيلِس» *(Vachellia tortilis)* ليست مجرّد شجرة؛ بل هي ينبوع حياةٍ، ومصدر حماية ورزق، تمنح الظلّ والغذاء والمأوى، وتغدو رمزاً للصمود في وجه القحط والجفاف.

استُخدم خشبها الصلب قديماً في صناعة الأثاث، وبناء الأسيجة والأقفاص وحظائر المواشي. ووجد بدو الجبال في قشرتها اليابسة حطباً مثاليّاً؛ إذ تحترق نظيفة بلا دخان كثيف، لتغدو رفيقةً وفيّة لليالي الصحراء المصفوفة بالرياح. ومن شجرتها يقطر صمغ حلو يُمضغ كاللبان، هو أحد أقدم أشكال الصمغ العربي. وإذا جُرحت قشرتها نزفت عصارة حمراء - طارداً طبيعياً للحشرات، ودليلاً آخر على قدرتها المدهشة على التكيّف مع قسوة الصحراء.

ولكل جزء من شجرة السَّمُر - جذراً أو غصناً أو قرناً - مكانة في تقاليد الطب الشعبي. غير أن أثمن عطاياها تنبض من أعماق الأرض؛ فهي مجدِّدة للأراضي، قادرة على مجابهة الجفاف، والتربة المالحة، والرياح الصحراوية العاتية، وتنوّع التضاريس. وبفضل تحالفها الطبيعي مع البكتيريا المثبّتة للنيتروجين في جذورها، تعمل هذه الشجرة على إثراء التربة بالعناصر المغذّية، لتُمهّد الطريق أمام النباتات الأخرى للنموّ والازدهار من حولها.

ومن الجدير بالذكر أيضاً أنّ أندر أنواع العسل وأعلاها قيمة في المنطقة ما تنتجه النحل التي تتغذّى حصراً على أزهار شجرة السَّمُر. ذلك العسل الذهبي اللون، العابق بعطر خشبي عميق، لا يُشتهر لمذاقه وحده، بل لخصائصه العلاجية التي عُرفت منذ العصور القديمة وما زالت حتى اليوم محل تقدير. يُقال إن عسل السَّمُر يحمل مركّباً شفائياً فريداً يُعرف محلياً باسم البرم، وإن لحاء الشجرة وأوراقها وأزهارها مشبعة بهذه الخاصية التي تشكل علاجاً خفياً لأمراض لا تُحصى، تتناقله الأجيال. حتى موسم إزهار السَّمُر له اسمه الخاص: برم السَّمُر، وهو الوقت الذي يضجّ بطنين النحل ويبشر بموعد حصاد الرحيق الذهبي.

لكن ما يتجاوز قيمته البيئية والدوائية، أن السَّمُر يحتل مقاماً راسخاً في الذاكرة الروحية والثقافية للمنطقة.

ففي الرؤية الصوفية، ليست الشجرة خشباً وأوراقاً وحسب، بل مرآة للروح، فجذورها تغور عميقاً في المياه الخفية، كما يجب لقلب السالك أن يرتوي من بئر الذكر الغيبي. جذعها يقف صلباً في وجه العواصف، مرشداً إلى دروب الصبر حين تشتد قسوة الحياة. أما أغصانها، فتمتد شوقاً نحو السماء، كما تمتد الروح حنيناً نحو المحبوب.

إنّ شجرة الـ«فاكيليا تورتيلِس» *(Vachellia tortilis)*، بشوكها وظلها، تختزن مفارقةً مدهشة: تجرح وتداوي، تقسو لكنها تجود بالعسل. وهكذا هو الطريق - أشواك الشوق تخترق

القلب، ومن الجرح يتقطّر رحيق أحلى من كل شيء. وهكذا النحلة تجمع الرحيق بصبر، رشفة بعد رشفة، وتستخلص من العناء حلاوة؛ وكذلك السالك يجمع أنفاس الحضور واحداً تلو الآخر، ويستخرج من كل ابتلاء رحمةً خفية.

وقد ضرب القرآن المثل بالشجرة المباركة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: 24). وشجرة السَّمُر، شأنها شأن النخلة التي ورد ذكرها في القرآن، هي شجرة الصحراء المباركة: تتجذّر في تربةٍ قاحلة، لكنها تمنح الظل، وتُفيض شفاءً وحلاوة. والجلوس تحتها أشبه بالارتماء في بركة الله، الذي يغرس الشجرة كما يغرس السالك في الموضع الذي يحتاجه العالم أكثر من سواه.

وفي التراث البدوي، لم تكن السَّمُر مجرد نبات، فهي رمزٌ للصبر والاحتمال، وملاذاً مباركاً يستظلُ به العابرون. وفي التاريخ الإسلامي، انعقد تحت شجرة من السَّمُر صلح الحديبية- شهادة بالولاء للنبي محمد ﷺ. ويروي صحيح مسلم عن أبي الزبير قوله: «كان عمر آخذاً بيده وهو جالس تحت الشجرة [المسمّاة] بالسَّمُرة». وهكذا غدت السَّمُر ميراثاً رمزياً للوحدة والتأمل والشهادة الإلهية.

هذا التبجيل يتخطّى حدود الثقافات والأديان، ففي سفر الخروج، ورد ذكر شجرة السَّمُر باعتبارها الخشب الذي صُنِع منه تابوت العهد وخيمة الاجتماع بعد أن تسلّم موسى الوصايا العشر على جبل سيناء. وبسبب ندرة النباتات في صحراء سيناء، كانت السَّمُر المرشّح الأرجح. بل إن بعض التأويلات ترى أن العلّيقة المشتعلة، التي خاطب الله موسى من خلالها، ربما كانت شجرة سَمُر - شعلةً تحتضن الوحي الإلهي.

وفي أساطير مصر القديمة، تكتسب شجرة السَّمُر دلالة أعمق. إذ تُروى الأساطير أن الإلهة ساوسيس، المعروفة أيضاً باسم «إلهة الشجرة»، قد أنجبت سائر الآلهة تحت ظلال أغصان شجرة السَّمُر. ويُقال إنّ الإله حورس، رمز الحماية والسيادة، وُلِد من رحم هذه الشجرة الأسطورية نفسها. وتذكر أسطورة أخرى أنّ سِت، بعدما قتل أخاه أوزوريس، وضع جثمانه في تابوت صُنع من خشب «شجرة الشَّمسية الشوكية»، أي من خشب السَّمُر نفسه. وقد حمل النيل التابوت العائم في مجراه حتى رسا على شاطئ بعيد، حيث نبتت شجرة سَّمُر أخرى حوله، واحتضنت بداخلها رفات الإله، كما لو أنّها أمٌّ تضمّ وليدها في أحضانها.

منذ عصور الإمبراطوريات القديمة حتى لحظات النبوّة، ظلّت شجرة السَّمُر واقفةً في

صمتٍ على تخوم الأسطورة والذاكرة، تحمل بين أغصانها حكمة القرون. وما بدا في الظاهر مجرّد شجرةٍ صحراويةٍ أخرى، تبيّن أنه محورٌ تتقاطع فيه مسارات البيئة والشفاء والتراث والمعرفة الروحية العميقة.

حين وقفت تحت ظلها، شعرت بتحوّل ينساب في داخلي. ربما كان همس الحكايات القديمة يتماوج بين الأوراق، وربما كان مجرد هبوب ريح عابرة. لكنني أيقنت أن هذه الشجرة منحتني أكثر من مأوى؛ لقد منحتني صلة، جذراً، خيطاً يربطني بالأرض وأهلها وأساطيرها.

واصلنا صعودنا في جبال كلباء بقلوبٍ خفيفة وخطى واثقة، تحفّنا مهابة أرض صاغتها يد الزمان وأنفاس الريح. انبسط المشهد أمامنا كمخطوطةٍ عتيقة، تتوالى طيّاتها عبر الصخور والحواف والوديان، تهمس بأسرار قرونٍ منسية. ومع كل خطوة، كانت الدهشة تتجدّد، حتى بلغنا القمّة أخيراً.

هناك، وكأنها تنتظر قدومي منذ دهور، انكشفت أمام بصري علامة.

كانت تقف في ضوء النهار عارية من كل حجاب - لا تغطيها شجرة، ولا تحجبها الظلال - بل شاخصة بجرأة، كأنما قدّر لها أن تُرى منذ الأزل. دائرة مرسومة بإحكام، تحيط بها أحجار عظيمة، انبسَطت أمامي بخشوع صامت. عندها انتفض في داخلي شيء قديم، وارتجف صوتي وأنا أهمس لدليلي: «أتدري ما هذا؟».

هزّ رأسه نافياً. وقال معترفاً: «لم أرَ مثل هذا من قبل قط». ثم أضاف: «ستحتاجين إلى الاستعانة بخبيرٍ في علم الآثار ليتولّى دراسته والكشف عن حقيقته».

أما أنا، فخبيرة في علم الآثار بحكم التدريب والممارسة، ومثل هذه الألغاز لا تترك في داخلي حياداً؛ بل توقظ جزءاً عتيقاً، عميقاً، يصعب أن يُقال. أحسست بثِقَل الاكتشاف يستقر برفق على صدري. التقطت صورة للمكان، وقلبي يخفق، متلهفة لأن أشاركها مع الفريق الأثري المحلي حالما نعود إلى قاعدة الجبل.

لقد بدا في عيني كمقبرةٍ سومرية - بنيته تستحضر إلى الذهن مواقع الدفن العريقة لسلالات ما قبل الإسلام في بلاد الرافدين. نصب كهذا، مُشكَّل من حجر وحكاية، لا يمكن أن يُقام لأيٍّ كان؛ فلا بد أنه احتضن يوماً ذاتاً ذات شأن - ربما كانت شخصية ملكية، أو روحاً نبيلة ظلّت ذاكرةُ وجودها تنبض في قلب هذه الأرض.

حينها اجتاحني فيضُ المجهول، وكدتُ لا أطيق صبراً على كشف المزيد.

وفي وقت لاحق من ذلك العصر، وبعد نزولنا من الجبل، ابتعدت قليلاً أبحث عن فسحة صمت أختلي فيها بنفسي. سلكت درباً يقود إلى حافة وادٍ حيث انفتحت الأرض على بانوراما مترامية، مهيبة. هناك، وقفت تحت سماء لا نهائية، والنسيم العليل يمرّ على وجنتي، يوشوش في سكون الهواء. لم يكن في الأفق إنسان. لا شيء سوى نداء طيور بعيدة وصدى الصمت.

وفي البعد، لاحت لي قرية كلباء للصيد مستلقية في حضن الساحل؛ بيوت بيضاء متناثرة كالأصداف على حافة الشاطئ، وقوارب صغيرة تتهادى فوق صفحة الماء كقرابين بين يدي أمواجه النقية.

وفجأة، من دون إنذار، ارتفع صوت - ليس في أذني، بل في أعماق ذهني. همسة واضحة، آمرة، آتية من ما وراء:

«أخبروهم أنها هنا... أخبروهم أنها هنا...»

لم أعهد مثل هذا الشعور من قبل. حدّقْتُ حولي محتارة ومتنبّهة، فلم أرَ إنساناً، ومع ذلك ارتعش جسدي بأكمله: شعرتُ كأنهم يأتون نحوي - مئاتٌ، وربما آلاف - ليس بأجسادٍ مرئيةٍ بل بأرواحٍ مشعة.

شعرتُ كأنهم كانوا يهتفون ويزغردون ويغنّون، تتردّد فرحتهم حولي كجوقةٍ خفيّة لا تُرى. ثم أعادوا نداءهم من جديد:

«أخبروهم أنها هنا، أخبروهم أنها هنا!»

انحبست أنفاسي. هل كان ذلك وهماً؟ هل خدعة من أثر العلو؟ كلا - كان أصدق من كل ما يداهمه لمسي وحواسي.

من كانوا؟ ومن الذي ينبغي أن أخبره؟

فتشت في أفكاري طالبًة فهم الرسالة، وطار بي الخاطر إلى القبر على القمة. هل كانت الهمسة تتحدث عن من دفنت هناك؟

أيمكن أن تكون ملكةٌ مدفونة في ذلك الضريح، روحها تنتظر - تدعو إلى أن يُعرف ميراثها من جديد؟ هل خُطّ لي أن أكون شاهدةً تورد روايتها إلى النور؟

جرفني تيار من المعنى والغاية، وشعرتُ أن الحجاب بين العوالم قد انزاح لبرهة عابرة -

كافية لأن يبوح بما وراءه.

هناك عوالم كثيرة لا نراها.

وما وراء حجاب الإدراك أوسع بكثير ممّا نراه. ثمة عوالم لا تُقاس ولا تُرسم، وإذا سرنا بخشوعٍ وأمعنا الاستماع بانفتاحٍ، قد نلتقط همسات الماضي أو أصواتاً لمن لا يزالون في انتظار أن يُذكروا.

«أخبروهم أنها هنا».

وسأفعل.

القبر الذي وجدني

في تلك الليلة، فيما كان الغسق يسكب ألوانه الذهبية على أفق الجبل الوعر، عدتُ إلى الشارقة بسيارتي مع عائلتي. انبسط الطريق هادئاً تحت عجلات سياراتنا، غير أنّ ذهني بقي غارقاً في أصداء الجبل، وفي ذلك الصوت الغامر الذي ناداني هناك.

ما إن وصلت إلى المنزل، وما زالت توهجات التجربة تسري في داخلي، حتى أرسلت صورة القبر إلى عيسى يوسف، المدير العام لهيئة آثار الشارقة.

اتصل بي على الفور، تكاد أنفاسه تنقطع، متسائلاً: «أين وجدتِ هذا؟».

أخبرته أنني كنتُ أتجوّل في جبال كلباء حين وقعتُ على
القبر - واضحاً كنهار، جالساً مكشوفاً كأنه كان ينتظر قدومي. فجاء رده مشوباً بعدم التصديق: «لقد جُبتُ تلك الجبال مشياً بتفحص دقيق، ووثّقتُ كل موقع أثري فيها، ولم أرَ هذا القبر من قبل».

سأل مجدداً: «كيف عثرتِ عليه؟».

تردّدت لحظة، والذكرى ما زالت حاضرة في صدري، ثم همست: «لا أدري... ربما القبر هو من وجدني».

ساد صمت قصير، قبل أن يجيب بيقين: «إنه بالتأكيد قبر سومري. ومن بنيانه وهيبة تصميمه، لا شكّ أنّه قبر ملكي».

اخترقت كلماته أعماقي.

خُيِّل إليّ أنّني أقف على حافة نسيجٍ هائل، حيث خيوط التاريخ تتشابك في داخلي. ثم أضاف قائلاً: «سأتوجّه غداً إلى كلباء في مهمة عمل، وسأصعد الجبل لأعاين الموقع بنفسي».

قلت فوراً، بلا تردد: «سأذهب معك. فأنا من اكتشف القبر!».

ضحك بحرارة، ثم اتفقنا على اللقاء عند الرابعة فجراً، قبل همسة الفجر الأولى. أردنا أن نعطي أنفسنا وقتاً كافياً للصعود والعودة قبل غروب الشمس.

تحرك بداخلي شيء من الماضي السحيق. وكان لا بد أن أستجيب.

في صباح اليوم التالي، نهضتُ وأنا أستشعر في صدري سكوناً يتخلّله شوقٌ خافتٌ لمعنى آتٍ. شددتُ رباط حذائي الجبلي، وارتديت بنطالاً خفيفاً وقميصاً قطنياً ناعماً. وضعتُ في حقيبتي سترة رقيقة، وزجاجة ماء، وشيئاً من الطعام. كان الهواء ساكناً، كأن الجبل نفسه يحبس أنفاسه في انتظار ما سيأتي.

حين وصل عيسى، بهرتني طمأنينته. كان واقفاً بثبات، مرتدياً كندورة بيضاء فضفاضة ونعلين بسيطين. لا شيء يوحي بالتهيؤ لتسلق جبل. سألته إن كان يحتفظ بملابس أخرى في سيارته، أو على الأقل حذاء أكثر صلابة. فضحك، مبدّداً قلقي بابتسامة: «هكذا اعتدتُ صعود هذه الجبال منذ أن كنتُ صبياً».

كانت كلماته تحمل نَفَساً موغلاً في القِدم، كأن الأرض تمشي بخطواته.

انضم إلينا أجمل حسن، عالم الطبيعة المتمرس الذي رافقني كثيراً في رحلاتي، لكنّه لم يكن حاضراً بالأمس لحظة اكتشاف القبر. ومع اجتماعنا نحن الثلاثة بدأنا الصعود نحو القمة.

كان الدرب مألوفاً، لكنني اضطررت أن أستند إلى ذاكرتي وحدها - إذ لم يكن عيسى أو أجمل برفقتي البارحة. تابعنا السير على الطريق المتعرّج، خطوةً إثر خطوة، حتى بدأت الملامح تستعيد شكلها في الأفق. وهناك، ارتفع أمامنا كأنّه همس من عالم آخر: القبر.

انطلقت شهقة جماعية بدّدت الصمت، فتجمّد كلٌّ من عيسى وأجمل في مكانهما مبهورَين. كان القبر أضخم وأبهى في حقيقته مما أوحت به الصورة، وأحجاره تهمس بأسرارٍ أقدم من أن تُوصَف بالكلمات. أخذ عيسى يهزّ رأسه في دهشة لا يصدق، ويتمتم: «كيف غاب عني هذا القبر؟ إنه هنا-ظاهر للعيان».

تملّكتني الأسئلة، تتدافع من فمي في سيلٍ لاهثٍ من الدهشة: «كم يمكن أن يكون عمرها؟ لمن كان هذا المرقد؟ أيمكن أن يكون لملكةٍ قديمة، أو حاكمة منسية كانت تجوب هذه الأرض المباركة؟».

أجاب عيسى بحذر وتأنٍ: «لا سبيل لمعرفة ذلك بالنظر وحده. لا بد من الحفر. عندها فقط سنعرف من يرقد هنا».

خفق قلبي حماساً، فقلت بإلحاح: «إذن لا بُدّ لنا من ذلك، علينا أن نعود ونكشف

الحقيقة».

اتفقنا على أن نعود في الغد، مزودين بالأدوات والمعاونين، عازمين على إزاحة طبقات الزمن وكشف ما تخبّئه.

وفي أثناء نزولنا، أخذت أتجاذب الحديث مع رفاقي بحماسة، والفرح بالاكتشاف يتدفّق في عروقي كالنار. لكن فجأة، ومن غير إنذار، انفرجت السماء، وانهمر المطر غزيراً، حاداً، مطهِّراً، على غير توقّع. كنّا لا نزال في منتصف الطريق نزولاً حين ابتلّت أجسادنا حتى العظم. لم أكن قد جلبت عتاداً واقياً من المطر، ولم يفعل أحد، فالمطر في هذا الفصل أمر نادر الوقوع.

وحين وقع بصري على الصخور الملساء اللامعة أسفلنا، تسلّل إلى نفسي خيط من الخوف. فقد غدا الطريق غادراً. انزلقت حذائي فوق الحصى المتفكك والصخور المبتلّة. عندها مدّ أجمل يده، ثابتةً وقويّة، وأمسك بيدي ليقودني عبر هذا المنحدر الزلِق.

وأخيراً انبسط المنحدر وأفسح المجال لأرضٍ أكثر استواءً، فتبدّل شيء في داخلي. انحسر قلقي وحلّ محلّه انبهار عميق. بدأت أطرب للمطر، لطريقة لمسه لبشرتي، ولحنه وهو يعزف على الأوراق. تفتّحت حواسي، فصرت أشمّ عبق التراب، ورائحة العشب، وأنفاس الأزهار البرية، ونفَس الأشجار العتيقة، كلّها تهمس بأننا في المكان الذي قُدِّر لنا أن نكون فيه.

في ثقافتنا المطر بركة من الله - فأل مبارك. وفي تلك اللحظة، علمتُ يقيناً أن هذا الاكتشاف كان مباركاً.

يصف الصوفيّة الرحمة كمطرٍ يهطل على الجميع بلا استثناء. وجاء في القرآن: ﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ (الفرقان: 48)، و﴿وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ (الشورى: 28). أما ابن عربي فيسميه «الفيض الإلهي» - واصفاً إياه بأنه سيل سماوي يهب الحياة لكل موضع يحلّ فيه.

كان ثمة ما هو أكبر منّا يوجّه خطانا. الماضي نفسه كان ينطق.

وحين بلغنا سفح الجبل، كنا غارقين ومتعبين، لكن قلوبنا مشبعة بالتطلّع. غداً سنعود. وربما - إن أذن لنا الجبل - سنكشف الحكاية التي ظلّت تنتظر طويلاً كي تُروى.

لم يعد الاستيقاظ عند الرابعة فجراً مجرّد عادة، بل غدا أشبه برحلة صامتة، وإيقاعاً

خفيّاً استسلمتُ له طوعاً. كنت أعيش على بُعد ساعة من كلباء، وكلّ رحلةٍ عند الفجر بدت لي كعودةً، لا إلى الجبال وحدها، بل إلى شيء أقدم بكثير، شيء منسوج في نسيج الأرض ذاتها.

في ذلك الصباح اتسع ركبنا. كان عيسى وأجمل بجانبي من جديد، وانضم إلينا فريق من حفّاري هيئة الآثار في الشارقة - رجال عرفوا كيف ينزعون الغبار عن عظام وقطعٍ طمرها النسيان، وكيف يستدرجون الهمس من صمت القرون.

بدأنا الصعود مرة أخرى. كانت تضاريس الجبل قد انطبعت في ذاكرتي، فصرت أمشي بسهولة، متجنبة المخاطر المألوفة مثل أحراش أشجار «أم الغيلان» اليابسة المليئة بالأشواك التي تخدش كل غافل. كأن الأرض منحتني ثقتها، فبادلتها إياها.

وكعادته، كان أجمل نبعاً من الحكمة، يفيض بتوقيره العميق للعالم الطبيعي، محوّلاً الرحلة الجبلية إلى مسيرة كشفٍ واكتشاف. كان يشير إلى نباتات مررت بها مئات المرات من دون أن أدرك قصصها - نباتات كان أسلافنا يجمعونها ويغْلونها ويُحرقونها ويطحنونها، ويستعملونها لا للشفاء وحده، بل للطقوس والبقاء أيضاً.

أراني زهرة الربيع العربية - «الحمراء» أو «الكحيل»، واسمها العلمي (Arnebia hispidissima). كانت تنمو قريبة من الأرض، متواضعة في هيئتها، لكن إرثها عظيم العمق. فمن جذورها كان يُستخرج إكسير شافٍ يُستعمل لعلاج القرح والدُمامل والجروح المفتوحة وأمراض الحلق. وفي طبّ الصحراء، كانت هذه النبتة الواحدة بمثابة صيدلية كاملة: تخفّف الحمى، وتهدّئ الصداع، بل وتمنح صبغتها النيليّة لفنّ تلوين الوجه، الذي كان يُمارس في الطقوس أو اتّقاءً لوهج شمس الصحراء القاسية. أخبرني أجمل أنّ هذه الصبغة، حين تُمسح على الوجنتين أو الجبهة، كان يُعتقد أنّها تبرد الجسد وتستجلب طاقة واقية. لم تكن هذه مجرّد طبابة نباتيّة، بل كانت حكمة أسلاف، منقوشة في الذاكرة الشفوية الحيّة.

بعد خطوة لاح لنا السوسن الأنيق، المعروف بالكوثر، واسمُه العلمي (Asphodelus tenuifolius)، بأوراقه الطويلة الضيقة التي تتمايل مع نسيم الصباح.

قال أجمل: «لقد قدّر البدو هذه النبتة وأولوها مكانة خاصّة». ثم شرح كيف كانت بذورها تُنقع في الخل ثم تُحرَق، لتنتج سُخاماً يُستعمل كمسكّن لآلام الأسنان. وإذا غُلِيَت كاملة، أدّت دور المُليّن ومدرّ البول. أمّا مسحوقها بعد السحق فكان يُستعمل لمعالجة

القرح وأمراض الجلد. وربّما كان أجمل ما في إرثها أنّها دخلت في ثقافة الطعام: فالـ«يقط» - وهو اللبن الرائب المطبوخ والمجفّف - كان يُمزج بها أحياناً ويُحفظ، ليُحمل في الرحلات عبر تضاريس الصحراء القاسية.

لم تكن هذه مجرد علاجات، بل طقوس بقاء انتقلت من المعالج إلى الطفل، ومن الأم إلى الابنة، راسخة في أجيال من الخبرة الحيّة مع الأرض. لم يكتفِ أسلافنا باستعمال الطبيعة، بل أصغوا إليها، وفهموا أسرارها، وعاشوا في تناغم معها. كانت صيدليتهم سفوح الجبال، وفي كل نبات خُطّت شفرة خفيّة.

وبينما كنتُ أسير بجانب أجمل، شعرتُ أنني أرى الجبال لا بعيني فقط، بل بعيون الذين مشوها قبلي - القابلات، والعشّابون، والرُحّل، والعارفون. معرفتهم لم تندثر. لقد بقيت في التربة، وفي كلمات أجمل، وفي رائحة الأوراق المهروسة تحت أقدامنا.

مع كل خطوة، كنّا نقترب من القبر، لكنني أدركت أننا نسير أيضاً برفقة الأجداد، نقترب من شيءٍ أعمق - عالم مفقود بدأ يستعيد أنفاسه، وذاكرة تنتظر أن تُستعاد.

وأخيراً بلغنا القبر، رابضاً في حضن الأرض كسرٍّ عتيق ينتظر لحظة الانكشاف. تحرّك العمّال بخفّة، فكشفوا الأغطية، وهيّأوا أدواتهم، واستعدّوا للحفر. لكن ما إن دوّى صوت المعدن وهو يرتطم بالصخر حتى اجتاحني موج من القلق. رفعت يدي وأوقفتهم على الفور. قلت بصوت حازم يملؤه الوقار: «انتظروا... لا بدّ أن نستأذن أوّلاً».

تبادل العمّال نظرات متسائلة، غير مدركين مقصدي. تقدّمتُ خطوة نحو القبر، ودعوت الجميع أن يصطفّوا بجانبي. اصطففنا في دائرة حول الصَرح الأثري العتيق، كتفاً إلى كتف، تحت عين السماء الصافية. لم أكن أعلم يقيناً ما سأقول، لكنني كنت واثقة أن الكلمات يجب أن تأتي من موضع أبعد من العقل. أغمضت عيني، وتركت الصمت يستقرّ بيننا قبل أن أبدأ.

تمتمتُ بدعاء صامت في أعماق قلبي، ألتمس الإذن بالتنقيب عن القبر، مع توقير هيبة الأرواح الراقدة فيه والإنصات لهداها. أكّدتُ لها أننا جئنا بسلام، لا نبتغي إلا أن نتعلّم الحقيقة، ونفهم قصّتها، ونكشف ما طواه الزمن من حكايتهم.

وهمستُ بخشوع: «أنتم السابقون ونحن اللاحقون».

في الطريقة الصوفية، الأدب هو الأصل - أدب الظاهر مرآة لأدب الباطن. كما علّم

الجنيد، السير محكوم بالكتاب والسنّة، والذكر تاج كل خطوة. والقرآن يذكّرنا أن كل ما في الكون يسبّح بحمد الله (الإسراء: 44؛ النور: 41). لذا، فإن التوقف عند قبر، وطلب الإذن، وإظهار التبجيل للمكان والخلق، ليست طقوساً عابرة، بل تدريب للقلب على الحضور والهيبة.

بقي الجبل ساكناً، وكأن الزمن نفسه قد توقّف. لذتُ بالصمت قرابة عشر دقائق، أصغي لا بأذني فحسب، بل بعظامي أيضاً، أترقّب إشارة ما. لم يتبدّل شيء في الظاهر؛ لا هبّة ريح ولا رجع صدى، غير أنّ شيئاً في أعماقي انفرج، عندها عرفت أن الطريق مفتوح.

استأنف العمّال عملهم. أخذت معاولهم تضرب الحجر بإيقاع رتيب، والغبار يتصاعد طبقة فوق أخرى. كل ضربة بدت لي كأنها تزيح حجاباً عن سرّ قديم. فكّرت في قول الصوفيين: القلب يُغطَّى بحُجب الغفلة، ومع الذكر والتسليم، تُرفع هذه الحجب وتترقق؛ فيقع الكشف، ذلك الانكشاف الذي تتجلّى فيه المعاني بوضوح لا يستطيع جدال أن يبلغه.

ارتفع الغبار أولاً كهمسة، ثم كعاصفة، حتى تسلل إلى عينيّ وملأ صدري. صرت أسعل، ولسعت الدموع عينيّ، حتى كدت أعجز عن التنفّس أو الرؤية وسط ذلك الضباب الدوّار.

صعدتُ قليلاً أعلى الجبل لأبتعد، فإذا بي - على مقربة من موقع الحفر - أجد مقعداً حجرياً غريباً، مرتفعاً قليلاً ومنحنياً كأنه نُحت خصيصاً لي. جلستُ عليه، ولدهشتي احتواني باحتضان مثالي، حتى خُيِّل إليّ أن الوضعية غير عادية - وكأنه كان ينتظرني منذ زمن بعيد.

من هذا الموضع، كان المنظر يخطف الأنفاس. رأيت الوادي بكامله يمتدّ تحت بصري - حوافّه، مسالكه السرية، ودروبه المتعرجة مرسومة كالأوردة على جسد الأرض. وفوقي، انفردت السماء بألوان سريالية، غيومها منحوتة بأشكال حيّة قريبة حتى خُيِّل إليّ أنني أستطيع لمسها.

جاء أجمل وجلس بجانبي. ظلّ ساكناً أول الأمر، ثم ابتسم وقال بلطف: «تبدين كملكة على عرشها، تراقب مملكتها».

ومنذ ذلك الحين سُمّي المكان: «عرشي».

حين ثبتُ في انحناءة الحجر، احتواني باكتمال حتى تساءلت إن كان ينتظرني منذ زمن.

ظلّت كلمات أجمل - «ملكة على عرشها» - عالقة في ذهني، تتردّد كصدى خفي. ومع ذلك، بدا الأمر أعمق من مجرد صخرة. يقول العارفون إن العرش الحق لا يُنحت من حجر، بل ينهض في القلب حين يغمره نور الله. تذكّرتُ قولاً يُنسَب إلى جلال الدين الرومي: «قلبك هو عرش الحبيب- فأعدّه مسكناً، ولا تتركه خراباً». لعل ما كان يحتويني في تلك اللحظة لم يكن مقعداً من تراب فحسب، بل تذكرة بأن السيادة الحقيقية تنبع من الداخل.

بقيت جالسة، منسابة في سكينة عميقة. انجرفت إلى تأمل يشبه السفر إلى بُعد آخر. شعرت بخفّة، بانفتاح، بلا قيود. لا أعلم كم طال بي المقام - ربما ساعتين. في لحظة ما، لا بد أنني غفوت.

في رؤياي، زارني جدي لأبي، رحمة الله عليه. كان حضوره مشرقاً، مفعماً بسلطان المحبة. نظر إليّ بعينين عميقتين عارفتين وقال برفق: «واصلي البحث يا ابنتي. ستعثرين على شيء سيغيّر التاريخ - شيئاً ظلّ والدك يبحث عنه طوال حياته. لكنه بحث في الكتب، أمّا أنتِ فستجدينه في الأرض. احفري الأرض... وستَرَين».

وعندما استيقظت، كان الغبار قد هدأ، لكن ناراً جديدة توهّجت في داخلي. عرفت بيقين لا يتزعزع أن هذا القبر لا يخفي آثاراً وحسب، بل كان يحتفظ بقدرٍ مكتوب.

نهضت من المقعد الحجري، ما زلت مغمورة بضباب رؤياي، واتجهت نحو العمّال لأرى أين بلغوا في الحفر.

وحين اقتربت، لمحتُ ملامح أجمل تتبدّل. تجمّد وجهه في انقباض ينذر بالخطر، وعيناه معلّقتان على الموضع الذي كنت أجلس فيه قبل لحظات. غلبني القلق فبادرت أسأله: «ما الأمر؟».

لم يرفع بصره عن الأرض، وقال ببطء: «كانت هناك أفعى سوداء... تتحرك تحتك، تماماً لحظة نهضتِ من العرش».

شهقت بدهشة: «أفعى سوداء؟! لم أرَ شيئاً!».

أكّد العمّال كلامه، فقد رأوها بأعينهم. توقفوا عن الحفر، وشرعنا جميعاً نبحث في الأرض الصخرية، لكنها اختفت - بلا أثر.

ارتسم الاضطراب على ملامح أجمل، وهو العارف بخبايا الحياة البرية، وقد وثّق كل أنواع الأفاعي في الإمارات. التفت إليّ وقال بصوت منخفض حاسم: «هذا النوع لا يوجد

هنا. من المستحيل أن تجدي أفعى سوداء في هذه الإمارات».

في تلك اللحظة، أيقنت أن ما ظهر لم يكن أفعى عادية، بل روحاً متجسدة في هيئة حيوانٍ، تحمل رسالة من عالم آخر.

ولكوني باحثة في علم الأنثروبولوجيا، فقد درستُ طويلاً رمزية أرواح الحيوانات وما تحمله من دلالات في تقاليد الحكمة القديمة لدى الشعوب الأصلية في أمريكا الشمالية. ففي العديد من ثقافات السكان الأصليين والأمم الأولى، تُقدَّر أرواح الحيوانات بوصفها كائناتٍ مباركة - مرشدين، وحُماة، وحُرّاس. وحضورها لا يكون اعتباطياً أبداً. غير أنّ علينا أن نتناول هذه المعارف بروحٍ من التوقير والتواضع، مدركين أنّ «طب الحيوان» ميراث روحي متجذّر بعمق في أنساق المعتقدات القديمة، ولا يصح أبداً أن يُساء فهمه أو يُنتَزع من سياقه.

ومن بين الرموز جميعها، يحمل طوطم[1] الأفعى رمزية فائقة العمق. إنّه أيقونة التحوّل والبعث والتجدّد. وكما تبدّل الأفعى جلدها، فهي تدعونا إلى التخلّي عن الهويات البالية، والمخاوف العتيقة، وجراح الأمس، لنستقبل التغيير برشاقة واتزان. وتُعلّمنا الأفعى كذلك معنى الترسّخ في الأرض-البقاء أوفياء للتراب-إذ لا ينفصل جسدها يوماً عن التربة. فالتحوّل بلا جذور يفضي إلى خلل، والأفعى تذكّرنا دوماً أن نظلّ مشدودين إلى الحقيقة.

ربما كانت الأفعى السوداء ترقد تحت قدميّ طوال الوقت وأنا نائمة، لكنني لم أشعر بها لانغماسي في الحلم. ومع ذلك، فإن رسالتها بدت جليّة - لقد جاءت لتسلّم إليّ علامة، وقد استقبلتها بوعي القلب قبل وعي العين.

يقول الصوفيون إن الأفعى رمزٌ للتحوّل والتجدّد؛ إذ تنسلّ من جلدها وتمضي جديدة، نقية، متخففة من ثقلها القديم. كذلك يُطلَب من السالك أن يدع طبقات النفس تسقط، واحدة تلو الأخرى، حتى يتنفس قلبه خفيفاً، صافياً من الغشاوات. ذلك هو الفناء - محو الأنا أمام الله. ويقول بايزيد البسطامي: «خرجتُ من بايزيد كما تخرج الحيّة من جلدها». وفي كلماته يكمن جوهر الفناء: أن يتجرّد السالك من اسمه وقصته وكل ما يُكبّله، كما يخلع الثعبان جلده دون أسف، ليبقى كياناً جديداً شفافاً لنور الحق.

ربما لم تكن الأفعى السوداء نذير خطر، بل بشارة، وإشارة إلى أن قشرة قديمة آن أوان خلعها، وأن حياة أصدق توشك أن تُولد. لم يكن اختفاؤها هروباً، بل تذكيراً بأن ما يبدو

مظلماً أو غامضاً أو خفياً قد يحمل أنقى الحكمة.

في تلك اللحظة، طافت بخاطري أبيات الشاعر الإسباني فيدريكو غارسيا لوركا:

كالأفعى، بدّل قلبي جلده.

أمسكته بين يديّ، نابضاً بالعسل والجراح.

الأفكار التي كانت تعشش في ثناياك، أين هي الآن؟

جلست أتأمل، وأدركت أن التحوّل قد بدأ بالفعل. لم تعد الرحلة مجرّد بحث أثري في عمق التاريخ، بل سلوك روحي نحو أن أصبح نفسي من جديد. لقد دُعيتُ أن أخلع طبقاتي القديمة، وأن أخطو بكامل كياني نحو حياة أكثر صدقاً ونقاءً. ومع هذا الميلاد الجديد، شعرت أن معرفة عتيقة وحكمة دفينة تتهيأ للانكشاف أمامي.

لكن الحكمة العظمى تستدعي مسؤولية أعظم. عليّ أن أحملها بتواضع، وأن أبقى متأصلة بالأرض الأم، شاكرة للمرشدين الذين يأتون من عالم الطبيعة حاملين العلامات.

منذ دهورٍ بعيدة، ما برحت الشعوب الأصيلة تُجلّ روح الأرض وطبّها الباطن، ناسجة علاقة تبادلية مع الأرض والأسلاف وعالم الأرواح. ففي رؤيتهم، كل شيء - شجرة كان أو حيواناً أو نسمة ريح - مشحونٌ بنبض الحياة وروحها العميقة. وهذه الحكمة العتيقة تذكّرنا أننا نحن أيضاً كائنات إلهية، منسوجة في النسيج ذاته. نحن مدعوون لأن نسير على هذه الأرض في توازن مع أنفسنا، مع الغيب، ومع الطبيعة.

لا يزال عالقاً في قلبي قول قديم من حكماء الشيروكي: «كل ما يأتيك في الحياة إنما يأتيك معلّماً».

منذ قرونٍ والصوفيّة يعلّموننا عن شبكة الترابط الكوني. يقول الرومي: «ما الذي في الجرّة ولا يوجد في النهر؟ هذا العالم إنما هو الجرّة، وأما القلب فهو النهر». ففي بصيرته، تبدو كل شجرة وكل حجر، وكل نسمة ريح، مرآةً تُجسّد رحابة القلب واتساعه.

أما ابن عربي، الشيخ الأكبر، فيرى أن الكون بأسره ليس إلا تجلّياً إلهياً، ميداناً تظهر فيه أسماء الله وصفاته. وكما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: 44).

أن تسير بانسجام مع الأرض، هو أن تسير بانسجام مع الله. فكل خطوة يخطوها السالك على التراب هي ذِكر، وكل لقاء مع الريح أو الماء أو الحيوان هو لقاء مع آية من آيات

الله.

والقرآن يُخبرنا أنّ الكون كلّه منسوج بالآيات - شواهد على الحضور الإلهي - مبثوثة في السماء والبحر، وفي الورق والحجر: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصّلت: 53). وللقلب الصوفي، يعني هذا أنّ الأرض ليست جامدة ولا صامتة، بل ذاكرة حية في سكونها وفي رياحها ومياهها، تلهج بالتسبيح لربها.

أن تمشي بين الآيات هو أن تقرأ العالم ككتابٍ من نور - كل مخلوق فيه حرف، وكل جبل آية. لا شيء خُلق عبثاً (آل عمران: 191). الأشجار والنحل والنجوم مرايا تعيد القلب إلى أصله، فكلها تسبّح بحمده وإن لم نفقه تسبيحها.

وفي تلك اللحظة، وصورة الأفعى السوداء ما تزال مرتسمة تحت قدميّ، انكشف لي المعنى. كانت الأرض نفسها تعلّمني، وكنتُ مستعدة للإصغاء.

طقوس عبادة الأفاعي في البثنة القديمة

على مقربةٍ من الموضع الذي وقفتُ فيه، ترقد بقايا سرٍّ قديم، مغطّى بأزمنة من الرمال والصمت - معبد للأفعى من العصر الحديدي، يزيد عمره على ثلاثة آلاف عام، يحتضنه وادي حام في واحة البَثْنة الغنّاء، على بُعد 13 كيلومتراً شمال غرب مدينة الفجيرة اليوم. جاء اكتشاف هذا الموقع الفريد بفضل دقّة ملاحظة الدكتورة آن بونوآ، عالمة الآثار في «المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي»، حين قادها فضولها إلى النظر داخل بئر في منزل الشيخ محمد الشرقي، والد الحاكم الحالي لإمارة الفجيرة.

هناك، في القاع، لمحت أحجاراً ضخمة بالية، منحوته بدقّة لا تحتمل المصادفة، فأيقنت أنها بقايا جدار قديم. أثار ذلك فضولها، فانطلقت مع فريقها إلى التنقيب هنا على نطاق واسع. وما كشفوه كان مدهشاً: أكثر من مئة قطعة فخارية منقوشة بزخارف أفعوانية، وأربع وثلاثون تمثالاً برونزياً لأفاعٍ، تعود إلى ما بين 1100 و600 قبل الميلاد، جلّها في صورة أفاعٍ ذات رؤوس مثلثة عريضة بعلامات جانبية مميزة؛ بعضها مزدان بنقاط منثورة، وبعضها الآخر محفور بدوائر دقيقة، وكأنّها رموزٌ مشفّرة بمعانٍ خفيةٍ.

وبين عامَي 2001 و2004، أزاحت بعثة الآثار الفرنسية النقاب عن مجمّع طقوسي كامل، عبارة عن مبنى عام، وعدة مزارات، ومنطقة مركزية يُرجَّح أنها خُصِّصت للقرابين والذبائح، حيث دُفنت قرابين حيوانية في حفر عميقة. كما عُثر في الموقع على مذابح مكشوفة، ومباخر، وشظايا فخارية ملوّنة، ورموز أيقونية للأفعى متناثرة في أرجائه. ومن أعمق طبقات حفرة القرابين، استُخرجت أكثر من مئة قطعة برونزية صغيرة مستديرة- يُرجَّح أنّها نذور قُدِّمت تكريماً لإله الأفعى.

شكّل هذا الكشف أقدم دليل معروف على ممارسة دينية منظّمة في المنطقة، تعود إلى العصر الحديدي الثاني (حوالي 1100/1000–600/550 قبل الميلاد). وما تكشّف عبر الطبقات الأثرية كان صورة حيّة لتطوّر الطقوس عبر ثلاث مراحل في نشأة تقديس الأفعى، ابتدأت بممارسات في العراء حيث كانت عظام الحيوانات تُحرَق وتُوارى في حفر سريّة. ومع الزمن ازدادت الطقوس تنظيماً، فشُيّدت المعابد والمباني الشبيهة بالمصليات،

وتعطّرت الأضرحة بالبخور، ونُحتت أحواض للوضوء والتطهير الشعائري. وفي المرحلة الأخيرة، أُقيم طريق احتفالي أشبه بجادة تسير عبرها المواكب بخشوع نحو المذبح، لعلها مواسم أعياد أو ولائم إلهية تُقام تكريماً لإله الأفعى.

أما اسم الموقع نفسه - «البثنة» - فقد يحمل في طياته أصداء تلك الطقوس التعبدية القديمة. فبحسب تفسير عيسى، الاسم مشتق من الكلمة العربية «البَثْن»، أي الرمال الناعمة التي تأوي إليها الأفاعي الصغيرة. وإن صحّت هذه الرواية، فإن ارتباط المنطقة بالأفعى لم يكن مجرد رمزية عابرة، بل أساساً راسخاً في هوية المكان. ولعل البثنة كانت يوماً مقصداً للحج، ومزاراً صحراوياً يشعّ بقوة روحية هائلة. بل إن عيسى ذهب إلى أبعد من ذلك، مفترضاً أن كلمة «بايثون» (Python) نفسها قد تحمل جذوراً اشتقاقية مرتبطة بهذا الاسم - وهي فرضية جريئة، لكنها تلمّح إلى خيوط خفية تربط بين اللغة والأسطورة والعقيدة منذ أقدم الأزمنة.

وقد علّقت الدكتورة بينواست قائلة: «إن المكانة المركزية للأفعى في هذه العبادة تتجلّى بوضوح من خلال تكرار ظهورها على المواد المكتشفة». لكنها أضافت بحذر علمي، قائلة: «في ظل غياب أي نصوص محلية تُسمّي إلهاً كان يُعبد محلياً في شبه جزيرة عُمان، تبقى هوية الإله أو الإلهة التي جُسِّدت على هيئة أفعى مجهولة».

ولم يكن هذا أول أثر لعبادة الأفعى في المنطقة. ففي عام 1982، كشف عالم الآثار م. طه عن موقع أسماه «تل الأفعى» في القصيص بدبي الحديثة. هناك، وُجد هيكل صغير مفتوح الجوانب على قمة تلّة، وضِعت فيها عمداً تماثيل صغيرة للأفاعي، وأحاطت بها فخاريات منقوشة بزخارف أفعوانية، ما دفع طه إلى الاستنتاج بأنها معبد، مضيفاً بذلك حلقة جديدة في سلسلة عبادة الأفعى التي نسجت حضورها عبر شبه الجزيرة العربية.

والحقيقة أن الرمز الأفعواني ظهر مراراً في مواقع تعود إلى العصر الحديدي الثاني: في الرميلة، والمويلح، ووادي بهلاء، وأم ذرة، وتل أبرق، ومرّة أخرى في البثنة، بحيث قدّم كل موقع منها قطعة جديدة من أحجية غامضة يصعب حلّها كاملة. إن تنوّع هذه المكتشفات ودقة صناعتها يوحيان بأن هذه المراكز لم تكن جزراً معزولة، بل عقداً متصلة في شبكة أوسع للثقافة والتجارة، تربط الجزيرة العربية بحضارات كبرى في الشرق الأدنى خلال العصور البرونزية والحديدية.

كانت الأفكار تسافر كما تسافر القوافل، تحمل معها التوابل والنحاس، والطقوس

والآلهة، والرموز، متنقلةَ من واحة إلى أخرى، ومن سوق صحراوي إلى مرفأ ساحلي. ويبدو أن عبادة الأفعى، بكل تعقيداتها الروحية، قد ركبت رياح الصحراء في شمال شبه الجزيرة العربية ووسطها، حتى استقرّت في المعابد والأساطير ومخيلة الشعوب مع بدايات العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي.

غير أن الصوفيّة يذكّروننا بأن الرموز حُجُب، فهي تستر بقدر ما تكشف. وقد شبّه الرومي الأفعى بالكنز مراراً، إشارةً إلى أن ما يبدو مرعباً في الظاهر قد يكون حارساً لما هو أثمن في الباطن. ولعلّ الأقدمين لم ينقشوا صورة الحيّة ككائن حيواني فحسب، بل كإيماءة إلى حكمةٍ مستترة لما يبدو في أول الأمر مُظلِماً أو مُخيفاً.

أما ابن عربي فيعلّمنا أن المعاني الإلهية تتجلّى في صور متغيّرة، مثل «الماء يأخذ لون إنائه». فلا يجوز الوقوف عند ظاهر الرموز، بل لا بدّ من تأويلها، بل بما توحي به من أعماق. فما تسمّيه جماعة «أفعى» وتراه أخرى «حارساً» ليس إلا تجلّيين لمعنى واحد، تدركه البصيرة النافذة بالتأمل. وكما يؤكد القرآن الكريم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصّلت: 53).

الكنز المخبوء في أعماقنا

بعد حلمي بجدي ولقائي الغامض مع الأفعى، وجدت نفسي متأرجحة بين الاضطراب والحيرة. ورغم القلق الذي اعتراني، نهضت مسرعةً أريد أن أرى إلى أي مدى تقدّم فريق التنقيب. وعندما بلغت الموقع، شعرت بجوّ ثقيل من الإحباط يخيم على المجموعة. كانوا واقفين في نقاش متوتر، حواجبهم معقودة وأصواتهم خافتة.

سألت بقلق وقد ساورني شعور بأن شيئاً ما ليس على ما يرام: «ما الذي حدث؟».

التفت إليَّ عيسى، وملامحه يكسوها الجدّ، وقال: «لقد حفرنا عشرة أمتار، لكن لا يوجد شيء هنا. القبر فارغ».

ردّدت مذهولة: «فارغ؟ كيف يكون ذلك؟ ولماذا يوجد قبر فارغ؟».

هز كتفيه متنهّداً: «من المحتمل أنه نُهب في الماضي - لا سيما إن كان ملكياً. فإذا كانت هناك مقتنيات ثمينة دُفنت مع الجثمان، فربما استولى عليها أحد منذ زمن بعيد».

تصاعدت خيبة أمل في داخلي أثقل مما توقعت. فبعد كل تلك الإشارات، وكل تلك الأحلام، وذلك الإحساس العميق بالهداية إلى هذه اللحظة - كيف يمكن أن ينتهي الأمر إلى لا شيء؟ لا بد أن شيئاً ما يزال مطموراً تحت السطح.

أدرك عيسى وقع الخيبة على وجهي، فقال برفق: «هل نتابع الحفر أكثر؟».

أضاءت عيناي من جديد ببارقة أمل: «نعم! بالطبع! أيمكننا ذلك؟».

أومأ قائلاً: «يمكننا، لكن علينا أن نعود غداً. فالعمّال يحتاجون إلى استراحة، وسنحتاج إلى إحضار معدات ثقيلة لاختراق الطبقات الأشد صلابة من الصخر».

وهكذا اتفقنا على التوقف، على أن نعود في اليوم التالي. وخفّ وقع خيبتنا بنفحة من تفاؤل، أن ما قُدّر لنا أن نعثر عليه لم يُكشف بعد.

وفي أثناء نزولنا من سفح التل، كنت أسير إلى جانب أجمل، نتجاذب الحديث عن مفهوم «أرواح الحيوانات» المتجذّر في معتقدات كثيرٍ من الشعوب الأصلية في أمريكا الشمالية - تلك الكائنات الغامضة التي يُقال إنها تظهر في حياتنا لتمنحنا حكمة أو لترشدنا

أو تنذرنا. أما أجمل، الذي كان دوماً عقلانياً في نظرته ومشدوداً إلى العالم التجريبي، فقد وجد الفكرة غريبة، بل بعيدة عن عالمه المألوف. غير أنه، وإنصافاً له، أصغى باهتمام ومن دون أن يصدر أحكاماً مسبقة أو يستهين بما يسمع. وقد أسرّ إليّ لاحقاً أن ذلك الحديث كان نقطة تحوّل خفيّة في مسيرته الشخصية - رحلة قادته إلى الانفتاح على رؤى ومعتقدات لم ترد يوماً على خاطره.

وفي أثناء متابعتنا السير على الدرب الوعر، توقف أجمل فجأة وأشار بيده. هناك، في الغبار، كانت ترقد بومة ميتة - صغيرة وهشّة، ريشها منقّط باللونين البني والأبيض، وعيناها مغمضتان كأنها ما تزال غارقة في حلمها الأخير. أشار إليها أجمل على الفور، قائلاً: «هذه تُسمى (Athene noctua) المعروفة باسم البومة الصغيرة، أو بومة ليليث، أو بومة أثينا».

انحنى أجمل في صمت، رفع الطائر برفق، وحمله إلى جانب الطريق. وبكل عناية ووقار، غطّاه بطبقة رقيقة من الأوراق، مسلّماً إياه لراحة الأرض.

وعند رؤية ذلك الفعل الصامت، تذكّرتُ مرة أخرى لماذا أكنّ له هذا القدر العميق من الاحترام. فحبّه للطبيعة لم يكن فكرة يتداولها - بل حياة يعيشها، تتجلّى في أبسط الإيماءات. فعلى الرغم من عقليته العلمية، كان أجمل يتحرك دوماً بروحٍ من التوقير تجاه العالم الطبيعي - توقير لا يُتعلَّم بالكلمات، بل يُحسّ بالقلب.

وفي صباح اليوم التالي، انطلقنا قبل بزوغ الفجر، عائدين إلى القبر في برودة سكون الفجر. وكان جمعنا قد ازداد بشكل ملحوظ، إذ أثار خبر وجودنا فضول بعض العمال المجاورين والمارة. ومع أنّ الأسئلة كانت أمراً لا مفرّ منه، التزمت الحذر ولم أفصح إلا بأننا نجري حفريات أثرية في إطار مشروع بحثي أوسع أشارك فيه.

وما إن بلغنا القبر، حتى جمعت الفريق الأساسي واقترحت عليهم أن نبدأ يومنا بتلاوة شيء من الأدعية. بدا على بعضهم شيءٌ من الدهشة والاستغراب حيال الفكرة، لكنهم وافقوا من دون تردّد. فمن خلال تجاربي، أدركت أن أعمق لحظات حياتي وأكثرها بهاءً لطالما ارتبطت في وجداني بدعاء أو شعيرةٍ ما، تلك العادات التي كانت يوماً ما تصوغ إيقاع حياة أسلافنا، وتمنحها جذورها من المعنى والارتباط والإخلاص.

كانت الشعائر دوماً وسيلة لإضفاء معنى روحي على المكان والزمان، سواء كان ذلك بتلاوة بسيطة للبسملة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، أم بإشعال البخور أو المريمية أو

خشب «بالو سانتو». إنّها تخلق أجواءً روحانية لنوايانا وأفعالنا. وأؤمن أنّ الشعائر ليست حبيسة شكلٍ أو هيئةٍ بعينها؛ إنّها تنبثق من أعماقنا قبل أن تتجلّى في أفعالنا. فكل نَفَسٍ نستنشقُه، وكل كلمةٍ ننطقُها، وكل خطوة نخطوها يمكن أن تكون شعيرةً حين تتشح بالوعي. فنحن نعيش عاداتنا وشعائرنا في كل يوم، دون أن ندري؛ فهي الجسر الذي يصلنا بأسلافنا، والطريق الذي نستدعي عبره حضورهم ليمنحونا من حكمتهم وإرشادهم.

طلبت من الجميع أن يشكّلوا دائرة حول القبر ويغمضوا أعينهم. دعوتهم في صمت أن يتلو كل واحد منهم دعاءً من قلبه إلى الروح أو الأرواح الراقدة هناك. أما دعائي فكان بسيطاً، لكنه عميق: «اللهم، اجعل أرواح أسلافنا في مقاعد صدقٍ عندك في جنات النعيم، وارزقهم سكينة لا تزول، واهدِ قلوبنا».

وبينما كنا نقف حول القبر، لم تنطق شفتاي سوى بكلمات قليلة، لكن الصمت بدا فسيحاً بلا حدود. أدركت حينها أنّ هذه هي الطريقة الوحيدة للبدء - لا بالمعاول تضرب الحجر، بل بالتوقير، كما قال أبو حفص الحدّاد.

ويُعلمنا الجنيد أن الطريق منضبط بالكتاب والسنة، وأن حسن السلوك هو صمّام أمان. وأن نتوقف، وأن نهمس «بسم الله» قبل أن نشرع، إنما هو تنقيب بذاته - لا في التراب، بل في قلبي أنا.

فالقرآن يذكّرنا أن كل شيء يسبّح بحمد الله، وجاءت الأحاديث تحدّث عن ألفة الخلق وقربه - كجبل أُحد الذي «يحبّنا ونحبّه»، والحجر الذي سلّم على النبي ﷺ. وهكذا، في تلك الدائرة، لم يكن ما انبعث منّا مجرّد دعاء، بل كان ذِكراً يتصاعد في الهواء الساكن كما يتصاعد البخور، خيطاً رقيقاً ينساب نحو السماء.

وبهيبة تسود المكان، استؤنفت أعمال الحفر. وكما في اليوم السابق، جعل الغبار المتصاعد التنفّس عسيراً، فانزويتُ إلى مقعدي - عرشي - أحدّق في المشهد الممتد أمامي، زمنياً وبلا حدود.

وهناك، في السكون، أخذت الأسئلة تنهض في داخلي: ما الذي قادني إلى هنا؟ من يناديني من وراء حجاب الأحياء؟ ما الرسالة التي يحاول إيصالها؟ ما غايتي، وما مهمتي في هذه الحياة؟ عمّ كنت أبحث حقاً، وماذا سأجد؟

كانت تلك أسئلةً بلا أجوبةٍ آنية، لكنني أدركت أنّ الحياة ليست سوى رحلةُ تذكّرٍ

واكتشاف، وكنتُ على استعدادٍ لأن أسلك دربها بقلبٍ منفتحٍ وثقةٍ هادئة.

لقد اعتدنا كبشر البحث عن الإجابات في الخارج، وتعلّمنا أن نُسكت الصوت الداخلي - أن نهمل البوصلة التي هدت أجيالاً قبلنا. لكن الحقيقة أننا نحمل الأجوبة منذ البدء، وكل ما نحتاجه هو الشجاعة لنصمت بما يكفي كي نصغي. لنصغي - حقاً - إلى همس الروح.

كلما انغمست أكثر في التأمل، غمرني شعور عميق بالسلام والانتماء. بدا لي أنني وصلت إلى مكان أعرفه منذ الأزل، وإن لم أزره قط. لأول مرة في حياتي شعرت أنني محاطة بالأجداد والأرواح غير المرئية - حضورهم دافئ، وعناقهم شامل. لقد انفتح باب، وكنت أخطو من خلاله - إلى أرض جديدة، إلى نداءٍ روحيٍّ يوقظني، ويدعوني لا للكشف عن بقايا الماضي العتيق فحسب، بل عن الحكمة التي لا تزال كامنة فيه لنا اليوم.

أيقظني عيسى برفق وقد اقترب في صمت. قال معتذراً، وصوته مفعم بالتردّد: «لم نعثر على شيء».

كانوا قد حفروا حتى عشرين متراً، والقبر ما زال خالياً.

ثم أضاف: «الأرجح أنه نُهب قديماً، خاصة إن كان ملكياً. أدرك أنك محبطة جداً».

نعم، شعرت بلسعة الخيبة، لكنني كنت أعلم أيضاً أن في كل سؤال وفي كل بحث حكمة كامنة. جلست مع كلماته لحظة، أفسح المجال لسكون الجبل أن يستقر داخلي، ثم أجبت: «أشعر برضا وامتلاء عميق». لأنني، في الحقيقة، لم أكن أبحث عن لُقى أو كنوز مدفونة، بل عن أعماق جديدة من نفسي - وقد وجدتها.

كان العمال، وقد ارتسمت على وجوههم علامات التعب، ينظرون إليّ كأنهم ينتظرون أجوبة أبت الأرض أن تفصح عنها. عملوا بجد، ولم يجنوا سوى الفراغ، بعد أن أغراهم التاريخ بوعوده. كانت معداتهم ثقيلة في أيديهم، والجو مثقلاً بالاستسلام. ومع ذلك، ففي ذلك الفراغ بالذات، انبثق داخلي نوع آخر من المعرفة: أن ليس كل الحقائق تُستخرج من الحجر، فبعضها يتجلى في الصمت، حيث يغدو القلب وعاء الاكتشاف.

ذكّرني ذلك بكلمات جوزيف كامبل: «ثم إننا لسنا مضطرين إلى خوض المغامرة وحدنا، فقد سار أبطال الدهر من قبلنا. المتاهة معروفة جيداً؛ وما علينا سوى اتباع خيط درب البطل. وحيث ظننّا أننا سنجد رجساً، سنجد إلهاً؛ وحيث خِلنا أننا سنقتل آخر، سنقتل

أنفسنا. وحيث توقعنا أن نسافر إلى الخارج، سنصل إلى مركز وجودنا؛ وحيث خِلنا أننا وحدنا، سنكون مع العالم بأسره».

تردّدت كلماته في داخلي كفانوسٍ يبدّد العتمة، فأدركت أن ما فتّشت عنه بين القبور والأحجار لم يكن خارج نفسي، بل في أعماقها. لم تكن متاهة التاريخ صحراء قاحلة، بل حيّة تنبض، وأنا أسير في خيطها. الفراغ لم يكن غياباً، بل بداية.

في الأيام التي قضيتها على هذا الجبل، عشتُ كشفاً هادئاً. تعلّمت أن أصغي للأرض؛ أسمع الحكايات التي يوشوش بها الهواء، وأفكّ رموز لغة الحيوان والنبات، وأشعر بحضور الأجداد في حفيف الأوراق وتقلب الظلال. كان هناك إرشادٌ خفيّ، رحيمٌ وحكيم. وكالأفعى، خلعت جلدي العتيق، وتحرّرت من صورةٍ قيدها التوقع والمنطق، واعتنقت المجهول. لم تكن هذه رحلةً خاسرة، بل منعطفاً روحيّاً فارقاً فتح أمامي أفقاً جديداً للوجود - باباً انفتح على حياةٍ تغمرها الدهشة، وتتوهّج فيها لحظاتُ التآلف والتواصل الروحيّ العميق.

وحين تأملتُ فراغ القبر، نهضت في داخلي الحقيقة: لم يكن بين تلك الأحجار جسد، وهكذا ينبغي لقلبي أيضاً أن يُفرَّغ - من أثقاله وأوهامه - ليتهيأ للأعظم. الفراغ ليس إخفاقاً، بل مرآة واستعداد. وكأن الجبل نفسه يعلّمني أن الوعاء لا يُملأ بنور الحبيب إلا إذا خلا.

حزمنا أمتعتنا وشرعنا في النزول عن الجبل. بدا على وجوه العمّال ارتياح صامت، وكأنهم يتساءلون في سرّهم: إلى متى سيستمر هذا الحفر الغامض؟ أما عيسى، العاشق للأودية والقمم، فقد ترك المجموعة ليسلك بمفرده دروباً يعرفها ويهوى أن يتيه فيها.

سرنا أنا وأجمل جنباً إلى جنب، وقد عادت أحاديثنا إلى عالم النباتات والحشرات ودهاء الطبيعة البرية. وحين بلغنا الموضع الذي كان قد وضع فيه البومة الميتة باحترام في اليوم السابق، خفّ أجمل من سرعته فجأة. بدأ يتلفّت، يقلب الصخور والأعشاب بعينٍ قلقة ويدين حائرتين. ثم توقف، وصوته مثقل بالذهول: «البومة... اختفت. لا أستوعب الأمر... لقد وضعتها هنا تماماً. لا عظام، لا ريش... لا شيء».

بدا عليه الاضطراب حقاً، عاجزاً عن استيعاب ما جرى لذلك الطائر الذي حمله بيديه بالأمس.

ابتسمتُ بهدوء وقلت: «إنها حيوانك الروحي. جاءت لتمنحك رسالة، ورحلت حين تلقّيتها».

في بعض المعتقدات القديمة لدى الشعوب الأصلية والأمم الأولى، تُعدّ البومة روحاً مرشدةً قوية، ورمزاً عريقاً للحكمة والتحوّل والعبور بين العوالم. عيناها ترى ما وراء الحجب، وتدرك ما يعجز عنه غيرها. إنها حارسة الليل والغموض والحدس وما هو مجهول. لا تمكث طويلاً؛ تأتي لهدف محدد، تمنح هداها، ثم تغادر حين تُفهم رسالتها.

شكرها أجمل بصوتٍ خافت، كما لو كان يخاطب صديقاً قديماً. وفي الأعوام التي تلت، عادت البومة لتظهر له مراراً: جاثمةً على حافة صخرة، أو محلّقةً فوقه في أثناء رحلاته في الجبال، أو صادحة بصوتها العميق في ليل البراري. وفي كل مرة، كان يبعث إليّ برسالة قصيرة يقول فيها ببساطة: «عادت البومة من جديد».

ويقول العارفون إن شيئاً في الكون ليس خالياً من المعنى -كل شيء آية- حتى موت أصغر مخلوق يحمل همس كشف. لم أرَ البومة مجرد ريشٍ وعظم، بل هي في الأشعار الصوفية الرمزية من طائفة حُرّاس الليل؛ عيونها يقظة أبداً لا يغمض لها جفن، عيون البصيرة التي تنفذ إلى ما وراء الظاهر. كثيراً ما جمع الرومي بين البومة والبلبل في صور متقابلة؛ إذ يقول: «كبلبلٍ هائمٍ، طرتَ بين البوم». والقرآن يذكّرنا: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: 44).

كان أجدادنا لا يرون الحيوان مجرد جزء من المشهد الطبيعي، بل قريباً ومعلّماً ومرشداً روحياً. وللبومة مكانة رفيعة؛ ففي جزيرة العرب القديمة، وفي بلاد الرافدين، وحتى في اليونان، كانت البومة رمزاً للحقيقة والبصيرة، حتى نُقشت صورتها على النقود الأثرية مثل الدراخما الأثينية - بقايا زمن أدرك فيه الناس أن الحكمة لا تُلتمس في المعابد وحدها، بل في البرية أيضاً.

وبينما كنت أنا وأجمل نهبط الجبل، مرّ نسيم لطيف يهمس بين الصخور والعشب، كما لو كانت الأرض تودّعنا. التفتُّ إلى الموقع مرة أخيرة - لا بأسى، بل بخشوع. فلم نكشف عن كنز مادي، لكنني حملتُ في قلبي ما هو أثمن: إدراك أن الرحلة لم تكن يوماً عن محتويات قبر، بل عن التنقيب فيما دُفن أعمق - في داخلي.

يقول العارفون إن العالم ملآن بالحجب، وإن أعظم الحفريات ليست في الحجر بل في الذات. ويصف أبو حامد الغزالي القلب كجوهرة نفيسة «ملفوفة بحجاب»، لا تنكشف

إلا إذا صينت وبلغت كمالها. والرومي يحكي عن السالك الذي جاب الدنيا ليكتشف أن الكنز كان في بيته طوال الوقت - ليعلّمنا أن الرحلة هي لكشف ما نحمله في أعماقنا.

والقرآن يهمس بالحقيقة نفسها: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: 16). فالقرب لا يُنال بالحفر أعمق في الأرض، بل بالنزول إلى القلب - موطن القرب الإلهي.

وهكذا، ومع نسيمٍ يتخلّل الحجارة كبركةٍ خفيّة، انكشف لي أن القبر لم يترك أثراً، لكنه أعطى كل شيء. فما كان الكنز يوماً مطموراً في باطن الأرض، بل كان منذ الأزل مقيماً في أعماقي.

حينها فقط فهمتُ ما يعني أن أحمل دوائي. فكلٌّ منّا يأتي إلى هذه الحياة وهو يحمل هبةً فريدة - طاقة وحكمة - جُبل عليها ليُجسّدها ويمنحها للعالم. لكن حين نغفل ذلك، وحين نفتّش فقط في الخارج عن المعنى، نبدأ بتسليم قوتنا. وبينما كنت واقفةً على ذلك الجبل، في حضن ذكرى الأفعى والبومة وجدّي، وتحت أنفاس الهداية الصامتة لأسلافي، تذكّرتُ مَنْ أكون.

دواؤك هو بصمتك الطاقية - جوهرك الفطري والمعرفة السحيقة المنقوشة في عِظامك. لا يأتي من خارِجكِ. إنما يُعلن في تجاربك، في أحزانك، في تحوّلك. مثل الأفعى التي تخلع جلدها، والبومة التي تراقب الليل بصمت، يستيقظ دواؤك حين تختار الإصغاء.

وكيف تجده؟ تسلك الدرب المرسوم لك، مهما كان متعرّجاً أو غامضاً. تواجه مخاوفك وخيباتك وشكوكك، ثم في يومٍ ما تكتشف أن تلك التحدّيات هي ذاتها التي صاغتك. كانت تبعث في داخلك شيئاً عريقاً ومضيئاً.

غادرتُ الجبل وليس معي أثرٌ مادي، بل معي يقين أعمق: أن غايتي لم تكن كشف الماضي فحسب، بل تذكُّر الحكمة التي خلّفها، وحملها إلى الآتي.

يقول الصوفيون إن هذا الكنز يكمن في كل نفسٍ، ينتظر تحت طبقات التراب والأنانية أن يُستخرج. فحفر القبور وصعود الجبال ما هما إلا مرايا خارجية للحفر الأعظم - الكشف عن جوهرة الأنس الإلهي في القلب.

ويذكّرنا جلال الدين الرومي بأن الكنوز التي نطاردها خارجياً ليست سوى ظلالٍ لثراءٍ أعظم يسكننا منذ البدء. ففي داخل كل قلب منجم أثمن من الذهب، غير أنّه لا يُستخرج بالقوة ولا بالسعي المحموم - بل بدوام المحبة.

وحين تركتُ الجبل وراء ظهري، فهمت المغزى: لقد أظهرت لي الأرض وجهها، لكن ما أرادت حقاً أن تظهره لي هو وجهي أنا. الكنز لم يكن يوماً تحت الأرض؛ كان دوماً كامناً في أعماقنا - الكنز المخبوء، المشتاق لأن يُعرَف.

التل الناطق: خطم الملاحة

كانت الشمس تميل نحو الغروب حين غادرنا القبر وانطلقنا بالسيارة صوب الساحل. جلس أجمل صامتاً إلى جانبي، أصابعه تدق بخفة على زجاج النافذة كأنها تترجم إيقاع الطريق. أمّا عيسى، فكان في المقعد الخلفي، يميل بجسده إلى الأمام بين المقاعد، يلوّح نحو التلال والأودية كما لو كان يقدّم لي رفاقاً قدامى. ثم قال، وفي صوته بريق حماسة: «لا تفقدي الأمل - هناك شيء أردت أن أريكِ إياه منذ زمن». وأشار برأسه نحو منحدر داكن ينهض فجأة من قلب السهل، مضيفاً: «خطم الملاحة. ستفهمين حين نصل لماذا جئنا بكِ إلى هنا».

لم يكن التل شاهقاً، لكنه بدا وكأنه يقف راسخاً حارساً للساحل منذ آلاف السنين. بدأنا نصعد ببطء، خطواتنا تتفتت على الحصى المتناثر. توقّف أجمل ليلتقط أنفاسه، ثم أشار إلى صخرة هامساً: «انظري عن قرب». في البداية لم أرَ سوى الظلال، ثم مع تغيّر زاوية الضوء ظهرت الخطوط-نقرات سطحية، حفر مصقولة، ندوب دقيقة تتلألأ على الصخر- رسائل خطّتها أيادٍ غابت منذ زمن إلى الرمل.

تبسّم عيسى، قائلاً: «يوجد هنا مئات مثلها. بين الأعوام 2015 و2018 وثّقنا 368 نقشاً على 161 كتلة حجرية. معظمها حيوانات: الوعول، الخيول البرّية، منقوشة بأناقة لافتة. بعضها دوائر أو أشكال شمسية أو علامات قبلية. لكنها معاً تصنع مشهداً من الذاكرة».

ونحن نواصل الصعود، أشار أجمل إلى حجر آخر. بدا لي كهيئة حصان -أو ربما حمار بري- يمتدّ بجسده كأنه يعدو مع الريح. مضى عيسى في الشرح قائلاً: «يوجد هنا 48 نقشاً للخيول البرّية على الأقل، و67 وعلاً. هذه الحيوانات هي المهيمنة. دائماً تلك الكائنات التي ارتبطت بالبقاء، منقوشة في صميم البقاء نفسه». مررت بكفي على الصخر، بارداً وخشناً تحت يدي. سألت: «من نقشها؟» أجاب عيسى: «لا أحد يعلم على وجه اليقين. لكن أقدمها، تلك التي اسودّت بطبقة طبيعية، قد تعود إلى العصر الحجري الحديث أو أوائل العصر البرونزي، حوالي الألفية الرابعة قبل الميلاد. وبعضها الآخر يعود إلى العصر

البرونزي أو الحديدي. كان هذا التل لوحة فنية لآلاف السنين».

ثم أضاف: «النقوش تختلف في أسلوبها: منها ما هو بسيط خشن، ومنها ما هو مصقول ومنفّذ بعناية بأوضاع ديناميكية. في بعض الحالات، جرى المبالغة في ملامح مثل القرون أو الأجساد. أغلبها نُفِّذ بوسيلة النقر المباشر، لكن بعض الحفريات المصقولة موجودة أيضاً».

وعند سفح التل، كان هناك كومة قديمة من الأصداف- مكبّ من بقايا البحر خلّفه من كان يحتفل بولائمه هنا. بدا لي وكأن البحر قد ألقى لغته الخاصة على التل، كل صدفة حرف، كل كسر كلمة، تصوغ قصة حياة لم تُنسَ. صعدنا أعلى، فوجدنا ركاماً دائرياً من الحجارة - قبوراً أو شواهد. بعضها انهار، وبعضها ما زال قائماً. قال أجمل بصوت منخفض: «مدافن. أو علامات. دائماً الموتى قريبون من الفن. النمط نفسه يتكرّر في الفجيرة، في كلباء-النقوش والقبور تتلازمان».

ومن الحافة، انفتح المشهد: الساحل شمالاً وجنوباً، والوادي يمتد غرباً. في الأسفل، الطريق السريع الحديث يحاكي خط طرق القوافل القديمة. عندها أدركت لماذا اختير هذا التل. كان يطلّ على كل شيء. كان حارساً وراوياً في آن.

جلسنا على صخرة مسطّحة بينما برد المساء ينعش الهواء. من حولنا، النقوش كأنها مجلس صامت: وعول بقرون دقيقة، خيول بخطوات متأهبة، بشر جامدون مرسومون بخطوط مبسطة، ورموز مبعثرة كعلامات ترقيم. قال عيسى: «هناك أيضاً 28 هيئة بشرية، دائماً مبسطة، متصلبة، أذرعها ممدودة، أحياناً بأيدٍ أو رؤوس مبالغ فيها. وهناك أيادٍ وأقدام منقوشة، كما لو أن أحدهم أراد أن يترك حضوره خالداً هنا».

ومع حلول الليل اختفت النقوش في الظلال، لكن حضورها ازداد وضوحاً. وبدت القبور الحجرية فوق القمة منتصبة كظلال داكنة، رفقة صامتة للفن. كسر أجمل الصمت قائلاً: «حين تقفين هنا، لا ترين التاريخ فقط. تشعرين كيف وسم الناسُ هذه الأرض كأرضهم - قبل الأسماء، قبل الأمم».

بقيت كلمات أجمل عالقة في ذهني، وإذا بصوت آخر يأتيني عبر الزمن - صوت حافظ الشيرازي، شاعر الفرس العارف في القرن الرابع عشر، الذي ما تزال أبياته تتلى كالأدعية في البيوت من إيران إلى ما وراءها. عُرف بلقب «لسان الغيب»، وقد نسج شعراً يحمل دفء الحب ورحابة الحقيقة، كلمات تذيب الفاصل بين شوق الإنسان وذكرى الكون.

كان صوته ما خُيّل إليّ أنني أسمعه آنذاك:

حتى بعد كل هذا الزمن،

لا تقول الشمس للأرض: «إنكِ مدينة لي».

فانظري ما الذي يحدث مع حب كهذا:

إنه يضيء السماء كلّها.

في تلك اللحظة أدركت أن الوجود لا يطلب شيئاً في المقابل. الأرض، والصخور، والأسلاف - لم يطالبوا بجزية، بل بذكرى. كان حبّهم، مثل حبّ الشمس، عطاءً مطلقاً، ونوره يشعّ في كل ما يلمسه.

بدأنا النزول ببطء، والصمت بيننا مثقل بالاعتراف. وراءنا، بقي خطم الملاحة يحرس المكان، حاملاً فنّه وأمواته، هامساً بالرسالة ذاتها المنقوشة عبر القرون: كنّا هنا. عشنا. وما زال صدى وجودنا يتردّد.

الفصل الثالث

الإصغاء إلى الروح: عودة إلى مسالك الأجداد

نشأتُ في بيت مشبع بالروح الأكاديمية، حيث لم يكن السعي وراء المعرفة مجرد قيمة، بل أسلوب حياة. كان والدي، الرجل ذو الفكر النيّر، يحمل شهادتَي دكتوراه، وأمضى سنوات يدرّس في الجامعات ويؤلّف أكثر من مائة وخمسين كتاباً. لذا، كان بديهياً أن أقضي طفولتي بين رفوف المكتبات وأروقة المكتبات العامة، أنسج صداقة حميمة مع الكتب، أمرّر أصابعي على عناوينها، أقرأ بنهم، أجمع بشغف، وأجد عزاءً حتى في رائحة الصفحات القديمة. لم يكن ذلك عبئاً، بل كان هبةً. لقد صاغ في داخلي عقلاً فضولياً، لا يكفّ عن التساؤل والاكتشاف ومحاولة فهم العالم من حولي.

لكن ما أدركه اليوم بوضوح هو أن المعرفة لا تسكن الكتب وحدها. إنها أيضاً في حفيف الأوراق بين الأشجار، وفي سكون الجبل، وإيقاع الأمواج، ولغة النباتات الخفيّة. إنها تتنفس في الحكايات التي يرويها الشيوخ، وفي الحكمة المنقوشة في الأغاني والرقصات والطقوس. أدركتُ أن المعارف الأصيلة الموروثة لا تُنقل عبر الحبر والورق، بل عبر الذاكرة والحضور والتناقل الشفهي، تُحمل من جيلٍ إلى آخر كما تُحمل شعلة النور التي لا تنطفئ.

إن أساطيرنا وحكاياتنا، التي يُسارع البعض إلى رفضها باعتبارها مجرد فولكلور عابر، تحمل في طيّاتها حقائق مشفَّرة، فهي أوعية لحكمة قديمة، مشبّعة بالرموز والدلالات. وتلقيها لا يحتاج إلى عقل فحسب، بل إلى إصغاءٍ وتواضع وقلبٍ مفتوح. وبين ثنايا الأسطورة والمنظر الطبيعي قد نشعر أحياناً أننا تائهون، كرحّالة في متاهة الزمن. لكن هذه المتاهة ليست عبثية، ففي أعماقها يكمن ميراث واسع من معرفة، وتاريخ، وثقافة، وتعاليم عميقة لأولئك الذين سبقونا. لقد ترك لنا أسلافنا هذه الحكايات بإجلالٍ ولغايات نبيلة؛ لا لمجرّد التسلية، بل لتكون مشاعل ودليلاً يعيدنا إلى ذواتنا.

إن أساطير الخلق في ثقافات الشعوب الأصيلة ليست قصصاً وحسب، بل هي خرائط روحية منسوجة بخيوطٍ تجمع عالم الأرواح وعالم الحيوان وعالم النبات. إنها تحمل في طياتها حكمةً مشفّرة انتقلت عبر الأجيال لا لإمتاعنا فحسب، بل لإيقاظنا. وحين نرويها

لأطفالنا، فإننا لا نحفظ تراثاً فقط، بل نغذّي حدسهم، ونوقظ ذاكرةً في ثناياهم، ونهديهم بوصلةً تمكّنهم من العيش في عالم كثيراً ما يبدو حائراً.

يعلّمنا المجتمع المعاصر أن للمعرفة قيمة فقط إذا جاءت من مصادر معتمدة - كتب، ومؤسسات، وشهادات. وأنا أقدّر صرامة المعرفة الأكاديمية وانضباطها، لكنني بتّ أراها وجهاً واحداً فقط من وجوه عديدة لفهم العالم. أن تكون «أصيلاً» يعني أن تكون منبثقاً من الأرض نفسها - مولوداً من ترابها، مصوغاً برياحها، مهتدياً بنجومها. فأنساق المعرفة الأصيلة ليست مجرد معطيات، بل ذاكرة ومسؤولية وعلاقة؛ تُحمل في الحكاية والأغنية والطقس، وتنتقل همساً من شيخٍ إلى طفل، متجذّرة في تبادل العطاء مع الأرض. أن تدرك المعرفة بهذا الشكل يعني أن تحيا وكأن الأرض من دمك، وكأن الماء والحجر والسماء أهلٌ لك تخاطبهم ويخاطبونك. هذه المعارف لا تُقاس ولا تُراجَع أكاديمياً، لأنها متجسّدة ومتوارَثة وتشاركية. إنها حقائق تُعاش وتُحس وتُؤتمن. وعندما نفتح أنفسنا لهذه الطرق البديلة للمعرفة، نبدأ بسماع همس الحجارة، ولغة الأشجار، ومشورة الريح.

نبدأ بالتذكّر. وكما قال جلال الدين الرومي: «كنتُ ساعياً وما زلتُ، لكنني توقفت عن سؤال الكتب والنجوم... وبدأت أصغي إلى تعاليم روحي».

بعد تجاربي في كلباء وجبل كليمنجارو، آن الأوان لأن أتعلّم كيف أصغي إلى ذلك الصوت الهادئ، الملحّ في داخلي - صوت روحي.

يقول الصوفيّة إن السَّمَاع الحق ليس بالأذن الظاهرة فقط، بل بالقلب. وقد نبهنا الجنيد إلى أن السماع فتنةٌ لمن يطلبه، وسكينةٌ لمن يبلغه، وأنه لا يكتمل إلا باجتماع الزمان والمكان والرفقة. أما ابن عربي فيضيف أن للقلب عينين: العقل والخيال، وأن الرؤية الحقيقية لا تتحقق إلا إذا اعتدلت العينان وانسجمتا؛ وهذه هي البصيرة التي يمتدحها القرآن.

في البداية بدا الأمر غريباً عليّ، إذ قضيتُ سنوات طويلة أتعلّم كيف أُسكت ذلك الصوت. لكن شيئاً فشيئاً، عبر الطقوس والسكون والتأمل، تعلّمت كيف من جديد أصغي. استعدتُ صلتي بذاتي الداخلية من خلال طقوسٍ موروثة عن الأجداد - أدعيةٌ تُهمس في الرياح، وبخورٍ يتعانق دخانه مع نور الفجر، وتأملاتٌ يغمرها ضياء القمر تحت نجوم الليل. كان كل طقس من هذه الطقوس بمثابة مفتاحٍ يفتح باباً في داخلي كنت قد نسيته منذ زمن. شعرتُ بطبقاتٍ من التلقين الاجتماعي وهي تبدأ بالتساقط عني - ذلك

التلقين الذي علّمني ما يجب أن تكونه المرأة، وكيف ينبغي للمرأة العربية أن تتصرّف، وما الصورة التي يُفترض أن يبدو عليها النجاح.

توقفتُ عن انتظار الإذن.

توقفتُ عن طلب التزكية.

توقفتُ عن أداء أدوار لم تكن يوماً لي.

وبدأتُ أعيش انطلاقاً من موضع الصدق في داخلي. ولم يكن ذلك يسيراً. فطريق الأصالة نادراً ما يكون ممهّداً - لا سيّما لامرأة في مجتمعٍ طالما خشي قوّة الأنثى وحضورها المهيب. كانت هناك أيامٌ شعرتُ فيها بالعزلة، وسوء الفهم، وحتى بانعدام الأمان. لكن في تلك اللحظات، كان أسلافي يأتون إليّ - في الأحلام، وفي الرؤى، وفي إشاراتٍ تبعثها الطبيعة من حولي. كان حضورهم بلسماً، ورسائلهم - رغم رهافتها - لا تخطئها الروح: لستِ وحدك. إنكِ تسيرين في الدرب الذي سرنا فيه من قبلك. تابعي المسير.

أدركتُ أن سند الأجداد ليس مجرد استعارة شاعرية، بل علاقة حيّة نابضة. لم يكونوا بقايا من الماضي، بل قوى هادية في الحاضر، يذكّرونني بقوّتي، وبغايتي، وبدوائي.

وقد ردّد جلال الدين الرومي هذه الحقيقة في تعاليمه: لا تظنّ أن البستان يفقد نشوته في الشتاء؛ فانظر، جذوره ما زالت حيّة في الأعماق. كذلك كان أجدادي جذوراً - خفيّة ولكن نابضة، تحملني وتغذّيني وتبقيني شامخة حين كانت تعصف بي رياح الشك. لم تكن صلواتهم فعلاً ماضياً، بل أنفاساً حاضرة تتوهّج في داخلي كجذوة خفيّة تتّقد ولا ترى.

وهذا ما كانت الحكايات القديمة تهيّئني له على الدوام: أن أتذكّر أنّ الروح سبّاقة في المعرفة، وأن دواءنا يسكن أعماقنا منذ البدء.

حين نغفل عن هذه الحقيقة، ننطلق نبحث خارج ذواتنا عن سلطة أو توجيه أو قبول، فنُسلِّم قوّتنا للأنظمة والتوقّعات وآراء الآخرين. أمّا حين نتذكّر دواءنا الداخلي - تردّدنا الفطري وخارطة روحنا الأصيلة - نسير بصفاء وخفّة. لا نعود نسأل: من ينبغي أن أكون؟ بل نتساءل: ما الدواء الذي أحمله، وكيف أقدّمه لهذا العالم؟

ولعلنا نتساءل: كيف نعثر على هذا الدواء؟ الحياة نفسها هي التي تكشفه لنا. فصراعاتنا، وأوجاع قلوبنا، وتجاربنا المفصلية ليست عبثاً، بل دعوات عميقة إلى التحوّل. ففي كل محنة تكمن هدية، وفي كل ألم رسالة، وفي كل جرح جذر من القوة ينتظر أن

يُستعاد. جراحنا تتحوّل إلى ممرات، وألمنا يغدو المعلّم.

هذا هو درب الروح: غير مستقيم، غير يسير، لكنه الأصدق على الإطلاق.

وحين نستعيد ذلك التذكّر، نخطو في العالم على نحوٍ مختلف: نخطو كأننا في صحبة دائمة . لأننا حقّاً كذلك. نخطو كأن لكل نفس قيمة . ولأنه كذلك فعلاً. نخطو لا لنبلغ غاية، بل لنعود إلى التذكّر.

نخطو كما لو أننا نسير في احتفال مهيب.

ويقول الرومي: «ارجع إلى جذر جذر روحك». فالطرق القديمة ليست عادات معروضة في المتاحف، بل سُبل عودة إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: 30). وقد علّمنا النبي أن كل مولود يولد على الفطرة. وعندما أصغيت بهذا القلب، لم أشعر أنني طالبة تاريخ، بل ابنة تُستَقبل في بيتها.

مجلس الأمهات

في إحدى الأمسيات، وتحت ضوء بدرٍ مكتملٍ مهيب، خلَدتُ إلى النوم أبكر من المعتاد. كان الأفق متلألئاً، مشحوناً بطاقةٍ خفيّة، كهرباءٍ صامتة توحي بوجود ما وراء الحجاب. استسلمتُ للنوم بسهولة، دون أن أدرك أنني على وشك أن أخوض رحلةً في حلمٍ سيُبدّل إلى الأبد صلتي بنساء سلالتي.

في الحلم، بدا وكأنني كنتُ أُستدعى، على وجه السرعة. كان أحدهم يوقظني، ويخبرني بأنني تأخّرت عن اجتماع مصيري. نهضتُ على عجل، يخفق قلبي بقوة، وأسرعت ألحق بما تخيّلته غرفة اجتماعات رتيبة. لكن حين فتحت الباب ودخلت، تجمّدت في مكاني.

لدهشتي، وجدتُ مائدةً مستديرة عظيمة تحيط بها نساء من دمي - جدّاتي من سلالة الأمهات - كلهن بانتظاري بصبر. كانت أمي، وجدتي، وجدّتي الراحلة الكبرى، وجدتي الأبعد عهداً التي رحلت قبلهم، جالسات في سكونٍ شامخ، يفيض حضورهنّ مهابةً وملوكيّة. لم تكن في وجوههنّ أمارات غضب لتأخري، بل توقّع هادئ، كأنهنّ على يقينٍ بأنني سأصل.

أشرْنَ إليّ أن أجلس. ارتعشت ساقاي حين أخذتُ مكاني عند المائدة. كل امرأةٍ كانت ترتدي زيّها التقليدي: الثوب المَخورَ المتدفّق، شيلة سوداء تغطّي رأسها برشاقة، وبعضهنّ بُرقُع يُخفي وجوههنّ جزئياً. خُيِّل إليّ أنني دخلت مجلساً مهيباً، أو محكمةً عتيقة تعود إلى ما قبل الزمن.

كانت جدّتي الكبرى «حصّة» أوّل من تحدّث. كانت طويلة القامة، عريضة الكتفين، ذات ضفائر حناء طويلة حتى الخصر. ملأ حضورها المكان؛ عُرفت في العائلة بجرأتها وحماسها، وفي الحلم بدا سلطانها آمراً مُشعّاً.

بثقل في القلب روَت قصتها: «عرفت المعاناة. عرفْتُ ماذا يعني أن يُحرم الإنسان من الاختيار، أن يُطالب بالتحمّل أكثر مما يطيق. مثل كثير من النساء، حملت أعباءً لم أخترها. ومثل كثير منهنّ، بلغت مرحلة لم يعد فيها الصمت ممكناً. أدركت أن اختيار طريق آخر يتطلّب شجاعة، لكنه خلّف بداخلي أسئلة وندوباً. هذه حكاية عدد لا يحصى من النساء - قوة وحزن، بقاء وتضحية».

ثم تحدّثت جدّتي «مِيرة» بصوت هادئ مثقل بالمشاعر، مقتبسةً من ألم أمّها: «لقد عرفتُ مرارة أن تُحرَم المرأة من حقّها في الاختيار، وأن تُنتَزع طفولتها قبل أن تتفتّح. كثيرات لم تُتح لهن نعمة التعلّم، ولا فسحة الحلم، ولا دفء الانتماء الكامل. عوضاً عن ذلك، توالت عليهنّ الواجبات، مطلباً يجرّ مطلباً، حتى ضاق لذواتهنّ الحيّز، وانكمش إلى ما يكاد لا يُرى. كان الحب نادراً، والموارد أكثر ندرة. ومع ذلك، صمدن؛ حملن الحياة بما استطعن من قوة، حتى وإن كان الثقل فوق ما يحتمل قلب واحد».

وحين اشتدّ ثِقَل المشاعر، نهضت جدّتي الكبرى «مهرة»، وبصوتٍ خافتٍ مهيب قالت: «لم يكن للنساء أن يتكلمن أو يبدين رأياً. كان الصمت فرضاً علينا، حتى حين كانت قلوبنا تغمرها المشاعر، وأرواحنا تتوق إلى البوح».

خَيَّم الصمت لفترة مدوّية، ثم كسرت والدتي «جواهر» الهدوء برفق.

التفتت إليّ وعيونها ملؤها دفء وفخر، وقالت: «ننظر إليكِ يا بدور، ونحن فخورات بكِ جداً. لقد فعلتِ ما لم نقدر عليه. تتسلّقين الجبال، وتخوضين المغامرات، وتلاحقين أحلامكِ، وتقولين حقيقتكِ. تعيشين حياة كنا نحلم بها. شجاعتكِ وقوتكِ وحبكِ للحياة - كلُّها تحقيقٌ لدعوات لم تُنطق. نحن نعيش من خلالكِ الآن. لكننا نحتاج منك أكثر. بحاجة إلى أن تتحدثي باسمنا. أن تشعري لأجلنا. أن تطلقي ما عجزنا عن إطلاقه. نعوّل عليكِ أن تشفِي ألمنا العَشِيري كي لا ينتقل إلى الجيل المقبل. عيشي من أجلنا يا بدور. نحن دوماً معكِ».

تردّدت كلماتهنّ في أروقة حلمي واستقرّت عميقاً في قلبي. وعندما استيقظت، كانت الدموع تنهمر على وجنتَيّ. لم يكن الحلم حلماً، بل كان زيارة، وتجلياً روحانياً، ونداءٌ عميقاً يدعوني إلى النهوض والعمل.

وحين جلستُ في دائرة النساء، خُيِّل إليّ أنني أجلس على عتبة الجنّة نفسها. قال النبي محمد ﷺ: «الجنة تحت أقدام الأمهات»، وفي تلك اللحظة بدت كلماته حيّة نابضة، ليست قولاً من زمن غابر، بل حقيقة محسوسة تسري في الهواء من حولي. أن أُحتضن في حضرة الأمهات - أمي، وأمها، والأمهات اللواتي سبقنهن، ممّن غابت أجسادهن وبقيت أرواحهن بيننا - كان تذكيراً بأن كل نفسٍ أتنفّسه يستند إلى الأرض التي مهّدنها بأيديهنّ ودعائهنّ.

في تلك الليلة تبدّل شيء في داخلي. انفتح باب إلى النساء اللواتي قدمن من قبل - ليس كمجرد شخصياتٍ تاريخية، بل كحضورٍ حيّ يحمل قصصاً وجراحاً وحكمة. بدأتُ أرى

نفسي ليس ككائنٍ منعزل، بل كامتدادٍ لسلسلةٍ طويلة من نساء صامدات، صامتات، مفعمات بالقوة.

وفي حضرتهنّ شعرت بجريان الرحمة - نهرٍ لا ينضب. يحدّثنا ابن عربي أنّ الخلق نشأ من نَفَس الرحمن، وعلّمنا النبي ﷺ أنّ الرحم مشتقّة من اسم الرحمن - قرابة في اللفظ تشير إلى قرابة في الرحمة. وفي ذلك المجلس، لامستُ هذا المعنى: الأمهات أوعية الرحمة، يحملنها ويصببنها في العالم - رحمة حيّة حاضرة، تغرسنا في رحمة الله.

وتقول كريستيان نورثرب في كتابها «جسد المرأة، حكمة المرأة»: «كلُّ امرأةٍ تشفي نفسها إنما تُسهم في شفاء جميع النساء اللواتي سبقنها، وجميع اللواتي سيأتين من بعدها».

كانت هذه الحقيقة تتردّد في كل خلية من جسدي. أدركتُ أن شفاء نفسي لم يكن تحرّراً ذاتيّاً فحسب، بل عطاءً يتجاوزني. ففي كل مرةٍ تواجه فيها امرأةٌ ألمها، وتُفصح عمّا كُبت طويلاً، وتحتضن كيانها الكامل، فإنها تكسر سلاسل نُسجت عبر أجيال. تغدو الصوت الذي أُخرس يوماً، والنور في موضعٍ كان يلفّه الظلام.

تصير حافظةً للحكمة.

بوابةً للعبور.

وعرافةً تُبصر ما وراء الحُجب.

ومن خلالها تُعاد كتابة المستقبل.

وهذا هو الدرب الذي أسير فيه الآن - لا من أجلي وحدي، بل من أجل أمي وجدّاتي وبناتي وحفيداتي اللواتي لم يُولَدن بعد. وعلينا نحن النساء أن نسير فيه بخشوعٍ، وبمحبة، وبذاكرة يقِظة عميقة.

الصوت الشافي

ثمّة خيط خفيّ يصلنا بجدّاتنا وجدّاتهنّ، وبسلسلة النساء اللواتي سبقننا في درب الوجود. يمتدّ هذا الخيط عبر الزمن كخيوطٍ من نورٍ تخيط نسيج الحياة الشاسع. هذا الخيط ليس مجرّد مجاز؛ بل هو خيط بيولوجي، طاقي، وموروث من الأسلاف. يسكن عظامنا، يجري في دمائنا، ويهمس في أحلامنا.

يخبرنا العلم بحقيقة مدهشة: فجميع البويضات التي تنتجها المرأة طوال حياتها تتكوّن فعلياً وهي لا تزال جنيناً في رحم أمها. وهذا يعني أن حياتنا الخلوية، شرارة وجودنا الأولى، تبدأ ليس في أحشاء أمهاتنا فحسب، بل أيضاً في رحم جداتنا. وفي كتابها «عندما كانت قارعات الطبول نساءً» (When the Drummers Were Women)، تصف ليْن ريدموند هذا الامتداد المتواصل بكلمات بليغة قائلة: «لقد قضت كل واحدةٍ منّا خمسة أشهر في رحم جدّتها، التي كانت بدورها قد تخلّقت في رحم جدّتها. نحن نتمايل على إيقاع دم أمهاتنا قبل أن نبصر النور، وهذا النبض هو الخيط الحيّ الممتد بلا انقطاع وصولاً إلى أمّنا الأولى».

إذا كان ذلك صحيحاً - وأنا أؤمن أنه كذلك - فنحن أوعية حيّة لذاكرة الأجيال. نحمل في داخلنا أفراحهنّ وآلامهنّ، وحكاياتهنّ التي لم يُكتب لها أن تُروى، وأشواقهنّ. وهكذا تغدو أوجاعهنّ وجعنا، ويتردّد صمتهنّ في أجسادنا. وإذا لم نُعالج ذلك بوعي، فإننا ننقل هذا الإرث دون قصد إلى بناتنا.

عشت هذا الواقع في جسدي. على مدى ثلاثة عشر عاماً، عانيتُ من مرض مناعي ذاتي يُعرف بداء هاشيموتو، يصيب الغدّة الدرقية. كان متوارثاً في عائلتي، ينتقل بين نساء سلالتي كظلّ صامت.

ومع تعمّقي في رحلة الشفاء، بدأت أرى هذا المرض بوجه آخر - ليس فقط كخلل جيني، بل كجرح روحي. أدركت أن غدتي الدرقية، كانت مكبوتة في تدفّقها الطاقي. لم أستطع أن أفيض بحقيقتي كاملة. كافحت في التعبير عن عواطفي واحتياجاتي وصوتي. ورأيت الصلة بين هذا الاضطراب الجسدي وأجيالٍ من نساءٍ مكمّمَات - نساء قيل لهنّ أن يصمتن، حُرمن من مساحة التعبير عن مشاعرهنّ، وأُهملت أفكارهنّ البديعة.

لم يكن هذا الحاجز شخصياً فحسب؛ بل كان إرثاً عائلياً. صار حلقي خزانةً لقرونٍ من العواطف المكبوتة. كنت أحمل صمتهنّ، وكان يتجسّد في جسدي.

وبعزمٍ على كسر هذه الدائرة، بدأت أستكشف العديد من ممارسات الشفاء، مثل الغناء، والإنشاد، والرقص، والحركة، وكل ما من شأنه أن يوقظ الطاقة في حلقي ويحرره من أثقاله. وكنت أؤمن أن كتابة هذا الكتاب ستكون بدورها ضرباً من ضروب التشافي، وأن البوح بقصتي وقصصهنّ سيكون بحد ذاته سبيلاً إلى تحريري.

لكن الشفاء نادراً ما يأتي كما نتوقّع.

ففي أثناء كتابة هذا الكتاب، أخذت غدتي الدرقية تتضخم بسرعة، إلى حدّ أنّها أخذت تضغط على قصبتي الهوائية، مما جعل التنفّس والنوم أمران عسيران. وما كنت أرجو أن يكون تحرّراً لطيفاً، تحوّل إلى حالة طبية طارئة. كان عليّ أن أخضع لعملية استئصال كامل للغدة الدرقية.

في البداية، بدا الأمر كأنه سخرية قاسية. كيف يمكن لشيءٍ كنت أسعى إلى شفائه عبر التعبير أن يقود إلى فقدان عضوٍ من حنجرتي تماماً؟ غير أنّي مع الزمن أدركت أن ما حدث كان التحرّر الأخير من سلاسل الصمت التي كبّلت صوتي جيلاً بعد جيل. وكأن جسدي أعلنها بوضوح: «كفى». كان هذا الاستئصال العضوي انعكاساً لاستئصال طاقي، فقد حفرتُ عميقاً في أساس هذا الحاجز، ولم يعد يسعه إلا أن يتهاوى.

بعد الجراحة شعرت بخفّةٍ في جسدي لم أعهدها منذ سنوات. صار التنفّس أيسر، وصار الكلام ممكناً. أحسست بالفرق ليس جسدياً فقط، بل روحياً أيضاً. كأنّ بوابة الصوت قد فُتحت، لا لي وحدي، بل لكل النساء اللواتي سبقنني. لم أعد أحدث الناس عن قصتي وحدها - بل عن قصتنا جميعاً.

وتقول شيفالي تساباري في كتابها «صحوة من الأعماق» (Radical Awakening): «نحن نحمل مفتاح شفاء أجيالنا المقبلة. فعندما تشفي المرأة نفسها، تُفسح المجال لشفاء يفيض في كل اتجاه. نحن النساء الحاضنات والواصلات، صانعات المجتمعات وبانيات الروابط. ومن الضروري أن نُكرِّم قيمتنا ونتمسّك بها لنُجسّد إمكاناتنا في أسمى صورها. وعندما نستيقظ استيقاظاً جذرياً من الأعماق فإننا نُلهم الآخرين لاستغلال قوّتهم وقيمتهم. وهكذا تصبح يقظتنا شرارة تُطلق أثراً متوالياً ينعكس على الجميع من حولنا».

هذا هو العمل الذي ينتظرنا. هذا هو النداء. أن نستيقظ. أن نستعيد أصواتنا. أن نُشفى - لا لأنفسنا فحسب، بل من أجل أمهاتنا وجدّاتنا وبناتنا، ولكل الأصوات التي ما تزال تنتظر أن تُسمع.

وخلال بحثي في الصدمات النفسية المتوارثة عبر الأجيال، وقفت على ملاحظة مؤثرة لوِل كول، المتخصّص في الصحة المناعية والعصبية والهضمية والهرمونية والدرقية. تركت كلماته في نفسي أثراً عميقاً: «لكي تكون حيّاً اليوم، فأنت ثمرة شبكة هائلة من الأسلاف، تمتد وتتسع بشكل أُسّي مع كل جيل إلى الوراء:

2 والدين

4 أجداد

8 أجداد

16 جدّاً من الدرجة الثانية

32 جدّاً من الدرجة الثالثة

64 جدّاً من الدرجة الرابعة

128 جدّاً من الدرجة الخامسة

256 جدّاً من الدرجة السادسة

512 جدّاً من الدرجة السابعة

1,024 جدّاً من الدرجة الثامنة

2,048 جدّاً من الدرجة التاسعة

وحين تشفين ذاتك، يلتئم معك ميراث أسلافك الكامن في خلاياك. وبشفائك، تنكسر الأغلال المتوارثة، وتُشفى أجيال لن تقع عيناك عليها أبداً».

هذا المنظور هزّ شيئاً عميقاً في داخلي. جعلني أتوقّف متأمّلةً الامتداد الهائل للسلالة التي تسكننا. آلاف الحيوات، لكلّ منها تجاربه ومعاناته وحكاياته، تجمّعت فيَّ - فينا.

لسنا كائنات منفصلة؛ نحن الامتداد الحيّ لمن سبقونا، أوعية تحمل أحزانهم المكبوتة، وأحلامهم المؤجّلة، وصلواتهم الصامتة. ذكرياتهم تسكن خلايانا، وتتردّد في أجسادنا وسلوكنا وآلامنا. وعندما نختار أن نُشفى - بالعلاج، أو بالحركة، أو حتى بمجرد منح

أنفسنا الإذن للشعور - فإننا لا نداوي ذواتنا وحدها، بل نمدّ أيدينا إلى الوراء عبر الزمن، نلمس جراح الأجيال الماضية، ونهمس لها برفق: هنا ينتهي الألم.

إن مخاطبة الجسد تعني أن نتذكّر أن الشفاء يبدأ من أصغر المواضع - من الخلايا، ومن الماء الذي يحمل الذاكرة فينا. وقد كشف لنا العلم ما كان العارفون يوقنون به منذ زمن بعيد: أجسادنا مؤلّفة بنسبة تقارب 80 % من الماء، والماء شديد الاستجابة للذبذبات، والصوت، والنيّة.

اشتهر ماسارو إيموتو في أواخر التسعينيات وبداية الألفية الجديدة بتجاربه على الماء. فقد عرّض عينات الماء لكلمات منطوقة، ولموسيقى، ولنوايا مكتوبة، قبل تجميدها إلى بلّورات. وعند فحصها تحت المجهر، كشفت الصور عن اختلافات مذهلة: الماء الذي شُحن بكلمات حب وامتنان وجمال تشكّل في أنماط متناظرة متألّقة تُشبه ندف الثلج، بينما الماء الذي تعرّض لكلمات قاسية، أو غضب، أو إهمال، أظهر أشكالاً مشوّهة وفوضوية.

وعلى الرغم من الجدل الذي قوبل به عمل إيموتو في الأوساط العلمية، إلا أنه قدّم تذكرة شعرية بليغة: إن كان الماء يستجيب للكلمات والذبذبات بهذا الوضوح، فكم بالأحرى قد يستجيب الماء الذي يسكننا للطريقة التي نخاطب بها أنفسنا؟ إن همس المحبة لأجسادنا، وتقديم الشكر لخلايانا، ليس مجرّد استعارة، بل صورة من صور التواصل مع جوهر كياننا العميق.

فحين نخاطب أجسادنا بلطف، وحين نعامل أنفسنا بإجلال، فإننا نهدي الانسجام لمياهنا الداخلية - ندعو خلايانا لتنتظم في أنماط من الجمال والتوازن والنور. وهكذا يصبح الشفاء ليس مجرد دواء خارجي، بل فعلاً داخلياً من لغة، وهمس، ومحبة.

ويقول العارفون إن هذا هو «تجديد الخلق» - تجدّد الخليقة في كل لحظة. ويخاطبنا القرآن الكريم، قائلاً: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (الإنسان: 2). ففي تلك النطفة، في تلك الخلايا، يجري ليس فقط دم حياتنا، بل أصداء الحيوات التي سبقتنا.

وإذا كان الماء يشكّل معظم كياننا، فإن كل قطرة منه تختزن ذاكرة. وكلما خاطبنا أجسادنا برفق، وكرّمنا أنفاسنا بالرحمة، أعدنا نسج تلك الأنماط، محوّلين الثقل إلى تناغم. إن همس اللطف في عظامنا هو، في جوهره، همس باللطف إلى السلالة التي تسكننا.

يسمّي الصوفيون هذا «مواريث الأرواح». أن نُشفى يعني أن نصقل المرآة، لا مرآتنا وحدها، بل مرايا الذين سبقونا. أن نمنح أسلافنا ما طال اشتياقهم إليه ولم ينالوه: الرقة، والسَّعة، والانعتاق. وهكذا يغدو شفاؤنا شفاءهم، وتجد أدعيتهم - التي ظلّت تُحمل صامتة عبر القرون - جوابها فينا أخيراً.

أن نشفى هو أن نُكرِم، أن نتحرّر. وبشفائنا، نُضيء الدرب لمن سيأتون بعدنا.

شمس تشرق على الأعتاب

في الفترة ذاتها، راودني حلم آخر - كان عميقاً، نابضاً بالحياة، ومؤثّراً إلى حدٍّ بعيد. في الحلم، كنت جالسة في الصحراء قرب نار متّقدة، حين لمحت شيخاً طاعناً في السن يتقدّم نحوي بخطوات بطيئة. كان جسده النحيل منحنياً، رقيق الملامح، يتوكأ بثقل على عصاً خشبية. يستقر على رأسه عمامة مرتخية تُظلّل وجهه، الذي لم أتبينه أول الأمر إذ كان مطأطئ الرأس.

اقترب في صمت، ووضع يده برفق على رأسي. رفعت بصري إليه وسألته: «من أنت؟».

فأجاب: «أنا جدّك الأكبر، الشيخ غانم». وما إن نطق باسمه حتى نهضت إجلالاً، وقبّلت ظهر يده.

ثم استيقظت.

كان جدّي الأكبر، الشيخ غانم الشامسي، رجلاً ورعاً مباركاً، وشيخاً تقيّاً من العين. وفي حالته، كان لقب «الشيخ» يعني رجلاً على جانب من الورع والتديّن، لا وجاهةً ولا نسباً. عُرف بقدرته على الشفاء وببركته، وكان الناس يقصدونه من مسافات بعيدة يلتمسون دعاءه وهدايته. عاش حياة بسيطة، وغالباً ما كان يمضي أسابيع في الصحراء وحيداً في تأمّل وصلاة. ولهذا شعرت أن لقاءه في هذا المقام بالذات - في فضاء الصحراء، قرب النار وتحت ضوء النجوم - كان ذا دلالة عميقة.

وفي اليوم التالي، رويت الحلم لأبي. فحثّني أن أزور قبر الشيخ غانم وأشكره على ظهوره وبركته.

سألته: «وأين قبره؟».

قال: «في دبي. وهناك تسكن حفيدته شمسة، وتواليه بالرعاية».

رتّب أبي الزيارة في اليوم نفسه. ملأت سيارتي بالخضار والفواكه من مزرعتنا، وانطلقت إلى الtitle1 الذي أعطاني إياه. وحين وصلت، وجدت امرأة مسنّة تقف بانتظاري أمام البيت. قاربت التسعين، ترتدي اللباس التقليدي. كان وجهها مغطّى بالبرقع، لكن عينيها أضاءتا حين وقع بصرها عليّ.

سألتني وهي ترحّب بي بحرارة وتدعوني إلى بيتها: «لماذا جئتِ؟».

قلت لها: «رأيت الشيخ في منامي».

نظرت إليّ بتركيز وقالت: «لا يراه أحد في المنام... إلا أنا. ماذا قال لك أو فعل؟».

أجبتها: «وضع يده على رأسي، ثم عرّفني بنفسه، فوقفت وقبّلت يده».

شهقت وقد اغرورقت عيناها بالدموع. أمسكت يدها برفق وسألتها عمّا أثار مشاعرها إلى هذا الحد. فقالت إنها في الليلة السابقة رأت في حلمها الشمس تشرق على عتبتها. وفي الصباح جاءها اتصال يخبرها أنني سأزورها. فانتظرت أمام بيتها، وحين وصلت، قالت: «لقد كان مجيؤك كشمس مشرقة».

عانقتها، وقد غمرني التأثر. ثم سألتها إن كان بوسعي زيارة قبر الشيخ غانم.

قالت: «طبعاً يا ابنتي. لقد كبرت عن المشي إليه، لكن ابنتي ستأخذك إلى هناك».

لم يكن القبر بعيداً؛ مجرد خمس دقائق سيراً من البيت، كان بريّاً تغمره النباتات والأشواك والشجيرات الصحراوية، بلا مسار واضح. كان القبر خلف بوابة مقفلة، إذ لا يزال الناس يفدون طلباً لبركة الشيخ، فاضطرت العائلة لحمايته. فتحت ابنتها البوابة، ودخلنا. شعرت حينها أنني دخلت بستاناً ينبض بسحرٍ خفي.

حول القبر تفتّحت واحة من أزهار عطرة وشجيرات غنّاء تفوح بأريجها. سألتها إن كانوا قد زرعوها. هزّت رأسها وقالت: «لا، هذه تنبت وحدها. فقط حول القبر. انظري من حولك - الصحراء جرداء لا حياة فيها».

وقفت في تلك الجنّة التي نبتت حول قبره، وأدركت أن هذا ليس مكاناً عادياً. يسمّي الصوفيّة ذلك «البركة» التي تظلّ متدفّقة من الصالحين حتى بعد رحيلهم، فتغدو حياتهم ينابيع رحمة، وتشهد الأرض نفسها على إخلاصهم. ويذكّرنا القرآن الكريم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: 62). في فيض هذا المقام وفي حضرة كهذه، تجد الروح مأمنها ومأواها.

تلك الأزهار المنبثقة على غير عادةٍ في أرضٍ كهذه، وذلك العطر العالق في الأفق، هي ما يسميه العارفون «الكرامات» - دلائل على رِقّة الحجاب حول مَن أحبّهم الله. ليست هذه معجزاتٍ تُعبد، بل إشاراتٌ إلى أن البركة تخلّف أثراً، كعطرٍ يعلق بثوب. لقد كانت عزلة الشيخ في الصحراء، وصلواته التي همس بها إلى الغيب، بمثابة بذورٍ لا تزال تتفتّح بعد زمنٍ

طويل من عودة جسده إلى التراب.

حينها، خطرت ببالي كلمات ابن عربي: «الأولياء هم عمّار الأرض». ولعل هذه كانت جنته - ليست جنةً غُرست بالأيدي، بل بالحضور. لم تُسقَ من الآبار، بل بالذِّكر. فالصحراء لا تنسى مَن سار فيها بصدق وإخلاص.

وحين غادرت القبر، شعرتُ بوقع يده يتردّد على رأسي من جديد. بركة تتناقلها الأجيال، تذكّرني أن رحلة السالك لا تكون وحده أبداً. فالأسلاف يسيرون بجوارنا، والأرض تزهر للقائنا، والحبيب يترك إشارات، كجنائن خفيّة، ليطمئننا أننا دوماً في كنفه.

الفصل الرابع

الأرض الكامنة تحت ذاكرتي

في رحلتي للكشف عن جذوري وتعميق صلتي بالأرض، وجدتني مشدودةً من جديد - إلى التراب الذي احتواني، إلى الأرض التي وُلدتُ عليها، حيث عاش أسلافي، وحيث سيكتب أبنائي يوماً ما حكاياتهم. أنا من الأرض، والأرض مني. نحن مرتبطون بها بخيط سرمدي لا ينقطع. وأن تكون إنساناً هو أن تكون متجذّراً، بالمعنى الحرفي والروحي للكلمة. فكلمة *Human* نفسها مشتقة من *Humus*، الكلمة اللاتينية التي تعني «الأرض». نحن أبناء الأرض، وننتمي إليها كما تنتمي الجذور إلى أعماق التربة. وحين نضلّ الطريق أو تغشانا الحيرة، يمكننا دائماً أن نعود إلى الأرض - الشاهد الصامت على تحوّلنا ووجودنا، والحافظة لأسرارنا منذ البدء.

وفي أثناء تتبّعي لهذه الصلة، واجهت شيئاً غير مألوف - جذوري المدفونة. كان لقاؤها للمرة الأولى باعثاً لخوف خفيّ، ذاك الخوف الذي ينهض حين نخطو إلى أروقة مجهولة من ذواتنا، حين يطلب ما ظلّ طويلاً مطموراً أن يظهر للعيان. لم يكن خوف الخطر، بل خوف الاعتراف - إدراك أن ما قد أكشفه قد يبدّلني إلى الأبد. لكنني، بدلاً من أن أنسحب، اخترت البقاء. منحتها ماءً وصبراً وعناية، فأحييت أجزاءً من نفسي لم أكن أعلم بوجودها، أجزاءً نائمة في عتمة الذاكرة أضاءتها لمسة التراب.

وحين ضغطت قدماي على الأرض، شعرت بثِقَلٍ تحتها - ليس ثِقَلاً منهكاً، بل ثِقَلاً نابضاً بالحياة، كأن الأرض نفسها تهمس بأسرارها المكتومة. ويقول القرآن الكريم: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (الزلزلة:4). كنت أتوق لمعرفة تلك الأخبار، فسرتُ مع انجذاب الأرض حتى قادني إلى المكان الذي تتكلّم فيه الأرض بأوضح صوت. وجدتني منسابةً إلى مليحة، لا بدافع التاريخ وحده، بل بشوقٍ إلى لمس جذور الذاكرة ذاتها، إلى الوقوف حيث ينطوي الزمن، ويلتقي الأحياء بأسلافهم، وحيث تصير الأرض كتاباً مفتوحاً لمن يحسن الإصغاء.

مليحة مملكةٌ عتيقة تكتنفها الأساطير والذكريات، سهلٌ صحراوي تعلو فيه الكثبان كأنها شهود صامتون، وتحتفظ حجارته بأنفاس عوالم منسيّة. تقع «مليحة» على بُعد ستين كيلومتراً إلى الجنوب من الشارقة، مسقط رأسي، ومع ذلك فإن الدخول في رحابها

الفسيحة يشبه الخروج من الزمن. فالرمال هنا تحمل همسات أقدم من اللغة، والصخور تحفظ ما نسيه اللسان منذ أزمان بعيدة.

واليوم، تقف مليحة كإحدى المواقع المرشحة لتكون على قائمة التراث العالمي لدى اليونسكو، تحتضن بقايا أثرية مهيبة، من مقابر تعود إلى العصر البرونزي، إلى حصون شامخة سبقت فجر الإسلام. غير أنّ حكايتها - شأنها شأن هذه الأرض - تبدأ قبل أن تترك الأقدام البشرية أول أثرٍ في رمالها الصامتة.

يمتد تاريخ مليحة إلى العصر الطباشيري، الحقبة الجيولوجية التي امتدّت ما بين نحو 145 و66 مليون سنة مضت. واسمها creta مشتق من اللاتينية بمعنى «الطباشير»، إشارة إلى الصخور الرسوبية الغالبة في ذلك العصر. غير أن أرض مليحة تكشف عن ما هو أقدم: «الأوفيولايت»، أو «الحجارة السوداء»، وهي أجزاء من القشرة المحيطية والوشاح العلوي للأرض دفعتها الاضطرابات التكتونية إلى ما فوق سطح البحر. وكلمة ophiolite نفسها لها أصل يوناني - ophis وتعني «الأفعى» في إشارة إلى ملمس الصخور الأفعواني، وlithos وتعني «حجر». هذه الحجارة ذات المظهر الأفعواني ما هي إلا تذكير هادئ بأن هذه المنطقة بأسرها كانت ذات يوم غارقة تحت محيط تيثيس الأزرق العظيم.

وتعدّ «صخرة الأحفورة» (Fossil Rock) أحد أبرز معالم هذا الامتداد الطبيعي، وهو تكوين شاهق من الحجر الجيري يعود إلى أواخر العصر الطباشيري، يزدان بآثار حياة بحرية سحيقة. أصداف الأمونيت، والرخويات البطنية، والرودستات، وقنافذ البحر، والمتحجرات الدقيقة، بل وحتى الطحالب المتحجّرة، جميعها معلّقة في الزمن داخل جروفه كأسرار مطمورة لمحيطٍ مندثر. زرت «صخرة الأحفورة» مراراً لا تُحصى، وفي كل زيارة كان يكشف لي عن جلالٍ صامت - أحافير متناثرة على الصخر كأنها شظايا نجوم منسيّة. إن ضخامة المكان وسكونه يرويان عن زمنٍ كانت فيه الأرض التي نعرفها اليوم صحراء قاحلة، قاعاً لمحيطٍ يعجّ بالحياة والدهشة.

وعلى مقربة من «صخرة الأحفورة» يقف معلم آخر تألفه أعين السكّان والزائرين على حدّ سواء -«صخرة الجمل» (Camel Rock). هذه التشكيلة الطبيعية الفريدة تتمايز بظلّها الأخّاذ الذي يشبه جملاً في استراحة وادعة، وقد غدت مقصداً للمصوّرين والمتنزّهين والمسافرين الذين يأسرهم شغف الصحراء حين تنحت الحجارة لتروي قصصها الخاصة. إن حضورها يضفي إيقاعاً مغايراً لعظمة «صخرة الأحفورة»، ليذكّرنا بأن الأرض لا

تحتفظ فقط ببصمات المحيطات الغابرة، بل تبتكر أيضاً صوراً تستفزّ المخيّلة، فنرى في تضاريسها حيوانات وحُرّاساً وشخصيات أسطورية مُشَكّلة في صمت الصخور. واليوم، تظل «صخرة الجمل» أيقونة حيّة للصحراء، شاهدة على إبداع الرياح والرمال وهي تنحت الزمن في هيئة حجر.

لكن مليحة لا تروي قصص البحر وحده؛ فهي تحمل بين جنباتها أحد أقدم السجلات لوجود الإنسان في هذه المنطقة، إذ يضم «مركز مليحة للآثار» مكتشفات تعود إلى العصر الحجري القديم (Paleolithic era)، تلك الحقبة التي تعلّم فيها أسلافنا للمرة الأولى فن نحت الأدوات وتشكيلها من الحجارة. هنا بدأت البشرية رحلة الهجرة الطويلة منطلقةً من أفريقيا، وهنا ترك أوائل البشر المتطابقين تشريحياً بصمتهم الأولى على الرمال.

وكان أحد أهم هذه الاكتشافات قد حدث مصادفة.

ففي أحد الأيام، توقّف فريق من علماء الآثار بقيادة هانس-بيتر أوربمان (Hans-Peter Uerpmann) لتناول الغداء تحت مظلّة صخرية عند جبل الفاية، ذلك النتوء الرملي الذي طالما وفّر ملاذاً من رياح الصحراء العاتية. غير أنّهم ما لبثوا أن أدركوا أنّهم لم يكونوا أوائل من احتمى بجناح الصخور هناك؛ فبينما كانوا ينخلون الرمال، تكشّفت أمامهم شواهد حيوات بعيدة - فؤوس يدوية بدائية، تشبه إلى حدّ مدهش تلك المكتشفة في شرق أفريقيا. وقد أضفت هذه الأدوات المتواضعة دلالة عميقة: إذ ربطت جبل الفاية بخطى أسلافنا الأوائل، البشر المتطابقين تشريحياً، وجعلت منه محطة مفصلية في الرحلة الكبرى لهجرة الإنسان.

وفي عام 2011، نشر أوربمان بالاشتراك مع سيمون أرمتيج (Simon Armitage) بحثاً رائداً يقترح أن البشر المتطابقين تشريحياً وصلوا إلى شبه الجزيرة العربية قبل نحو 125,000 عام - أي في وقت أبكر بكثير مما كان يُعتقد. وبحسب نظريتهم، لم يأتِ هؤلاء الأوائل عبر وادي النيل أو المشرق كما كان يُظن سابقاً، بل عبروا مضيق باب المندب من شرق أفريقيا. ففي العصر الجليدي (البلستوسين)، انخفضت مستويات البحار العالمية بأكثر من 100 متر بسبب الغطاء الجليدي الهائل عند القطبين. وبذلك تقلّص عرض البحر الأحمر، الذي يمتد عادةً لنحو 350 كيلومتراً. انكمش عند طرفه الجنوبي ليترك معبراً ضيقاً لا يتجاوز كيلومتراً واحداً. ذلك الممر الضحل، الذي يعود تاريخه إلى ما بين 140,000 و135,000 سنة مضت، ربما كان الجسر الخفي الذي أتاح للبشر الأوائل أن يغادروا

أفريقيا، ويخطوا أولى خطواتهم نحو شبه الجزيرة العربية في رحلة فتحت أبواب التاريخ، ورسمت المسار الأول لانتشار الإنسان في العالم.

ومنذ ذلك الحين، تطوّرت النظرية وتعمّقت. فباستخدام تقنية التحفيز الضوئي، واصل الباحث كنوت بريتسكي (Knut Bretzke) مسيرة أوربمان، ساعياً إلى تأريخ الأدوات الحجرية بدقّة أكبر وكشف أسرارها المخبوءة في طبقات الرمل. وقد تمكّن فريقه من إزاحة الستار عن أدلّة دامغة تشير إلى أنّ البشر المتطابقين تشريحياً قد شغلوا المأوى الصخري في جبل الفاية بين 210,000 و120,000 سنة مضت - دافعين بخطّ الهجرة البشرية إلى أزمنة أعمق مما كان يُعتقد.

وتوحي نتائجهم بأن المناخ كان عاملاً حاسماً في تدفق الهجرات. ففي فترات ازدياد هطول الأمطار خلال العصر الجليدي، تحوّلت مشاهد الجزيرة العربية القاحلة إلى ممرّات خصبة، تغمرها البحيرات والأنهار، وتزهو بالنباتات وتفيض بالحياة البرّية. هذه النوافذ الخضراء العابرة جعلت الأرض مهيّأة للعيش، وفتحت أبواباً لاستقرار الإنسان الأوّل وازدهاره. وفي هذا الهلال الخصيب عبر الزمن السحيق، لم يقتصر دور أسلافنا على النجاة فحسب - بل عرفوا كيف يزدهرون ويشيدون اللبنات الأولى لحكاية الإنسان.

خيط في نسيج الزمن

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49). ويشبّه العارفون هذا المشهد بنسّاجٍ إلهي يعمل عبر الزمان؛ فما يبدو لنا متناثراً، يكشف الزمن أنه منسوج في نمطٍ محكم. وبلغة ابن عربي، فإن كل حادثة هي موضع لتجلٍ إلهي، ولذا فإن كل لقاء وكل منعطف تسوقه الأقدار يحمل معنى، وإن خفي عن أبصارنا ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ (الحديد: 22).

وعلى مدى الأربعين عاماً الماضية، شكّلت مليحة موقعاً بالغ الأهمية لعلماء الآثار العاملين في المنطقة. لكنها لم تكن مجرد موقع علمي؛ فقد حملت لي شخصياً معنى عميقاً. أذكر أنني زرت مليحة لأول مرة عام 1995، حين كنت في المرحلة الثانوية، وقد تقدّمت آنذاك بطلب لدراسة الآثار والأنثروبولوجيا في جامعة كامبريدج. وكان من بين مقتضيات قبول طلبي أن أزور موقعاً أثرياً، وأن أعمل إلى جانب فريق تنقيب محترف، ثم أكتب تقريراً يوثق ملاحظاتي وتجربتي.

كنت محظوظة للغاية بلقاء الدكتور صباح عبود جاسم، مدير دائرة الآثار والمتاحف في الشارقة آنذاك، وعيسى يوسف، عالم الآثار الإماراتي الشاب الذي نشأت بيني وبينه صداقة - وبعد عقدين من الزمان سنعمل معاً في التنقيب عن الضريح الجبلي في كلباء.

كانا يعملان وقتها في مليحة، وقد استقبلاني بحرارة، وفتحا لي أبواب هذا العالم؛ كيف تُنقّب المواقع، وتُوثّق المكتشفات، وتُصان الشواهد التاريخية المدفونة تحت الرمال.

وقد اكتُشف الموقع مصادفة حين عثرت فرق الإنشاء، في أثناء شق طريق رئيسي يمر عبر مليحة، على دلائل ذات أهمية أثرية. فاستُدعي فريق التنقيب بقيادة الدكتور صباح للفحص والتحقيق، وما وجدوه فاق كل التوقعات: أساس مبنى أثري سيُعرف لاحقاً باسم «حصن مليحة».

وقد أمر والدي، صاحب السمو حاكم الشارقة، فوراً بإعادة توجيه الطريق لحماية الاكتشاف. ومن هناك بدأت أعمال التنقيب الجادة تكشف شيئاً فشيئاً عن بناء محصّن استثنائي، أصبح اليوم موثّقاً في السجلات الأثرية كمعقلٍ لمملكة مليحة القديمة.

ما زالت ذكرياتي حيّة عن تلك الأيام الأولى في الموقع. كنت حينها فتاة متحمسة في الثامنة عشرة، تلمع عيناي شغفاً، منغمسةً بكليّتي في التجربة. وبإرشاد الدكتور صباح، أنجزت تقريري وقُبلت لاحقاً لدراسة الآثار والأنثروبولوجيا في كامبريدج. وبعد سنوات تخرّجت، ومضيت لأكمل درجة الماجستير في الأنثروبولوجيا الطبية في لندن، تاركةً عالم الآثار وراء ظهري لبعض الوقت.

لكن قصة مليحة لم تكن قد انتهت معي بعد.

ففي عشية أحد الأيام، وبينما كنتُ أُنهي دراسة الماجستير، حملتني قدماي إلى مكتبة في لندن. وبين رفوف قسم الآثار والأنثروبولوجيا، وجدت نفسي أتجوّل بفضول مألوف، ألتقط بعض العناوين التي لفتت انتباهي. وحين توجهتُ إلى أمين الصندوق لأدفع قيمة ما اقتنيت، فوجئت بشاب غارق في القراءة خلف الطاولة.

قلتُ بأدب: «هل لي أن أدفع ثمن هذه؟».

رفع رأسه مبتسماً وقال: «بالطبع». وبينما كان يمسح الرموز، وقعت عيناه على الكتب التي اخترتها، فبدا عليه اهتمام خاص. وبعد أن أخبرني بالمبلغ، ناولتُه بطاقة الائتمان.

توقّف لحظة، ثم رفع نظره نحوي قائلاً: «القاسمي؟».

«نعم»، أجبت وقد استوقفني سؤاله.

قال: «هل أنت من الشارقة؟».

ازدادت دهشتي، فأومأت قائلةً: «نعم... وكيف عرفت؟».

ابتسم وقال: «لقد كنتُ في بعثة التنقيب الأثري في مليحة مع الفريق الإسباني».

«حقاً؟ ما أضيق هذا العالم!» قلتها وأنا عاجزة عن إخفاء دهشتي.

وقفنا هناك، بين رائحة الورق وهمسات المتصفّحين، نتبادل الحديث عن رابطنا المشترك بمليحة، وعن لندن، وعن المسارات التي قادتنا إليها الحياة منذ أيام التنقيب. كان هو الآخر يتابع دراسته للماجستير. تبادلنا شذرات من الحكايات، متشابكة بخيوط قدر غريب. ثم التفتُّ خلفي، فإذا بطابور طويل قد تكوّن، وملامح الضجر ترتسم على وجوه الزبائن. ابتسمتُ، ودّعته بأدب، وغادرت.

لم أره بعدها قط، لكن تلك اللحظة ما زالت تعود إليّ بين حين وآخر - عابرة في ظاهرها، عميقة في معناها. فمن بين جميع مكتبات لندن، أي احتمال أن ألتقي شخصاً

عاش في الشارقة وعمل في مليحة في موقع أثري، تماماً كما حدث معي؟

بعد تخرّجي، عدتُ إلى دولة الإمارات وتولّيتُ عدة مناصب في حكومة الشارقة. وعلى مدى خمسة عشر عاماً، شغلتُ منصب رئيسة هيئة الشارقة للاستثمار والتطوير (شروق). ومن خلال شروق، أطلقنا مشاريع رائدة في مجالات السياحة والضيافة، كثيرٌ منها استلهم جذوره من التراث الثقافي للمنطقة. وكان من بين أثمن هذه المشاريع وأعمقها أثراً «مركز مليحة للآثار».

ومع ذلك، ظلّ في داخلي دائماً صوت خفي يناديني للعودة إلى مليحة.

ذلك الخيط، الذي نُسج منذ زمن بعيد، ظلّ يشدّ قلبي برفق. وفي عام 2016، افتتح والدي، صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، «مركز مليحة للآثار» رسمياً. وكانت جوهرة المبنى مقبرة «أم النار» العائدة إلى العصر البرونزي، والمشيَّدة نحو 2300 قبل الميلاد والمستخدمة حتى 2100 قبل الميلاد، والتي لا تزال من أروع المقابر المكتشفة في دولة الإمارات.

وفي إطار جهودنا لتطوير مليحة، قدّمنا باقة من الأنشطة التي تدعو الزوار إلى معايشة سكينة الصحراء المهيبة: من ركوب الخيل على امتداد الكثبان، إلى التخييم تحت نجومٍ لا تُحصى، ومن الجولات الأثرية التي تروي حكايات الزمن، إلى جلسات التأمل في صفاء السماء المرصّعة بالنجوم. وغدت كل تجربة منها دعوةً إلى التمهل، وفرصةً نادرة للاتصال بما هو سرمدي وأبدي. وكنت غالباً ما أصطحب ضيوفي إلى مليحة، واثقةً أنهم سوف يُفتنون بها؛ فهناك سحر لا يُفسّر يملأ الأجواء، ومن دون استثناء يقع كل زائر تحت تأثيره.

وبمرور الوقت، صرتُ أزور المكان وحدي. كان الصمت يجذبني إلى حكمة الصحراء الهادئة. أجلس قرب نيران الحطب، وأدع السكون يتسرّب إلى عظامي، وأسهر حتى يتسلّل أول ضوء للفجر عبر الرمال. في فراغها الشاسع، كانت الصحراء تمنحني شعوراً بالاكتمال؛ شعرت أنني أستكين في حضن العناصر؛ الريح تعانقني، والنار تدفئني، والأرض تحتويني.

في الليلة الأولى التي نذرتُها لهذا الطقس - التحديق في وهج النار من الغروب حتى الفجر - لم يكن الأمر هيّناً. قاوم جسدي، وتملّكني الضجر، وشعرتُ برغبةٍ في الاستلقاء وإغماض عينيّ. كنت أتحرّك بلا توقف، عاجزةً عن إيجاد السكون. ثم سمعتُ صوتاً

واضحاً وحازماً. التفتُّ حولي فلم أجد أحداً. تخيّلت أن الصوت جاء من زمنٍ سحيق، وقال لي: «ليس هكذا يُجلس أمام النار. اجلسي مستقيمة. ارفعي ركبتك اليمنى، وأمسكيها بذراعك اليمنى. اثني ساقك اليسرى تحتك. أبقي عمودك الفقري مستقيماً. ثبّتي نظرك في النار».

من غير تردّد اتبعت التعليمات. وكلما بدأت أنحني أو أتحرّك بقلق، كان صدى الكلمات يعيدني إلى الهيئة نفسها. تعلّمت كيف أجلس أمام النار - كما جلس أسلافي يوماً. كان ذلك درسي الأول، ولم أنسه قط.

لقد تاهت عنّا تلك السُّبُل؛ الطقوس القديمة ومراسم الصحراء تناثرت في مهبّ الريح، ولم يبقَ من يورّثها ويحملها إلينا. غير أنّني، هنا في قلب الصمت، أحسست بشعلة قديمة توقدت في أعماقي من جديد.

يسمي العارفون هذا «المراقبة» - يقظة الروح: أن تجلس بين يديّ الله متنبهاً واعياً، أنفاسك هادئة، وقلبك مصغٍ. المراقبة ممارسة صوفية للانسحاب من ضجيج الحواس، كي يهدأ العقل القلق وتلتئم جراح الماضي. والقرآن الكريم يأمرنا بذلك ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ (الروم: 8). وبمراقبة الأفكار دون التعلق بها، يلين القلب وتذوب الأنا، وتستيقظ الروح إلى وعي أسمى. في هذا السكون الداخلي، يصفو الإنسان حتى يصبح ليناً، مستسلِماً للتقبّل، كالماء العائد إلى البحر - ذوباناً في المحبة الإلهية ووحدة الوجود.

في ذلك التجلي، غمرني شعورٌ بعمق الصلة التي تربطني بأسلافي، وبامتنانٍ لصدى حضورهم الذي ما زال يتكلّم عبر النار والصمت. وقد لخّص الرومي هذه الحقيقة بكلمات عذبة حين قال: «اصمت، ليكلّمك الرب الذي منحك اللغة». عندها أدركت أنّ النار لم تكن نوراً فحسب، بل مرآة، وأنّ الصوت لم يكن تعليماً وحسب، بل تذكيراً - يناديني لأعود إلى هيئة الروح.

درب الروح الحرّة

«لَيْتَنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أُرِيكَ، حِينَ تَكْتَنِفُكَ الْوَحْدَةُ أَوْ يَلُفُّكَ الظَّلَامُ، ذَلِكَ النُّورَ الْبَاهِرَ الَّذِي يَسْكُنُ أَعْمَاقَكَ»

- حافظ الشيرازي.

خلال خلواتي التأملية الطويلة أمام النار، كانت تراودني رؤى لطيفة وقوية، تنتمي إلى سلسلة الأجداد. ومن بين تلك الرؤى ظهرت جدّتي الكبرى من جهة الأب، مريم بنت الشيخ غانم، حاملةً دفءَ الحنان في حضورها كله. وفي مساءٍ من الليالي نظرت إليّ قائلةً: «هنا موطنكِ، يا عزيزتي - هنا بالذات». وكانت صائبة. ففي فسحة الصحراء استيقظ فيّ شيءٌ قديم: إحساسٌ بالعودة إلى البيت لا تُبلغُه الكلمات.

وفي ليلةٍ أخرى، وحيدةً مجدّداً أمام النار، جالسةً كما جلس أسلافي من قبل - منتصبةً، متجذّرةً في الأرض، مُصغيةً بعمق - تجلّت لي رؤية رأيت فيها ذئبَين يزورانني. جلس أحدهما إلى يميني، والآخر إلى يساري. كانا قريبين حتى إنني كدت ألمس فراءهما الرمادي الفاتح، وهيبتهما تملأ المكان. لم أتحرّك. أدركتُ على الفور أنهما ليسا مخلوقين عاديين، بل روحان حاميتان أُرسلتا إليّ لحراستي وحمايتي في عزلة الصحراء، حيث المخاطر تسير مع الرياح. مكثا بجانبي طوال الليل، كحارسيّن صامتيّن، واختفيا مع أول خيطٍ من نور الفجر.

بعد ذلك اللقاء، صار ارتباطي بالذئاب لا ينفصم. راودني شغف لفهم عالمهم، فالتهمتُ كتاب نساء يركضن مع الذئاب لكلاريسّا پينكولا إستِس، الذي صار لِي رفيقاً روحياً لي في رحلتي. ظللتُ أُمحّص الكلمات، وأضع تحتها خطوطاً، وأدوّن خواطري على الهامش، وأعلّم الصفحات كما لو أنها خرائط لصحوتي الخاصة. كلماتها عكست تجاربي مثل مرآة وأوقدت في داخلي شعلة جديدة.

تقول الكاتبة: «العجوز، العارفة، تسكن فينا. إنها تحيا في أعمق أعماق نفس المرأة وروحها - في تلك الذات البرّية العتيقة والحيوية. موطنها هو ذاك الموضع في الزمن حيث تلتقي روح المرأة بروح الذئب».

لقد خاطبت لغتها روحي مباشرة. ذلك الموضع الذي وصفته - حيث يلتقي جوهر المرأة بروح الذئب - كنتُ قد وقفتُ فيه من قبل. سرتُ في ذلك البُعد الخفي، جنباً إلى جنب مع ما هو برّيّ.

بعد بضعة أسابيع اجتمعتُ مع عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث. ظننتُ أننا سنناقش العمل فحسب، لكن الأسلاف أوقدوا بداخلي أسئلةً لم تهدأ. بدأ عبدالعزيز - السّارد الموهوب والحارس المخلص للتراث - ينسج حكايات عن الطرق القديمة: أغاني ورقصات وطقوس كادت تندثر.

وبلمعة الحكمة في عينيه، التفت إليّ قائلاً: «هل تعلمين أنّ النساء في الأزمنة الغابرة لم يدخلن الصحراء ليلاً قط إلا وهنّ يحملن حول أعناقهن ناب ذئب؟».

اقشعرّ جسدي. سألته: «لماذا؟».

أجاب: «لأن الذئاب وحدها ترى الجنّ، والجنّ تخاف من الذئاب. لذا كانت النساء يعلّقن الناب للحماية».

وقد أيقظ هذا الكشف فيّ شيئاً بريّاً مفرحاً. قلت له: «أين أجد واحداً؟».

فأجاب بثقة: «سأحضره لكِ».

في اليوم التالي وصلني طرد صغير إلى مكتبي. بداخله، ملفوف بعناية، صندوق مجوهرات مخملي - من النوع المخصّص للخواتم النفيسة. فتحته ببطء. وفي حضنه كان ناب الذئب. شهقتُ بصوتٍ عالٍ. اتصلتُ على الفور بعبدالعزيز، وقد غمرني شعور عميق بالامتنان. قلت له: «هذه أروع هدية تلقيتها في حياتي».

ومنذ ذلك الحين، كلما عدتُ إلى الصحراء ليلاً، تشبّثتُ بنابي؛ أعلّقه حول عنقي كحرزٍ قديم. أعلم أنهم قريبون - حُرّاسي، ومُرشديّ في الدروب الخفيّة.

ناداني الأسلاف، فأجبتُ النداء. لم يأتوا ليواسوني فحسب، بل ليعلّموني - ليعيدوا إليّ الطرق التي أضعناها. جاؤوا ليذكّروني بعالم الغيب، وبغايتنا الأعمق. وما زالوا يسيرون بجانبي على طول هذا الطريق الأرضي، يمنحون الحماية، ويُسرّبون الرموز، ويُلقون بالصمت الذي يعلّم أكثر من الكلام.

والآيات من حولنا في كل مكان؛ مرسومة على الرمال، محمولة مع الريح. لكننا غدونا مشتّتين إلى حدّ لا نكاد نلحظها. إذا تعلّمنا فقط أن نجلس ساكنين، لنصغي، فالمعجزة

تكشف عن ذاتها. وقد ورد في القرآن الكريم ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: 190). ذاك هو طريق الأسلاف؛ طريق الروح الحرّة. سرْ فيه، وستتذكّر ما كان يسكنك منذ الأزل.

وحين نسير على إيقاع الأرض - وعلى إيقاع القلب النابض في أعماقنا - نتعلّم كيف نمشي على حافة الزمن؛ بين العوالم.

الفصل الخامس

أصداء في الحجر:

الحيوات المنسيّة في مليحة

كلما عدتُ إلى مليحة، تكشّفت لي هذه الأرض المسحورة عن طبقات جديدة من أسرارها. ففي اللغة العربية، تحمل كلمة «مليحة» معنى «الصغيرة الجميلة»، لكنها تُترجم أيضاً إلى «أرض الملح»، في لفتة آسرة بأن هذه الرقعة كانت يوماً غارقة تحت البحر. إن موقعها الاستراتيجي، القابع عند ملتقى الشمال والجنوب والشرق والغرب من شبه الجزيرة العربية، جعلها في متناول القادمين من اتجاهات شتّى، الأمر الذي منحها مكانة بارزة في العصور القديمة.

وفّرت السهول الداخلية لمليحة، التي تحتضنها جبال الحجر، بيئة مثالية لازدهار الحياة. ففي هذا المكان وجد أوائل سكان العصر الحجري الحديث موطناً لهم، ما جعلهم أقدر على إعالة أنفسهم بما يفوق بكثير أسلافهم من الصيّادين وجامعي الثمار في العصر الحجري القديم. وتشير الشواهد إلى استئناس الأبقار والأغنام والماعز، بما يعكس تحوّلاً نحو نمط حياة شبه بدوي أكثر استقراراً. ومع هذا التحوّل برزت طبقة أعمق من المعنى؛ إذ تكشف الحجرات الجنائزية والقبور العائدة إلى تلك الحقبة عن البواكير الأولى للطقوس الجنائزية، إيذاناً بميلاد الممارسات الروحية والدينية الأولى.

وعلى مقربة من تلك البقعة الساحرة، وتحديداً في جبّانة جبل بحيص العريقة، سجّل علماء الآثار اكتشافاً مذهلاً: مقابر أُعيد استخدامها وظلّت تخدم المجتمع لأكثر من خمسمئة عام، حيث عُثر على بقايا نحو 660 فرداً، إلى جانب لقى جنائزية كالفخار والأواني الحجرية والقطع المعدنية ورؤوس الرماح والسيوف. لم تكن تلك المدافن مجرد مثوى للأجساد - بل صفحات من حكايات صيغت بعناية، وحُفظت في أحشاء الأرض عبر العصور.

ومن بين كل تلك المدافن، أثارت واحدة منها خيالي على نحو خاص. «سيدة اللآلئ»، كما

أسميتها، دُفنت متزيّنة بأكثر من 2,500 لؤلؤة وخرزة صُنعت من الصدف والحجر. وحول خصرها، صيغت أصداف الحلزون على هيئة مئزر رقيق. وقد دُفنت على الطريقة النيوليتية: مستلقية على جانبها الأيمن في وضعية الجنين، ورأسها متجه شرقاً نحو شروق الشمس، في إيماءة رمزية للولادة من جديد. كانت يدها اليسرى تبدو وكأنها تقبض على شيءٍ تلاشى مع الزمن، وعلى معصمها أساور من أصداف أنسيلا، وعلى الآخر خرزات أنبوبية سوداء وبيضاء انسجمت مع عقدها. حتى شعرها لم يُغفل؛ إذ كشفت الغربلة الدقيقة عند الجمجمة عن تسع أصداف حلزونية وتسع لآلئ، يُرجّح أنها كانت منسوجة بين خصلاته.

من تكون؟ كيف عاشت؟ وما الذي رآه مجتمعها فيها ليكرّموها بهذا الجمال عند موتها؟ إن طقوس دفنها تنطق بالإجلال والمكانة الاجتماعية السامية. لا شك أنها كانت ذات شأن عظيم، فلربما كانت قائدة، أو معالجة، أو حافظة لحكمة قديمة.

لكن مليحة لم تكشف عن أسرار الروح وحدها، بل أبانت أيضاً عن وجه آخر من الحضارة المبكرة: ممارساتها الطبية المتقدمة. فقد عثر علماء الآثار بين البقايا على جماجم تحمل آثار عمليات ثَقبٍ جمجمي ملتئمة، وهي فتحات أُحدثت عمداً في الجمجمة لتخفيف الضغط الناجم عن إصابات الرأس. كما عُثر على هيكل عظمي لفك مكسور شُفي بعد أن ثُبّت لأسابيع طويلة، وقد نجا صاحبه بفضل الرعاية والتغذية التي قدّمها له مجتمعه.

هذه الشواهد ترسم صورة لمجتمع يتسم بالرحمة، يمتلك مهارات متقدمة، وتوثّقه روابط القرابة. تذكّرت عندها مقولة عالمة الأنثروبولوجيا الثقافية الشهيرة مارغريت ميد، حين سألها أحد طلابها عن أول علامة على قيام الحضارة. لم تُشر إلى المعابد أو الأدوات، بل إلى عظم فخذ ملتئم، كدليل على أن أحدهم نجا لأنه حظي برعاية طوال فترة إصابته. قالت: «إن مساعدة إنسان آخر على تجاوز محنته، هي النقطة التي تبدأ عندها الحضارة».

لقد كانت مليحة أكثر من موقع استيطان؛ كانت ورشة عمل ومركزاً للإبداع والحِرف. ففي وادي الكهوف، عُثر على رؤوس سهام وأدوات من الصوّان، شاهدة على أن الحاجة التقت هنا بالابتكار، وأن أصداء العمل ما زالت شاخصة في الحجارة.

غير أنّ أي حضارة لا تظلّ على حالٍ من الجمود.

فمع اقتراب نهاية الألفية الخامسة قبل الميلاد، حملت الرياح الموسمية القادمة من المحيط الهندي أمطاراً منتظمة أغنت الأرض وأربكت في الوقت ذاته إيقاع الحياة النيوليتية. هذا التحوّل البيئي أحدث اضطراباً في أنماط العيش القديمة، ومهّد لولادة ثقافة جديدة حوالي عام 3000 قبل الميلاد، إيذاناً ببزوغ العصر البرونزي. في تلك الحقبة، أزاح المعدن الحجر من مكانته، وغدت الأدوات والأسلحة أكثر تطوّراً وتعقيداً. وقد سمّى علماء الآثار المرحلة الأولى من هذا العصر بـ«مرحلة حفيت»، نسبةً إلى القبور التي كُشف عنها في جبل حفيت في مدينة العين.

كلما تعمّقتُ في مليحة، أدركت أنها ليست مجرد موقع يُزار، بل مكان يناديني. مكان يصون ذاكرة الذين رحلوا، ويحتضن أصواتهم في صمت الريح وتحت ثقل الجبال العتيقة. وما تزال أصواتهم تهمس.

أما المرحلة الثانية من العصر البرونزي، فتُعرف بمرحلة «أم النار». وقد جاءت تسميتها من جزيرة أم النار في أبوظبي، حيث كشفت بعثة أثرية دنماركية أولى بقايا مستوطنة مهمة تعود إلى ذلك العصر. وتميّزت قبور هذه الفترة (2700 – 2000 قبل الميلاد) بفرادتها، فقد شُيدت بعناية مذهلة من كتل الحجر الجيري المشذبة بدقة، وقُسّمت داخلياً إلى حجرات مصممة بعناية متأنية. إنها شواهد خالدة على مجتمع كان يجلّ موتاه ويحيطهم بطقوس دفن بالغة العمق والتعقيد.

ومن بين هذه القبور المدهشة، يبرز في مليحة - وعلى مقربة من مركز الزوار - قبر دائري الشكل ذو أهمية تاريخية بالغة. يقف مهيمناً على المشهد بهيبة صامتة، تكتنفه الأسرار؛ إذ ما زلنا نجهل على وجه الدقة الكيفية التي كانت تُمارس بها الطقوس الجنائزية داخله. غير أنّ تعقيد بنائه وحده يُغني عن كثير من الشرح. أما ما اكتُشف فيه من أوانٍ خزفية وفخارية وحاويات من الحجر الصابوني - تلك السمات المميّزة لتلك الحقبة - فيوحي بثقافة غنية بالرمزية والإبداع الحرفي.

وعقب مرحلة «أم النار» جاءت فترة «وادي سوق»، وسُمّيت بهذا الاسم نسبة إلى موقع في عُمان عُثر فيه أولاً على لقى مميزة. وقد شكّلت هذه المرحلة الانتقالية جسراً بين العصرين البرونزي والحديدي، ومهّدت تدريجياً لظهور تقنيات جديدة، وأنماط استيطان مختلفة، وتحولات في المعتقدات. أما الجزء الأخير منها فيُعرف بـ«العصر البرونزي المتأخر»، وهو مسمّى لا يعكس تماماً عمق التحولات الاجتماعية والبيئية التي كانت قيد

التشكل آنذاك.

ثم جاء العصر الحديدي ليعلن قفزة ثورية في الابتكار والتكيّف. ومن أبرز إنجازاته نظام «الفلج» - ذلك الأسلوب المتقن لإدارة المياه. إذ اعتمد على استثمار المياه الجوفية عبر أنفاق محفورة يدوياً، تغذّي شبكة تحت أرضية معقدة من القنوات لتوزيع المياه على الحقول والمجتمعات. وفي أرض ندر فيها المطر، وفّر «الفلج» مصدراً ثابتاً وموثوقاً للمياه. ومن أقدم وأجمل النماذج المكتشفة لهذا النظام ما عُثر عليه في «الثقيبة»، غير بعيد عن مليحة.

ومن السمات اللافتة الأخرى للعصر الحديدي استئناس الجمال أحادية السنام. هذه الحيوانات الصحراوية القوية القادرة على تحمّل الظروف القاسية غيّرت وجه الحياة في المنطقة، إذ مكّنت من نقل البضائع والناس عبر مسافات شاسعة، ما جعل مليحة جزءاً من شبكة تجارة واسعة النطاق.

وفي الأثناء، ازدهرت الحِرف وتطورت. إذ تكشف الأدوات ورؤوس السهام المكتشفة من تلك الفترة عن طفرة تقنية لافتة، وربّما أنها إشارة إلى أن الحياة لم تكن دائماً وادعة، وأنها شهدت صراعات واستراتيجيات دفاعية، وبروز تحولات اجتماعية أكثر تعقيداً.

ثم حلّت الفترة السابقة للإسلام، التي درج بعض الباحثين على تسميتها بالعصر الهلنستي أو السلوقي أو الفرثي. غير أن هذه التسميات تبدو مضلِّلة؛ فعلى الرغم من العثور في مليحة على لقى منسوبة إلى تلك الإمبراطوريات البعيدة، تؤكد الأبحاث أن المنطقة لم تخضع يوماً لاحتلالها. إنما تعكس هذه التسميات أثر التجارة لا الغزو.

لقد حمل هذا العصر ما قبل الإسلامي تحولات جذرية في النسيج الروحي والاجتماعي لمليحة. فاكتشاف القبور المتقنة وتجهيزاتها الفاخرة يشير إلى طقوس جنائزية متنامية التعقيد، بما يوحي بتحوّل في المعتقدات الدينية والممارسات الروحية. صارت القبور أوسع وأكثر إتقاناً، وكشفت المساكن عن تخطيط عمراني منظم يدل على مجتمع هرمي بأدوار ومكانات واضحة. وللمرة الأولى ظهرت أوانٍ زجاجية وجرار برونزية مزخرفة، كشواهد على ثراء متصاعد وحس جمالي رفيع. والأهم من ذلك، أننا نجد صناعة حديدية متقدمة استُخدمت في صناعة الأسلحة والأدوات والمستلزمات المنزلية. عندها لم تعد مليحة مستوطنة معزولة، بل غدت مجتمعاً متصلاً، يزخر بالحرفيين، يتنفس التجارة، وتُنسج في يومياته حياة روحية عميقة.

وخلال زياراتي المتعددة إلى مليحة، أصغيت بانتباه إلى علماء الآثار، وقرأت كتبهم، ودرست تقاريرهم المنشورة بعناية فائقة. لقد تركني عمق أبحاثهم، ودقة حفرياتهم، ووضوح تفسيراتهم مبهورة، ومع ذلك ظلّت في داخلي حيرة مقلقة.

فعلى الرغم من القبور المتقنة، والهياكل المعقدة، واللقى الوفيرة، يبقى لغزاً محيّراً أن معظم القبور في مليحة فارغة. هذا الغياب يثير أسئلة أكثر مما يقدّم أجوبة. فلمن بُنيت هذه القبور؟ هل كانت مخصّصة لحكّام أو كاهنات أو نساء ذوات نفوذ محا الزمن أسماءهن؟ هل احتوت يوماً على ملكات، أو أمهات، أو جدّات عظيمات أسهمن في تشكيل حياة المستوطنة؟ وإذا كان كذلك، فلماذا اختفت أجسادهن ومقتنياتهن؟ أهي مسروقة؟ ضاعت؟ أم أُخفيت عمداً؟ إن صمت هذه القبور لا يُقلّل من قيمتها، بل يضاعف غموضها: كم من النساء جرى تكريمهن بآثار تضاهي آثار الملوك؟ أين ذهب القوم؟ ولماذا لم يُعثر على بقايا بشرية في معظم المدافن؟ أكانت قد نُهبت في العصور القديمة؟ أم جرت طقوس شملت الحرق أو عادات دفن اندثرت؟ أم أن العوامل البيئية محت آثار الأجساد عبر آلاف السنين؟

تُحرّك هذه الأسئلة العالقة شيئاً أعمق في داخلي، وفضولاً متقداً يدفعني إلى البحث عن الحيوات المخبّأة خلف الحجارة، وعن الحكايات المستترة خلف تلك اللقى. مَن كانوا هؤلاء الذين شَيَّدوا قبورهم بهذا الإتقان، وزيّنوا موتاهم بالكنوز، وروّضوا الماء في قلب الصحراء، ورسموا ملامح مستقبلهم على ظهور الجمال؟

تظل مليحة، وستبقى، حكاية تُعاد قراءتها مع كل كشف جديد؛ لكنها أيضاً موطنٌ للصمت، وفضاءٌ للفراغ المهيب. إنّها تهمس إلينا عبر الزمن، لا بما تكشفه فحسب، بل بما تختار أن تحجبه أيضاً.

أحجار الذاكرة:

علامة الرمح الثلاثي وطقوس العبادات في الحضارات القديمة

في مليحة أيضاً برز لغز ثانٍ، ليس في قبر ولا في معبد، بل في بستان نخيل مهجور. هناك، وُجد داخل خزان ماء قديم شبه منسي صخر جيري ضخم، نُقش على سطحه المستوي رمز ثلاثي، أشبه برمحٍ ثلاثي، يجاوره تجويف سطحي محفور على جانبه.

للوهلة الأولى، بدا وكأنه مجرد حجر موسوم. غير أنّ الرمز لم يكن وليد المصادفة؛ إذ يظهر الرمح الثلاثي ذاته على نقود «أبيئيل» (Abiel) (سأناقشها بمزيد من التفصيل لاحقاً) التي ضُربت في مليحة بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثالث للميلاد، كما وُجد أيضاً على صخرة أخرى في مدحاء بعُمان، بل وعلى ختم أُخرج من أحد قبور حقبة مليحة في العين. وسواء بدا النقش كحرف يوناني مختصر، أو كرمز مرساة مستعار من النقود السلوقية، أو كان ابتكاراً محلياً خالصاً، فقد اكتسب في مليحة دلالات أعمق. ويرجّح بعض الباحثين أنّه لم يكن مجرد إشارة لاسم أو دار لضرب عملة، بل رمزاً لمملكة، أو عشيرة، أو حتى إله.

أما التجويف المحفور في الصخرة، فقد زاد الأمر غموضاً. فقد عُثر على مثل هذه الانخفاضات في الأحجار التي كانت تُستخدم في الشعائر التعبدية بموقع الدور الأثري القريب - في أم القيوين، حيث وُجدت على كتل حجرية داخل معبد، بل وحتى على تمثال نسر كان يحيط بالمحراب. ومن غير المرجّح أن تكون هذه التجاويف معدّة للطحن أو الاستخدام الميكانيكي، بل تشير إلى استعمال طقوسي.

ويرى علماء الآثار في هذه الصخرة بمليحة خصائص «البيتيل» (baetyl) - الحجر المقدّس الذي كان يُبجَّل في جزيرة العرب قبل الإسلام. وقد وصف هشام بن الكلبي في كتابه كتاب

الأصنام (القرن الثامن الميلادي) مثل هذه الممارسات: أحجار تُنصب قائمة، يُطاف حولها في مسيرات طقوسية، وتُقدَّم لها القرابين من طعام وشراب أو دماء، وتُعامل كما لو كانت كائناً حياً. فبالنسبة إلى الذين عظّموها، لم تكن هذه الأحجار جمادات صامتة، بل كائنات خليقة بالتعظيم، ومنح البركة، لتغدو جسراً يصل العابدين بالإله. بعض هذه الأحجار كان بسيطاً غير مشذّب، فيما بدا بعضها الآخر منقوشاً أو منتصباً إلى جوار مذابح، شاهدةً على طقوسٍ وأسرارٍ عميقة.

تكشف مليحة والدور معاً عن مدى انتشار هذا التبجيل للأحجار في العصور القديمة. ففي معبد «المنطقة (م)» في الدور، تشير الكتل ذات التجاويف، وأحجار «البيتيل» ذات الرؤوس المدببة، وحتى أكوام الحصى النهرية، إلى طقوس تعبدية متجذّرة في نسيج الحياة اليومية. بعض هذه الأحجار جُلب من قبور قديمة وأُعيد استخدامه في محاريب جديدة، وبعضها جُمع ووُضع في جرار، ربما لاستخدامه في طقوس البركة أو الشفاء أو حتى الاستسقاء.

ولم تكن هذه الممارسة حكراً على جزيرة العرب؛ ففي أرجاء المشرق القديم، كانت الأحجار تُكسى، وتُحمل في المواكب، وتُقرن بالآلهة. ففي إميسا، جُسّد إله الشمس «إيلا جبل» في حجر مقدس وصل إلى روما، وفي قبرص عُبدت أفروديت في صورة صخرة مخروطية بسيطة، أما النيازك فاعتُبرت هدايا سماوية، وجسوراً بين السماء والأرض.

وفي مليحة، قد يكون حجر الرمح الثلاثي قد انتصب يوماً في محراب مفقود، حاملاً رمزية مألوفة وغامضة في آن. وفي المنطقة نفسها عُثر على صفيحة نذرية صغيرة من الفضة، منقوشة بعناية ومهداة إلى الإلهة اللات، ما يعزّز فرضية أن هذه الأرض كانت مقدسة. كانت الصفيحة صغيرة الحجم، منقوشة بعناية، وتحمل إهداءً إلى اللات - إحدى أبرز الأصنام المعبودة في جزيرة العرب قبل الإسلام، والتي ارتبطت بالخصوبة والحماية والوفرة. وغالباً ما كانت هذه الألواح النذرية تُقدَّم كقرابين، وتُترك في المحاريب طلباً للبركة أو الشفاء أو إنفاذ النذور. أمّا كونها مصوغة من الفضة - لا من مادة أكثر شيوعاً كالحجر أو الطين - فيشي بمكانة هذا النذر، ويلمح إلى أنّ عُبّاد مليحة قدّموا للات هدايا نفيسة، دلالةً على ما حظيت به من تبجيل وهيبة.

كانت اللات من أعظم الآلهة في العصر الجاهلي، فقد عُبدت على نطاق واسع في أرجاء الجزيرة وسوريا، وشكّلت مع العُزّى ومناة ثالوثاً أنثوياً مهيباً. ويُترجم اسمها غالباً إلى

«الإلهة» وحسب.

ارتبطت اللات بالخصوبة والوفرة والحماية، وغالباً ما قُدّست في صورة أحجار «بيتيلات» أو مذابح أو محاريب. ويصف هشام بن الكلبي في كتاب الأصنام أن للات مزاراً عظيماً في الطائف، كانت تُقدّم فيه القرابين ويُطاف حول صخرتها. وتشير المكتشفات الأثرية من جنوب شرق الجزيرة، مثل الألواح النذرية المنقوشة باسمها، إلى أن عبادتها وصلت أيضاً إلى هذه الأصقاع.

كل ذلك يعكس رسوخ تبجيل العرب إلهات قويات، واستمرار ممارسة عبادة الأحجار التي ربطت الألوهية بالمكان نفسه. ومع ذلك، يبقى الرمز الثلاثي لغزاً عصيّاً: أكان شعاراً ملكياً؟ أم علامة قبلية؟ أم رمزاً لإله؟ قد لا نعرف أبداً. لكن الحجر نفسه يهمس بزمنٍ لم تُدوَّن فيه العقائد على ورق، بل على الصخر، حين طأطأ أهل هذه الأرض رؤوسهم لا للملوك والأسلاف وحدهم، بل أيضاً للأحجار التي آمنوا بأنها تحمل الحضور والقوة والذاكرة.

وحتى اليوم، يكفي أن تلامس سطح ذلك الحجر لتستشعر ديمومةً صامتة؛ تذكاراً بأن الأرض ما زالت بآثارها المقدّسة، وإن ظل أكثرها بلا أثر ظاهر.

لقد وقف حجر الرمح الثلاثي في صمتٍ يغاير قبور مليحة. فبينما أفصحت القبور - بهياكلها الباذخة وعمارتها المتقنة - عن خواءٍ صادم: حجرات فارغة، وغياباً حيث كنّا نترقّب حضوراً، ظلّ في هذه الصخرة المنقوشة حضورٌ لا يغيب. صار الحجر ذاته جسداً نابضاً، ووعاءً للذاكرة.

وربما كان ذلك هو التوازن الخفي: فحيث لم يترك الموتى أثراً في قبورهم، خطّ الأحياء ولاءهم في الصخر. تلك التجاويف المنحوتة، وعلامات الرمح الثلاثي، والمواضع القريبة من المذابح والمعابد - جميعها كانت قرابين للدوام. فإذا كانت العظام تعجز عن البقاء، فإن الحجر ينهض مقامها، حاملاً ذاكرةً لا تبلى.

وهكذا تذكّرنا مليحة أن الغياب والحضور ليسا نقيضين، بل مرآتين تعكسان حقيقة واحدة. تحدّثت القبور عن الفناء: عودة الإنسان إلى التراب خالي الوفاض. وتحدّثت الأحجار الصامدة في وجه الزمان عن الاستمرارية: أن شيئاً ما يبقى دوماً، منقوشاً في الأرض ذاتها. معاً يشكّلان يقيناً واحداً - أن الذاكرة لا تسكن الجسد وحده، بل تستقر في الأرض، وفي الرموز التي ننحتها، وفي الأحجار التي اصطفاها أسلافنا ليكرّموها.

الأهرامات الخفيّة في البوسنة

خلال إحدى زياراتي إلى مليحة، رافقني سمير «سام» عثمانوفيتش، عالم الآثار الذي يُعدّ - في نظر كثيرين - مكتشف أهرامات البوسنة وأول من استكشفها. كنت قد زرتُ من قبل أهرامات فيسوكو في يونيو 2022، وهناك التقيت سام وزوجته سابين. وقد استقبلاني بحرارة في منزلهما لاحتساء الشاي، وقضينا ساعات غارقين في حديث ممتع عن الأهرامات وعلم الآثار، وهما موضوعان يشكّلان بوضوح جزءاً كبيراً من حياة سام وشغفه.

كرّس سام عقوداً طويلة من عمره في دراسة أهرامات المايا بأمريكا الوسطى. لكن خلال رحلة إلى وطنه الأم، زار بلدة صغيرة تُدعى فيسوكو، تبعد نحو 35 كيلومتراً عن سراييفو. وهناك لمح مشهداً غريباً: جبلاً مكسوّاً بالغابات بدا ذا شكل هرمي متماثل. قد يبدو الأمر، لأول وهلة، ضرباً من الخيال أو الوهم، غير أنّ عين سام المدرّبة وخبرته العميقة بفنون بناء الأهرامات جعلته يعتقد أنه أمام شيء استثنائي.

وبدافع فضوله، استحصل سام على إذن من الحكومة البوسنية لبدء التنقيب. وما أعقب ذلك كان اكتشافاً أشعل جدلاً عالمياً، ولفت الأنظار بقدر ما أثار الاعتراضات. فوفقاً لعثمانوفيتش، لم يكن الأمر يتعلّق بهرم واحد، بل بمجمّع هرمي ضخم، وصفه بجرأة بأنه «أعظم مجمّع هرمي شُيّد على وجه الأرض».

ومن بين البُنى الحجرية المكتشفة، برز «هرم القمر»، الذي يُعتبر الأكبر وربما أقدم هرم مدرّج في العالم. وعلى الجانب الآخر من البلدة ارتفع «تل فيسوتشيكا»، الذي أطلق عليه اسم «هرم الشمس»، بارتفاع يبلغ 720 قدماً، أي أعلى بكثير من هرم خوفو في الجيزة. كما سُمّيت تشكيلات أخرى مجاورة بـ«هرم الحب»، و«هرم التنين»، و«معبد أمّ الأرض». ويرى عثمانوفيتش أن هذه المجموعة تعود إلى ما يقارب 12,000 عام، أي أقدم بآلاف السنين من أهرامات مصر.

ولم تقف الاكتشافات عند هذا الحد؛ ففي محيط المنطقة، اكتشف سام نظاماً غامضاً من الأنفاق يُعرف باسم «رافنة»، يقع على بُعد نحو 2.5 كيلومتر من «هرم الشمس». في

البداية، اعتُبرت أنفاق رافنة مجرد كهوف طبيعية، إذ بدا مدخل الكهف كأنه ثقب عادي في جانب التل، لكن مع استمرار أعمال التنقيب، تبيّن أنها أنفاق مشيّدة بيد الإنسان، مُحكمة التصميم ومليئة بسمات غامضة يصعب تفسيرها، حتى صارت تُصنّف واحدة من أكثر شبكات الأنفاق إثارة للجدل في العالم.

بطبيعة الحال، أثارت هذه اكتشافاته جدلاً واسعاً. فقد رفض كثير من العلماء وخبراء الآثار في التيار السائد ما أعلنه عثمانوفيتش - وما زالوا يرفضونه - بحجّة أن تلك التلال ذات الشكل الهرمي ليست سوى تكوينات جيولوجية طبيعية. ووصف النقّاد نظرياته بأنها «علم آثار زائف» أو تخمينات من تيار «العصر الجديد». غير أن سام يُصرّ على أن الرفض نابع من عزوف المجتمع العلمي عن إعادة كتابة التاريخ المألوف.

ومهما بلغت حدّة الانتقادات، تبقى حقيقة لا يمكن إنكارها أنّ هذه الأنفاق قد شُيّدت بيد الإنسان. فقد قدّم سام أدلة مؤرخة بالكربون، وبالتحديد أوراقاً يابسة احتُجزت بين ألواح حجرية، يعود تاريخها إلى أكثر من 12,000 عام.

ولو صحّ هذا، لكانت أهرامات البوسنة أقدم من أهرامات الجيزة، وهو ادعاء أزعج عدداً كبيراً من علماء المصريات والمؤرخين، حتى إن بعضهم لم يتردّد في وصف الاكتشاف الجديد بالخدعة.

وما أثار دهشتي، بعيداً عن جدل الأوساط الأثرية، هو الأثر الذي خلّفه وجودي داخل الأنفاق ذاتها. فقد قضيتُ نحو ساعةٍ في «رافنة»، أتأمّل بهدوءٍ تحت الأرض. كان الجو ساكناً على نحو مذهل، يكاد يكون علاجياً؛ وهو إحساسٌ لم أشعر به في أي موقع تاريخي آخر. في الواقع، يُقال إن كثيراً من الأشخاص ذوي الأمراض المزمنة أو المُنهكين جسدياً يزورون هذه الأنفاق طلباً للراحة، وبعضهم يؤكد أنهم شعروا بتحسّن ملحوظٍ في صحتهم.

لقد كان حقاً شرفاً ومتعة أن أستكشف الأهرامات البوسنية الغامضة وأخوض مع سام في تاريخها المركّب والمثير للجدل. وسواءً جرى الاعتراف باكتشافاته عالمياً أم لا، فإن عمله لا يزال يتحدّى التفكير التقليدي ويُلهم عدداً لا يُحصى من الباحثين والفضوليين والساعين وراء المعرفة والاستطلاع مثلي.

وفي وقت لاحق من ذلك العام، أخبرني سام بأنه سيزور الإمارات. شعرتُ بحماس بالغ لاستقباله في بلادي، وعلمتُ أن مليحة ستكون المكان الأنسب لاستضافته. أعددت له

جولة أثرية خاصة، رُتبت بعناية لتواكب ميوله، وعندما أرسلت له البرنامج، غمرته السعادة إلى حد أنه طلب أن يُصوّر فيلماً وثائقياً قصيراً خلال الزيارة ليعرضه على موقعه الإلكتروني. وقد وافقت على الفور، ورتّبنا أن يرافقنا مصوّر فيديو خلال الرحلة.

ومع اقتراب الموعد، ظلّ سؤال وحيد يلحّ عليّ: ماذا إن سألني سام عن أمر لا أعرف جوابه؟ أردت أن أكون مستعدة تماماً لذلك؛ فاستخرجت كل الكتب التي أملكها عن مليحة، وانغمست في مادّتها من جديد، أقرؤها بنهمٍ وفضولٍ أعمق من أي وقت مضى.

وفي أثناء ذلك البحث استوقفتني فقرةٌ مدهشة جعلتني أتوقّف في مكاني.

ففي كتاب «مليحة: التاريخ غير المكتوب»، لمؤلفيه صباح جاسم ومارغريته وهانز-بيتر أوربمان، وقعتُ على فقرة قلبت تصوّراتي عن مليحة رأساً على عقب. كانت تتحدث عن العملات التي عُثر عليها في الموقع: «إن من أبرز ما يثير الإعجاب العملات التي استُخدمت داخل هذه المنظومة الاقتصادية؛ إذ كانت تُضرب محلياً وتحمل على أحد وجهيها صور الإسكندر الأكبر، بينما استُبدلت الأحرف اليونانية التي كانت تُشكّل اسمه بنقشٍ آرامي يقرأ «أبيئيل». وقد اعتُقد في البداية أن هذا الاسم يعود إلى أحد الحكّام أو الملوك، غير أنّ الرأي الراجح الآن يشير إلى أنه قد يكون إشارة إلى سلسلة من الحاكمات. وهكذا يبدو أن سلالة من الملكات قد حكمت مليحة والمناطق المحيطة بها. ولا يُعرف في تاريخ جنوب شرق الجزيرة العربية وجود ملكات من قبل، وإن كانت النصوص الآشورية قد أشارت إلى عددٍ من الملكات في شمال الجزيرة، كما أن الملكة الشهيرة بلقيس في جنوب غرب الجزيرة تظل شخصية ذات صيت عالمي».

قرأت الفقرة مراراً. اجتاحتني الحقيقة كموجةٍ هادرة: ربما لم تكن مليحة مجرد مملكةٍ عادية، بل مملكة حكمتها النساء.

لقد أذهلني ذلك. ففي كل ما أنجزت من أبحاث على مر السنين، وفي كل المحاضرات، والكتب، والأفلام الوثائقية التي تابعتها، لم يطرح أحدٌ هذه الفرضيّة بهذا الوضوح. مملكة نسائية في قلب الجزيرة العربية! لماذا لم يتعمّق أحدٌ من قبل في بحث هذه الفرضيّة؟ ولماذا لم تُطرح هذه النظرية الثورية على السطح الإعلامي أو الأكاديمي؟

لم أستطع كبح جماح حماسي، فهرعت إلى والدي، فهو مؤرخ شغوف كرّس جانباً كبيراً من حياته لتوثيق تراث هذه المناطق. قرأت عليه الفقرة، وصوتي يشتعل بالدهشة والأسئلة.

سألته وأنا في حالة من عدم التصديق: «لماذا لم يبحث أحد هذا الموضوع بعمق؟ لماذا لا يتحدث عنه أحد؟».

ابتسم لي بحكمته الهادئة المعهودة، وردّ بعبارة لن تفارقني ما حييت: «كانوا ينتظرونك».

استقرت كلماتُه كشرارة في قلبي. في تلك اللحظة تجمّعت كل خيوط المشهد: شغفي بكشف الحكايات، والسنوات التي قضيتها بين أطلال مليحة الصحراوية، والفضول الذي لا يهدأ ويدفعني لطرح أسئلة لم يجرؤ غيري على طرحها.

ما بدا لي حينها مجرد اكتشاف أثري، صار دعوةً أعظم لإعادة كتابة السردية، وإلقاء الضوء على نساءٍ ربما صَغْن حضارةً عريقة، واستعادة مكانتهنّ في التاريخ. وربما لم تكن ملكاتُ مليحة ينتظرن مؤرخاً أو باحثاً فحسب، بل كنّ ينتظرن مَن يروي قصتهنّ بإجلالٍ ومحبّة.

الملكات الراقدات في صمت مليحة

بطبيعة الحال، لم يغمض لي جفن في تلك الليلة. كان عقلي مشغولاً كل الانشغال بملكات مليحة. مَن كنّ؟ كم واحدةً منهن حكمت هذه الأرض العريقة؟ ما أسماؤهن، ما حكاياتهن، وما إرثهن؟ كانت الأسئلة تدور في رأسي كعاصفةٍ صحراوية. لماذا لم يكتب أحد عنهن؟ ولماذا يظل التاريخ صامتاً عن أمرٍ بهذه الروعة؟

إن اكتشافاً بهذا الحجم كان جديراً بأن يستحوذ على اهتمام الكثير من علماء الآثار الذين نقّبوا في مليحة على مدى العقود الأربعة الماضية. ومع ذلك، لا نرى شيئاً من ذلك: لا أبحاث منشورة، ولا نظريات، ولا أسماء. لا شيء سوى صمتٍ متجاهل. وكانت كلمات والدي - «كانوا ينتظرونك» - هي المفتاح لفهم السبب.

فقد كان جلّ علماء الآثار الذين عملوا في مليحة رجالاً. وربما لم يلامسهم تصوّر «المملكة النسائية» بالطريقة ذاتها التي لامستني. ربما لم يروا ما رأيت، ولم يشعروا بما شعرت. فهذا الكشف لم يثر حماسي فحسب، بل أوقد ناراً في داخلي. وربما كان ذلك هو المغزى. ربما كانت هذه مهمتي منذ البداية: أن أكشف قصصهنّ، وأن أكتب أسماءهنّ في سجل التاريخ حيث طال غيابهنّ.

بدأتُ أربط خيوط تجاربي الماضية. أيمكن أن يكون هذا هو المعنى الأعمق خلف الرسالة التي سمعتها يوماً وأنا أقف على منحدرات كلباء: «أخبروهم أنّها هنا؟» أكان ذلك الهمس القادم مع الريح يشير إلى ملكة مليحة؟

أيمكن أن يكون هو نفسه اللغز الذي لمح إليه جدّي منذ سنوات طوال حين كنت أتأمّل على عرشي؟ لا زلت أذكر كلماته بوضوح: «ستكتشفين أمراً سيغيّر التاريخ إلى الأبد. لكنك لن تجديه في الكتب، بل في الأرض».

خفق قلبي بقوة فيما بدأت قطع الأحجية تصطفّ أمامي. كان عقلي يركض بالاحتمالات، بالنظريات، وبالرؤى عمّا قد يكون مدفوناً تحت رمال مليحة وصخورها - في انتظار لحظة الكشف. لم أعد أطيق صبراً لبدء هذه الرحلة الاستكشافية. كانت ملكات مليحة يناديني، وكنتُ على أتم الاستعداد لتلبية النداء.

وقبل أن أشرع في أبحاثي الخاصة، كنت قد وعدت سام بجولة شخصية في مليحة. ففي صباحٍ عليل، التقيت به وبزوجته سابينا في مركز زوّار مليحة. ورغبةً مني في أن أقدّم تجربة شاملة وثرية، دعوت اثنين من ألمع خبرائنا: عيسى، عالم الآثار المتخصّص، وأجمل، عالم الطبيعية المتعمّق، وكلاهما من الخبراء العاملين بالمركز. وهما بدورهما وجّها الدعوة إلى برونو أوفرليت، عالم الآثار البلجيكي المرموق الذي كرّس سنوات طويلة من عمره في كشف أسرار مليحة.

كان برونو قد قَدِم إلى مليحة لأول مرة في نوفمبر 2015، على رأس فريق بلجيكي من المتاحف الملكية للفنون والتاريخ في بروكسل. وكانت مهمتهم التنقيب في القبور الضخمة المتناثرة عبر الموقع. ولسوء الحظ، وكما هو الحال غالباً مع القبور القديمة، كان معظمها قد نُهب عبر القرون، مما جعل من الصعب تحديد تواريخ دقيقة أو استخلاص الكثير من محتوياتها. غير أن الفريق - رغم خلوّ هذه القبور من الرفات البشرية - عثر على شظايا من جرار رودوسية مختومة تعود إلى الفترة ما بين 167–165 قبل الميلاد، وهو ما ساعد في تأريخ بناء القبور إلى النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد.

كانت هذه القبور مشيَّدة على نحو لافت. إذ تضمّ كل منها حجرتين للدفن تحت الأرض، يُدخَل إليهما عبر سلّم منحوت أو ممر منحدر. وفوق الأرض، ارتفع بناء علوي يضمّ حجرة داخلية ومنصّة صغيرة ملاصقة للواجهة الشمالية، في تصميم متقن يجمع بين الطابع الطقسي والرمزي.

غير أنّ هذا التنقيب أسفر عن كشف فريد من نوعه.

ففي قلب أحد القبور، عثر برونو وعيسى على لوح كبير من الجص الجيري يحمل نقشاً ثنائي اللغة - بالآرامية وبالخط العربي الجنوبي القديم «المسند».

كانت الآرامية، اللغة المشتركة في ذلك الزمن، تُستخدم على نطاق واسع في التواصل عبر المنطقة، فيما خُصّص الخط المسند، المعروف أيضاً باسم «زبور»، للنصوص الدينية والنقوش اليومية في جنوب الجزيرة العربية.

وكان عيسى، الملمّ بالخط العربي الجنوبي القديم، قد ترجم النقش بعناية، فجاء فيه: «هذا نَفَس وقبر عمود بن جرّ، مُفتّش ملك عُمان، وقد بناه ابنه عمود بن عمود بن جرّ، مُفتّش ملك عُمان».

ما تزال هوية آل «عمود» غامضة؛ فقد يكونون كهنة أو عرّافين أو كتبة أو مسؤولين رفيعي المكانة - لكن الشواهد المتوفرة لا تكفي للجزم بذلك. غير أن لقب «مفتّش ملك عمان» يوحي بأن المتوفّى كان يتمتّع بسلطة مرموقة وحضور بارز في بلاط عصره.

ويبدأ النقش بعبارة «نَفَس وقبر». وكلمة «نَفَس»، ومقابلها (breath) بالإنجليزية، فُسّرت هنا كتذكار روحي للميت. وقد وُجدت صيغ مشابهة في قبور الأنباط بمدائن صالح، حيث يرى بعض الباحثين أن «النفس» ترمز إلى روح المتوفّى أو ذاته. وفي الثقافة اليونانية القديمة، كان الاعتقاد قائماً بأن مجرّد نطق اسم الميت يمكن أن يعيده للحياة لحظة قصيرة - وهي فكرة تضيف بُعداً مؤثراً إلى مغزى هذه النقوش.

وقد صُنّف اللوح بأنه «حَسائيّ»، لتشابهه في الخط والأسلوب مع النقوش التي اكتُشفت في واحة الأحساء شمال شرق الجزيرة العربية، وهو ما يشير إلى وجود صلات ثقافية وتجارية بين هذه الأقاليم البعيدة.

ومن المهم الإشارة إلى أن كلمة «عُمان» الواردة في النقش لا تعني سلطنة عُمان التي نعرفها اليوم، بل المملكة العُمانية القديمة التي ظهرت في خريطة بطليموس باسم Omanum Emporium. وتعود أقدم الإشارات إليها إلى القرن الأول الميلادي، في مصادر كلاسيكية مثل الطواف حول البحر الإريتري (Periplus Maris Erythraei)، والتاريخ الطبيعي (Naturalis Historia) لبليني الأكبر، وكلاهما يذكر «عُمانة» كميناء مزدهر.

ومع ذلك، حين نتأمل الخريطة الحديثة، نجد أن مليحة تقع بعيداً عن الساحل. وهذا ما دفع علماء الآثار إلى ترجيح أن المملكة العُمانية القديمة امتدّت من داخل مليحة وصولاً إلى المناطق الساحلية. ومن بين هذه المواقع، يُرجَّح أن يكون موقع «الدور» - الواقع في إمارة أم القيوين اليوم - هو الميناء البحري لمليحة. فالأدلة الأثرية تربطه بمليحة ارتباطاً وثيقاً، وتشير إلى أنه كان مركزاً تجارياً محورياً، يسهّل حركة السلع والأفكار بين الداخل والعالم الخارجي.

وبينما كنت أقف هناك أصغي إلى برونو وعيسى وهما يناقشان أهمية النقش، سرح ذهني أبعد، نحو موقع الدور الساحلي. فإذا كانت مليحة قد شكّلت يوماً جزءاً من المملكة العُمانية القديمة، فلا شك أن الدور كان شريانها إلى البحر، وميناءها وبوابتها، وشاهدها الصامت على صعود إمبراطوريات الصحراء وسقوطها.

كنت قد زرت «الدور» من قبل، لكن لم أنظر إليه من هذه الزاوية. يقع هذا الموقع

بالقرب من مدينة أم القيوين الحديثة، ويُعدّ من أكبر وأهم المواقع الأثرية في شبه الجزيرة العربية، ممتداً على مساحة تتجاوز خمسة كيلومترات مربعة، وكان يعجّ بالحياة خلال القرون الأولى قبل الميلاد وبعده، كما تشهد بذلك آلاف القبور والمساكن واللقى المكتشفة بين جنباته.

وعلى عكس مليحة، التي قامت في الداخل محاطة بسهول خصبة مثالية للاستقرار والزراعة، منح موقع الدور الساحلي ميزة استراتيجية للتجارة البحرية. فقد كشف علماء الآثار عن جرار نبيذ رومانية من حوض المتوسط، وزجاجيات رومانية، وعاج هندي، بل وحتى عملات وصلت من الإمبراطورية الرومانية وشبه القارة الهندية. وكلها شواهد على استيطان كوزموبوليتاني نابض بالحياة، شكّل محوراً للتجارة العالمية.

وفي قلب «الدور» ينتصب معبد مهيب، يُرجَّح أنه كان مكرّساً لإله الشمس «شمش». شُيّد المعبد من حجر المرجان المحلي، وجاء تصميمه متأثراً بالطرز الهلنستية والعربية الجنوبية، في دلالة على تمازج الأنماط المعمارية والثقافية، كما تشهد النقوش المكتشفة في مليحة. في الواقع، كانت الروابط أوضح من أن تُنكر.

وكلما تعمّقت، ازدادت الصورة وضوحاً أمامي. فمليحة، بقبورها الضخمة ونقوشها الآرامية، ربما مثّلت مركزاً روحياً وسياسياً، بينما كان «الدور» يؤدي دور المركز الاقتصادي والبحري، ليشكّلا معاً شطرين لمملكة متطورة: إحداهما متجذّرة في اليابسة، والأخرى منفتحة على البحر.

ومع ذلك، ظلّت هناك قطعة مفقودة.

لم يُعثر في مكتشفات الدور على أي ذكر للملكات. لا أسماء نساء منقوشة، ولا تصاوير لملكات، ولا إشارات جلية إلى مملكة حكمتها النساء. ومع ذلك، إذا كانت مليحة قد حُكمت فعلاً بسلالة من الملكات - كما لمّحت العملات - فلا بد أن حضورهن قد امتدّ إلى كل ركن من أركان مملكتهن، بما في ذلك «الدور».

وقد أثار هذا سؤالاً جديداً: هل جرى محو قصة الملكات عمداً؟ أم أنها لم تُلحظ ببساطة، ودفنت في الرمال، تنتظر أحداً - مثلي - يطرح الأسئلة الصحيحة لكشف الأسرار المخبأة تحت الرمال؟

لم يعد الأمر مقتصراً على المقابر أو التجارة، بل أصبح بحثاً عن الأصوات التي طمرها

الزمن. أصوات النساء اللواتي نقش نفوذهن يوماً على الحجر وصُهر في المعدن، ثم طُمر تحت قرون من الصمت. وربما - فقط ربما - كان إرثهن أوسع مما تخيّلنا: من عروش مليحة إلى شواطئ الدور المشمسة.

وفجأة غمرني إحساس أعمق بالهدف الأسمى. لم يكن هذا مجرّد بحثٍ أثري، بل كان نداءً لأسير في الدروب المنسية للملكات القديمات، أن أصل الخيوط المبعثرة بين الجبال والبحر، أن أعيد قصتهن إلى الحياة.

وهكذا واصلت رحلتي - نفساً إثر نفس، نقشاً إثر نقش، وملكة منسيّة تلو الأخرى.

وعند عودتنا إلى مليحة، بدأنا الجولة وشرحنا بعضاً من تاريخها لضيوفنا الاستثنائيين. وفيما شمس الصباح ترسل خيوطها الذهبية على السهول، اتجهنا نحو قاعة العرض التي تضم إحدى أروع مكتشفات مليحة: عملاتها القديمة. كان خبراؤنا المتخصصون يقفون بفخر، وأصواتهم مشبعة بالإجلال، وهم يشرعون في الكشف عن قصة حضارة أكثر تعقيداً وسيادة مما كان يظن الكثيرون.

قال عيسى، وقد تردّد صدى صوته في قاعة العرض: «لم تكن مليحة مركزاً للطقوس الروحية والحراك الفكري والمعرفي فحسب، بل كانت أيضاً محوراً تجارياً مزدهراً».

وأشار إلى لوحة كبيرة تعرض عينات من العملات والأدوات التي استُخدمت في سكّها. فتوقفنا أمام لوح مسطّح بلون رملي، يمثل قالباً لسك العملة المحلية، عُثر عليه في حصن مليحة. وما زالت تفاصيله المحفورة واضحة رغم مرور القرون في باطن الأرض. كانت زخارف الطوابع المكرّرة تمتد على سطحه، كما لو كانت بانتظار أن تُبعث من جديد في هيئة عملات مضروبة حديثاً.

مال سام وزوجته سابينا بفضول ليستمعا، بينما أضاف أجمل: «تم الكشف هنا عن مبنيين محصّنين كبيرين - نعتقد أن أحدهما كان قصراً، والآخر حصناً استخدم معقلاً ومركزاً للإدارة في آن واحد».

فقلتُ، وقد غلبني الحماس: «الأكثر إثارة هو أنه داخل ذلك الحصن بالذات، عثر علماء الآثار على شظايا من قوالب سكّ النقود، وهو دليل قاطع على أن مليحة كانت تسكّ عملتها الخاصة».

لم يكن سكّ العملات مجرد ضرورة اقتصادية، بل إعلاناً عن هوية وقوة واستقلال

سياسي. وعلى عكس المناطق المجاورة التي اعتمدت عملات أجنبية، كانت مليحة تؤكد سيادتها وتسكّ نقوداً تعكس مكانتها الفريدة في العالم القديم.

أكثر من 300 قطعة نقدية اكتُشفت داخل الحصن، صنّفت في ثلاث فئات وزنية: الأوبول، والدرخمة، والتيترادراخما. كانت الدراخمة الفضية تحمل صورة هرقل مرتدياً جلد أسد نيميا، بينما ظهر على الوجه الآخر زيوس جالساً على عرشه، وقد انتصب نسر على يده الممدودة.

لكن التيترادراخما -المصنوعة من خليط النحاس والفضة- هي التي أسرت انتباهي أكثر من غيرها. فإحدى هذه القطع، على رغم من تأثرها الواضح بالطرازات الهلنستية، فقد حملت انحرافات دقيقة لكنها بالغة الدلالة. فعلى الوجه الخلفي، أسفل عرش زيوس، لم يكن ثمة رمز يوناني تقليدي، بل حصان - نقش يرتبط أكثر بالجزيرة العربية. وعلى يسار زيوس، نقش بالآرامية: «أبيئيل».

تمتَمْتُ بالاسم كأنني أفشي سرّاً: «أبيئيل».

ثم التفتُّ إلى المرشدين قائلة: «قرأتُ أن مليحة ربما كانت مملكة تحكمها النساء... وأن بعض العملات التي تحمل اسم أبيئيل قد تشير إلى حاكمة أنثى. هل هذا صحيح؟».

أومأ برونو، الذي كان يتابع بصمت، إيماءة قصيرة وقال باقتضاب: «نعم، على الأرجح». ثم حوّل مسار الحديث.

كنت مذهولة. أهذا كل شيء؟

قطعة نقدية منقوشة باسم آرامي - اسم امرأة - ضُربت في تحدٍّ للإمبراطوريات المحيطة، في دلالة على وجود ملكة حاكمة في مليحة - ويُتعامل معها كملحوظة عابرة؟

لماذا لم ينبض قلب أحد آخر بالحماسة كما نبض قلبي؟

في تلك اللحظة، انكشفت لي حقيقة الأمر: لم آتِ إلى هنا لأتعلّم التاريخ فحسب، بل لأعيد كتابته.

كانت العلامات تحيط بي من كل جانب كشذرات من سيادة منسيّة، وهمسات من قوة مطمورة في أعماق الأرض. قد لا يحمل اسم «أبيئيل» اليوم وزناً يُذكَر في عيون العالم، غير أنّه ربما كان يوماً يعني كل شيء لشعبٍ اختار أن تحكمه ملكة.

وربما - فقط ربما - قد آن الأوان لأن ينهض اسم هذه الملكة من تحت الرمال من جديد.

ثم انتقلنا إلى المعرض الأخير في مركز الزوّار، وهو فضاء ساكن يفيض بالإجلال والرهبة معاً. وقد خُصِّص هذا القسم للحيوانات التي سارت يوماً إلى جانب حكّام مليحة ومحاربيها: الخيول والجمال. لم تكن هذه الحيوانات مجرّد رفقاء أو وسائل للسفر، بل كائنات حظيت بمكانة رفيعة وتكريم خاص، حتى إنها، في أعمق صور الإخلاص والوفاء، كثيراً ما ووريت الثرى مع أصحابها في طقسٍ عُرف باسم «البليّة».

أوضح عيسى أن هذه العادة تعود إلى حقبة ما قبل الإسلام. فلم تكن «البليّة» مجرد ممارسة جنائزية، بل كانت قرباناً رمزياً، وتعبيراً عن علو المكانة والوفاء واستمرارية الصلة بين الأحياء وعالم الأرواح. وفي منطقة تقع إلى الجنوب من الحصن، كشف علماء الآثار عن بقايا حصان وجمل دُفِنا في ملحق صغير إلى جوار قبرٍ كان يوماً لأحد النخبة - وقد نُهِب لاحقاً. غير أنّ شيئاً واحداً نجا من النهب: لِجام الحصان المزيَّن بأقراص ذهبية كبيرة، ما زال يلمع بخفوت تحت الرمال، كأنه يحرس ذكرى سيّده.

وأضاف عيسى: «لم تكن هذه حيوانات عادية. بل رموزاً للقوة، وامتدادات لمكانة أصحابها».

وفي أحد مواقع الدفن، كُشف عن حصانين واثني عشر جملاً - تسعة أحادية السنام وثلاثة هجائن - رتّبت بعناية في دائرة حول قبر مركزي. وكان حجم هذا القربان كافياً ليؤكد، بما لا يترك مجالاً للشك، أن المتوفى كان شخصية رفيعة المقام من نخبة مليحة، وربما حتى من سلالتها الملكية.

شعرت بقشعريرة تسري في جسدي. أكانت هذه مراقد ملكات؟ أم جنرالات؟ أم كاهناتٍ سرنَ يوماً في مواكب تحت ضوء القمر عبر ليل الصحراء؟

أما سام، الذي ظل صامتاً لبعض الوقت، فقد بدا غارقاً في تفكير عميق، وقد تبدّلت ملامح طاقته ونحن نتقدّم نحو قبر أم النار - ذلك البناء الدائري العائد إلى العصر البرونزي، المتفرّد في تصميمه ورمزيته.

انجذب إليه سام على الفور؛ فالأحجار المتهالكة، والنقوش الباهتة، والصمت المهيب الذي يلف المكان، كل ذلك جعله يبدو كأنه معبد منسي. جثا سام إلى جوار قمة القبر، حيث كان قد نُحت مجرى طويل في الحجر.

وقال: «لا بدّ أنّ هذا المجرى خُصِّص لطقوس السَّكب، نوع من الصبّ الطقسي... ربما

ماء أو زيت».

أومأنا برؤوسنا. فبرغم غياب النصوص، كانت الدلائل المعمارية واضحة لا تقبل الشك. لقد مارس أهل مليحة طقوساً مقدسة، ربما كانت شعائر لاستحضار الأرواح، أو توسلات إلى الأجداد، أو قرابين رمزية تُقدَّم إلى العالم الآخر.

ثم أشار سام إلى فتحة مستطيلة صغيرة قرب قاعدة القبر وسأل: «وما هذا؟».

كانت الفتحة أضيق من أن يزحف عبرها إنسان. ومع ذلك، كانت المدخل الوحيد المرئي - أو لعلها لم تكن مدخلاً أصلاً؟

قال بصوتٍ متمهّل: «أيمكن أن تكون مخرجاً؟ للروح، ربما؟».

ساد الصمت.

تبادلنا النظرات، ثم عدنا نتأمل العتمة خلف الحجر. كانت فرضيته منطقية. لم يكن مدخلاً للأحياء، بل عتبة للأموات، أو منفذاً تنسلّ منه الروح إلى العالم الآخر.

وتحت العتبة، ظهرت ثلاثة نقوش مميّزة، باهتة، تكاد تكون قد مُحيت بمرور الزمن. كل واحد منها بدا أشبه برمز غامض، مزيجاً من لغة وتعويذة وشيفرة، ضاعت معانيها في طيّات الزمن، غير أنّ شيئاً فيها بدا مقصوداً، كرسالة تنتظر قارئاً يملك من البصيرة ما يكفي لفكّ شفرتها.

مرّر سام أصابعه المغطاة بالقفاز برفق فوق الرموز وقال هامساً: «كانت الطقوس هنا عميقة... لعلها كانت تغيّر بالإنسان من حالٍ إلى حال».

هبت ريح الصحراء، وللحظة تخيّلت أصوات الماضي تعبر من تلك الفتحة الصغيرة. تخيّلت ملكات يمتطين جمالهن نحو الحياة الأخرى، متلفّعات بالذهب والعزم، يعبرن من الأرض إلى الخلود وإلى جانبهن رفقاء أوفياء.

وربما لهذا كنتُ مشدودة دائماً إلى مليحة، لا لأكشف عن تاريخها فحسب، بل لأصغي إلى صمتها، ولأفكّ شيفرة الحكايات المنقوشة في العظام والحجارة، وفي الفراغات بين الكلمات.

بدأ الآخرون يسيرون عائدين نحو مركز الزوّار، لكنني تمهلت لحظة أخرى، أحدّق في الرموز الثلاثة المنقوشة.

ربما كانت مفتاحاً. ربما أن الماضي لم يندثر، بل ظلّ مشفّراً ينتظر من يفكّ رموزه.

وربما لم تكن الرسالة موجّهة إلى علماء آثار يحملون أدوات ونظريات، بل إلى من تستطيع أن تستشعر الحقيقة في أعماق كيانها ومكامن روحها.

وبعد مغادرتنا مركز الزوار، اتجهنا لزيارة قصر مليحة. وحتى في حالته المتهدّمة، كان حجمه المهيب يثير الدهشة. بدا الهواء أثقل هنا، مشحوناً، كأن الأرض نفسها تتذكّر ما لا نذكره نحن.

كانت أربعة أبراج حراسة شامخة تنتصب عند كل زاوية من زوايا القصر، تحرس أسرار حكّامه. ومع أنّ الزمن حوّله إلى أساسات حجرية وجدران متهدّمة، بقيت ملامح مجده القديم شاخصة للعيان: ممرات طويلة، وغرف متعدّدة، وساحات فسيحة، وشرفات مظلّلة لا بدّ أنّها كانت تلتقط نسمات الريح في أيام الصحراء الحارّة. وبين هذه الأطلال، يستحيل على المرء ألّا يلمس ثِقل الحيوات التي جابت يوماً هذه الأروقة.

وبينما كنا نتجوّل في الغرف المنقّبة، أخذ الماضي يكشف نفسه شذرة إثر أخرى.

في هذا الموضع كُشف عن مقتنيات فاخرة: حُليّ ذهبية بديعة الصنع، وقلائد من خرز ملوّن، وفخاريات مدهشة الإتقان جُلبت من بلاد الرافدين والهند. لم تكن هذه مجرد أدوات يومية عادية، بل رموزاً لعلو المكانة والهيبة، انتقاها بعناية من أدركوا قيمتها - لا من الناحية الاقتصادية وحدها، بل من الناحية الرمزية أيضاً. لقد نطقت هذه اللقى بالتجارة، وبالاتصال، وبسطوة النفوذ.

وفي منطقة المطبخ رأينا أكثر الاكتشافات إثارة للدهشة: أكوام من الأسماك المجففة - براكودا، وبونيتو، وتونة. ويبدو أنها كانت آثاراً لوليمة لم تُؤكل قط. وبالقرب، دلّت البقايا المتفحّمة على كارثةٍ حلّت هنا: أقمشة استحالت رماداً، سلال اسودّت وتشقّقت، أخشاب احترقت وتهشّمت، حبوب قمح وشعير التحمت في كتل سوداء، عناقيد عنب وتمر تفحّمت في صمت، وعدس ولوز تناثر كقرابين في طقسٍ انقلب إلى فاجعة.

لقد وقع حريق هنا.

ولم يكن مجرد نار طبخ أو حادث عرضي، كان دماراً - مفاجئاً، متعمداً، شاملاً، شيئاً عنيفاً قد وقع في هذا المكان.

وقفنا صامتين لبعض الوقت، نترك لرائحة الرماد والزمن أن تتسرّب إلى مسامنا. والسؤال الذي طارد أجيالاً من علماء الآثار أخذ يتردّد في ذهني: ماذا جرى لمدينة مليحة

المفقودة؟

لم يكن أحد يعرف. لكن الأرض كانت تتذكر.

لاحقاً، صعدنا إلى ما كان يوماً شرفة القصر العليا. من هناك، امتد الأفق في طيات ذهبية - كثبان وسهول تلمع تحت شمس أغسطس.

وقف سام إلى جواري، يحدّق بعيداً بعينين نصف مغمضتين، ثم قال: «هذا المكان... يذكّرني بقصر ملكة سبأ».

كانت الكلمات كالصاعقة. ارتجفتُ بإحساس عميق، بحدس داخلي من نوع خاص. ففي كل مرة يزورني هذا الشعور، أجد شيئاً عتيقاً يتحرّك في أعماقي - اعترافٌ بحقيقة طالما كانت ماثلة أمام العيون، لكنها ظلت محجوبة عن الإدراك.

سألتُه بصوتٍ خافت: «أتظن أن هذا قد يكون قصر ملكة مليحة؟».

توقف سام لحظة، ثم أومأ ببطء: «ربما... فملكة سبأ قد حكمت في مكان غير بعيد من هنا. غير أنّ التاريخ غالباً ما يميل إلى تفضيل الملوك؛ فنحن ننسى أنّ نساءً كثيرات بسطْن سلطانهنّ على هذه الأرض كملكاتٍ حاكمات. لكننا لم نكشف بعدُ عن كل قصصهنّ».

عدتُ أنظر إلى الأطلال، التي كانت يوماً تزهو بالألوان والضحك والطقوس والهيبة. ورسم خيالي صورةَ ملكةٍ تجلس على عرشٍ عريض منقوش، وعملات تحمل اسمها، وقوافل تأتيها بالهدايا من الهند وبلاد الشام. امرأة صاحبة رؤية وبصيرة ثاقبة، تحيط بها المستشارات والكتبة والحراس. حاكمةٌ لا لمدينة فقط، بل للأفكار والدبلوماسية والثقافة.

وربما جاء الحريق من غيرة. أو من خوف. أو من خيانة.

وربما، فقط ربما، لم يضِع اسمها، بل اختبأ في البقايا المتفحمة، وفي الرموز المنقوشة على القبور، وفي الريح التي لا تزال تهمس بين الأطلال.

نظرتُ إلى سام وقلت: «إن كان هذا قصرها، فهي إذن لم تفقد، وإنما تنتظر أن تُستعاد في الذاكرة».

ابتسم ابتسامة خفيفة وقال: «فلنستعِدها إذن».

الفصل السادس

أصداء الملكات المنسيّات

بعد صباح غامرٍ بين الأطلال والاكتشافات، لجأنا إلى مطعم قريب، غير مدركين أن اكتشافنا التالي لن يأتي من باطن الأرض، بل من اسم. اخترنا أن نتناول الغداء في مطعم يحمل اسم «ماوية». جلستُ مع سام، وسابينا، وبرونو، وعيسى، وأجمل إلى طاولة مضاءة بنور الشمس قرب النافذة، وثيابنا مشبعة بعطر الحجارة العتيقة وهواء الصحراء. كنّا لا نزال نُمعن التفكير في ما رأيناه - قبور مليحة، وأطلال القصر الغامضة، وصدى الملكة الذي ظل يهمس في أرجاء المكان.

وبينما كنا ننتظر الطعام، انساب حديثنا من المكتشفات الأثرية إلى الأساطير، ومن طرق التجارة القديمة إلى بريق الأقراص الذهبية التي وُجدت في مدفن حصان. وكان سام، على وجه الخصوص، في غاية الحماسة؛ تتلألأ عيناه بالحيوية وهو يتحدث عن رغبته في أن ينشر تأملاته على موقعه الإلكتروني، ليشارك أسرار مليحة مع العالم.

وحين فرغنا من الطعام، مددت يدي إلى الفاتورة وأنا أعي ضيق الوقت في جدولنا المزدحم. تقدّم المدير يسأل عن رأينا، ثم قال بصوت مفعم بالفخر: «أتريدون أن تعرفوا قصة اسم هذا المطعم؟».

قلتُ بلطف، وأنا أحسب الوقت المتبقي لنا للانتقال إلى الموقع التالي: «في الحقيقة، ليس لدينا وقت».

لكن سام قاطعني بهدوء وفضول: «في الواقع، أود أن أعرف القصة، إن لم تمانعي».

ابتسمتُ بخجل: «بالطبع... تفضل».

أشرق وجه المدير وقال: «حين بدأنا الإعداد لهذا المطعم، أردنا اسماً يعبر عن روح هذا المكان. بحثنا في تاريخ الشخصيات العظيمة التي مشت على هذه الأرض - وبرز لنا اسم ماوية». توقف لحظة يتأمل وجوهنا، ثم أضاف: «هل تعرفون من هي الملكة ماوية؟».

تبادلنا نظرات حائرة وهززنا رؤوسنا بالنفي.

فواصل حديثه: «ماوية كانت ملكة عربية قديمة حكمت هذه المنطقة قبل قرون عديدة».

ارتخت فَكَّاي من شدّة الدهشة. فما إن نطق بكلمة «ملكة» حتى غُرسَ شيءٌ عميق جذوره في قلبي. التفتَ سام إليّ، وعيناه الزرقاوان تتلألآن كبريق رجلٍ عثر للتو على قطعة مفقودة في أحجية.

شكرنا المدير وغادرنا المطعم. ركبت السيارة وما زلت مأخوذة، والاسم يتردّد في ذهني كإيقاع طبل لا يهدأ: ماوية... ماوية...

وبينما كنا نسير، أخرجت هاتفي غير مصدقة تماماً ما سمعت. كتبت: «من هي الملكة ماوية؟».

وهناك كان المنعطف - البوابة التي ستقودني إلى بحثٍ أوسع عن ماوية وسواها من الحاكمات اللواتي سأمضي في تتبّع أثرهن.

ملكات كلهن حكيمات، جسورات، قويات.

الملكة ماوية

اكتشفت لاحقاً أن الملكة ماوية - المعروفة أيضاً باسم ماوية السَّرَسَنية - قد حكمت في القرن الرابع الميلادي، زعيمةً مهيبة لاتحاد قبائل التنوخيين. ورغم أن مملكتها قامت بعيداً عن مليحة، فإن صدى حضورها تردّد في أرجاء الجزيرة العربية كرجع بعيد.

كانت قبائل تنوخ قد انطلقت أصلاً من شرق الجزيرة، ثم هاجرت شمالاً إلى بلاد الرافدين والشام في القرن الثالث الميلادي. وبحلول زمن ماوية، تمركز نفوذهم في جنوب سوريا وأجزاء من الأردن المعاصر، حيث كانت حلب حصنهم المنيع. ومن هناك، قادت محاربيها في ثورة ضد روما، ومدّت نفوذها عبر أطراف الجزيرة العربية إلى فلسطين وحتى حدود مصر.

وبعد وفاة زوجها الملك الهواري، نهضت ماوية زعيمةً عسكرية وروحية في عصر نادراً ما أفسح مثل هذا الدور للنساء. ومن صحارى جنوب سوريا إلى سواحل الشام، قادت تمرّداً ضد الإمبراطورية الرومانية - تمرّداً ناجحاً إلى درجة أن الرومان اضطروا للتفاوض على السلام. لم تكن «ماوية» ملكة محاربة وحسب، بل قائدة بارعة تقود جيشاً من القبائل البدوية شديد الولاء والصلابة.

لم تولد ثورتها من فوضى، بل من غاية سامية. وقفت دفاعاً عن الاستقلال والكرامة، وعن معنى يتجاوز السلطة. قاتلت، ثم عقدت السلام - ولكن بشروطها. فقد اشترطت في مقابل إنهاء التمرد أن يُعيَّن أسقف مسيحي من اختيارها لشعبها؛ إذ كانت قد اعتنقت المسيحية، وأصرّت على قيادة روحية تنسجم مع قيم قومها. فوافق الرومان.

كانت ماوية تمتطي صهوة جوادها في مقدمة جيشها، تبرم الصفقات السياسية، وتحمي قبيلتها. ثم اختفت فجأة من صفحات التاريخ بصمت، وكأن قصتها كانت أعلى صوتاً مما يحتمله المؤرخون.

ولو لم يكن ذلك إشارة من الكون، فما عساه يكون؟

أدهشني كم هو سهل أن نُسقط إرث القيادة النسائية. ففي عالمنا العربي اليوم، حيث القرارات تُصاغ في غرف يغلب عليها الرجال، يبدو تصور امرأة حاكمة أمراً أقرب إلى

الأسطورة. غير أن طبقات ماضينا تروي قصة أخرى: ملكات محاربات، دبلوماسيات، بانيات مدن، وحاميات للمعتقدات والحرية.

تساءلت: هل نسينا تاريخنا، أم أن هناك من علّمنا أن ننساه؟

وبرغم أنني لم أكن أعلم كل ذلك خلال الرحلة بالسيارة، فإن شيئاً قد تغيّر عندما رفعت عيني والتقطت صورتي منعكسة في زجاج النافذة. لم أستطع تسمية ما شعرت به بدقة، لكن حتى من خلال بحث سريع على الإنترنت، بدا الأمر كأن شيئاً سُلِّم إليّ - شعلة خفية انتقلت عبر القرون.

ربما لم تُدفن هذه القصص.

ربما كانت تنتظر.

تنتظر أن نصغي إليها من جديد.

لم نكن نبحث سوى عن مكان لنتناول فيه طعامنا - لكن ما وجدناه كان مفتاحاً لملكة أخرى منسيّة، مخفية في وضح النهار.

وما زلت مأخوذة بتلك المصادفة - أو ربما التوقيت الإلهي - لاكتشاف قصة الملكة ماوية في مطعم يحمل اسمها، لم أستطع أن أتجاهل الخيوط غير المرئية التي كانت تشدّني إلى نسيج من القوة الأنثوية المطموسة.

وفي أثناء سيرنا بعيداً عن مطعم «ماوية»، جلست صامتة في المقعد الخلفي، غارقة في تأملاتي. هاتفي ما زال في يدي، وأصابعي بدأت تلقائياً تكتب: «الملكة زنوبيا».

إن كانت ماوية قد قادت الجيوش وتفاوضت مع الأباطرة، فماذا عن زنوبيا - ذلك الاسم الذي تردّد همساً في النصوص القديمة وهوامش الكتب؟ هل كانت فصلاً آخر في هذه السلسلة النسائية المنسيّة من الحاكمات؟

وبينما غمرتني تأملات في الملكة ماوية وأصداء الملكات البعيدات، وجدتني أحدّق عبر نافذة السيارة إلى الكثبان الرملية المترامية. لكن ما رأيته آلمني: سيارات تشقّ أخاديد على منحدرات الصحراء، محركاتها تعوي حيث كان يجب أن يسود الصمت. عائلات تترك خلفها بقايا نزهات ونيراناً مشتعلة، وضحكاتٍ لا تبالي بحرمة الأرض التي تحملهم. فالصحراء - موطن الصلاة، وأرض مشى عليها الأولياء، وأصغى فيها الأسلاف - صارت تُعامل كما لو كانت فراغاً.

ومع ذلك، وبرغم الندوب، شعرت أن الأرض ما زالت تتنفس - تنتظر أن نتذكر، تنتظر أن نعود إليها بإجلال.

الملكة زنوبيا

لم تكن الملكة زنوبيا - الزبّاء بالعربية - أسطورة، بل قوة من قوى الطبيعة. وُلدت سبتيما زنوبيا في القرن الثالث الميلادي، وحكمت الإمبراطورية التدمرية بعد اغتيال زوجها الملك أذينة. لم تكتفِ بوراثة السلطة، بل وسّعتها بجرأة وطموح. وفي أوج حكمها، سيطرت زنوبيا على إمبراطورية امتدت من سوريا الحالية عبر فلسطين ومصر وأجزاء من تركيا المعاصرة. كانت طموحاتها تضاهي طموحات قياصرة روما، ولبرهة مشرقة قصيرة، حكمت كياناً ينافس روما نفسها.

ويُذكر أنه حوالي عام 272م، أعلنت استقلالها عن الإمبراطورية الرومانية وضربت عملات تحمل صورتها - تماماً كما فعلت أبيئيل في مليحة. أفكان ذلك صدى آخر لنمط يتكرر عبر رمال الجزيرة العربية؟

لم تكن زنوبيا مجرد ملكة؛ بل كانت عالمة مثقفة، تتقن اليونانية والآرامية والمصرية، وكانت راعية للفلسفة والأدب، تحيط نفسها بالمفكرين وأصحاب الرؤى والبصيرة. وقيل إنها ادّعت نسبها إلى كليوباترا، ولعلها، في الجوهر والروح، كانت كذلك حقاً. غير أن زنوبيا، على خلاف كليوباترا، لم تستمد قوتها من الإغواء؛ بل من الفكر والحنكة والرؤية.

ما أدهشني لم يكن عبقريتها العسكرية ولا تحدّيها لروما فحسب، بل كيف كاد تاريخها أن يتلاشى. فقد انتهت ثورتها في منتصف عام 272م، حين زحف الإمبراطور أوريليان على تدمر وهزم قوّاتها. أُسرت زنوبيا واقتيدت إلى روما مكبّلة بسلاسل من ذهب، ولعله كان استعراضاً متعمّداً لسطوة الإمبراطورية. ومع ذلك، حتى في هزيمتها، ظلّت مهيبة، محافظة على كرامتها. وتذكر المصادر الرومانية أنها قضت بقيّة أيامها في فيلّا قرب تيفولي، حيث حظيت بالتقدير والاحترام - بل وحتى الإعجاب.

لكن اسمها، مثل ماوية، تلاشى من ذاكرتنا الجمعية. وهنا وجدتني أتساءل: لماذا؟ لماذا نسينا هؤلاء النساء اللواتي قدن جيوشاً، وتفاوضن مع أباطرة، وحكمن أراضي شاسعة، وأثّرن في الثقافة والسياسة بقدر مساوٍ، إن لم يكن أعظم، من كثير من نظرائهن الرجال؟

وبينما كنتُ أحدّق من نافذة السيارة في الرحلة الطويلة عائدين من مطعم ماوية، كان

مشهد الصحراء يتلاشى سريعاً خلفنا. ومع ما عرفتُه عن زنوبيا، أدركت أنني لم أعد أسير بين أطلال مليحة فحسب، بل أتتبع خريطة منسية - خريطة لم تُنقش في الحجر، بل في أعماق الذاكرة. ماوية، زنوبيا، ملكة سبأ الشهيرة... وربما ملكة مليحة. كانت أشباح هؤلاء الملكات تخرج من الظلال، واحدةً تلو الأخرى.

وبينما كنا نعبر الطريق الصحراوي نحو محطتنا التالية، كنت أغوص أعمق في متاهة حياة الملكة زنوبيا - رحلة امتدت لاحقاً إلى ساعات طويلة من البحث المتأني - حين استوقفتني جملة بالكاد كانت مظللة في أحد النصوص: «يروي التراث الشعبي أنّ في رأس الخيمة قصراً منسوباً إلى زنوبيا».

رمشت بدهشة. رأس الخيمة؟ لم تكن تبعد أكثر من ساعتين.

قلتُ وأنا أقطع الصمت: «دكتور سام، هل تعلم أن زنوبيا ربما كان لها قصر في رأس الخيمة؟»

استدار في مقعده باهتمام: «حقاً؟ هذا منطقي. إمبراطوريتها امتدت عبر بلاد الشام وصولاً إلى الجزيرة العربية. كان يمكنها بسهولة أن تمتلك مقرات موسمية في حصون مختلفة».

مالت سابينا إلى الأمام، متسائلة: «هل تأكد ذلك أثرياً؟».

أجبت: «ليس رسمياً، لكن هناك مرويات تراثية شفهية - أساطير تناقلتها قبائل المنطقة - عن ملكة حكمت من قصر حجري في جبال «شمل». بعضهم قال إنها الزبّاء. وبعضهم عدّها مجرد حكاية».

ابتسم سام ابتسامة عارف وقال: «لكن الحكايات... غالباً ما تكون البذور التي تولد منها الحقائق».

أثار ذكر رأس الخيمة شيئاً عميقاً في داخلي، كأن حجاباً آخر قد انزاح. لطالما ظننت أن قصص ملكات مليحة مبعثرة لا صلة بينها، لكن تبيّن الآن أنها خيوط في شبكة سلطة تمتد عبر هذه الأرض، ككوكبة من النساء الملكات اللواتي صغن ملامح المنطقة أكثر مما تخيّلنا. مليحة، تدمر، شمل... من الصحارى إلى الجبال، لم تكن هؤلاء الملكات شخوصاً من الماضي فحسب، بل ذاكرة أثرية تنتظر أن يُعاد جمعها.

تخيّلت زنوبيا واقفة على مرتفعات رأس الخيمة الصخرية، تنظر نحو الخليج، والرياح

البحرية تعبث بوشاحها. ماذا كان يجول في خاطرها؟ هل جاءت إلى هنا معتزلة بعد معركة؟ أم أنها حكمت هذه الأرض كأحد أقاليمها الجنوبية، تعقد مجالسها بين المبعوثين والتجار والعلماء تحت قاعات مسقوفة بسعف النخيل؟

عندها باغتتني الفكرة - إن كانت زنوبيا قد خطت يوماً فوق هذه الأرض، وإن كانت ماوية قد جابت رمالها في ثورتها، فلعل ملكة مليحة لم تكن أسطورة، بل حلقة في تلك السلالة المنسيّة.

لم تكن هؤلاء النساء استثناءً، بل كنّ خيطاً أمومياً منسوجاً في نسيج العرب القديم - خيطاً فقدناه، أو جرى محوه عمداً.

عمت السيارة لحظة صمت. لكنه لم يكن فراغاً هذه المرّة، بل صمتاً مُثقلاً بوعي جديد. لم نكن مجرد زوّار مواقع، بل كنا نسير في خطى ملكات.

وفي أعماقي، عادت الهمسات من جديد: «أخبروهم أنها هنا».

تابعنا جولتنا، وختمنا المساء بجلسة حول نارٍ متّقدة عند غروب الشمس في مليحة. كان الضوء الآفل يصبغ الصحراء بالذهب، ويلقي على الرمال أطيافاً من لهب وظل. جلسنا في صمت، نرقب الأفق وهو يبتلع الشمس ببطء. وكان في الجو شيء عتيق - شيء سرمدي. تبادل سام وسبينا نظرة ثم التفتا إليّ وإلى الأرض، وأجمعا في هدوء على أن في هذا المكان سحراً فريداً.

قلت لهما فجأة، وبصوت فاجأني أنا نفسي: «عليّ أن أحمي هذا المكان».

التفت سام إليّ بفضول: «ماذا تقصدين؟».

قلتُ بصوتٍ خافت: «إن أرواح الأجداد في ضيقٍ شديد، أستشعر غضبهم من الطريقة التي تُدنَّس بها هذه الأرض المباركة اليوم. لا يرضيهم هدير المحركات الذي يمزّق سكون الكثبان، ولا السباقات الرعناء التي تعبث بمواطن راحتهم. ولا يرضيهم أن يقيم الناس مخيمات بغير توقير وبلا مراعاة لحرمة المكان، يتركون وراءهم نفايات وحطباً ورماداً - منثورة في مكان كان يوماً مقاماً للطقوس، للسكينة، وللصلاة».

توقفتُ، وقلبي يخفق على نحو مختلف، كأنما ينبض بشيء أعمق. قلت: «هذه الكثبان ليست مناظر جميلة فحسب، إنها ذاكرة. إنها عظام وأنفاس وغبار الذين سبقونا. كل حبة رمل شاهدة، ومع ذلك نتعامل معها كساحة لعب».

أحسست بألم حاد وغير متوقّع في صدري، كأنني أحمل حزناً ليس لي. شعرت بآلامهم - ألم الأجداد - كما لو أنه استقر في الهواء ووجد طريقه إليّ. لم يكن غضباً خالصاً، بل توسّلاً.

نظر إليّ سام وسابينا بعطف، وقد بدا التأثر جليّاً عليهما. همست سابينا: «أنتِ على حق... هذه الأرض تتذكّر».

وأضاف سام وهو يثبت عينيه في عينيّ: «ستعرفين ما عليكِ فعله».

جلسنا هناك قليلاً، حيث كانت ألسنة النار تتطاير بخفوت، نغتسل بدفء النار وبثِقل شيء أقدم منّا جميعاً. وفي تلك اللحظة، غدا الأمر جليّاً: هذه الرحلة لم تكن عن استكشاف الماضي فحسب، بل عن حمايته أيضاً.

في صباح اليوم التالي، دخلت مكتبي وعقدت اجتماعاً مع كبار موظفي هيئة الشارقة للاستثمار والتطوير (شروق). حضروا دون أن يعرفوا السبب.

أخذت نفساً عميقاً ثم شرعت أقول: «لا أعرف حقاً كيف أقول هذا». نظروا إليّ بصبر، مستشعرين ثِقل كلماتي. تابعت ببطء: «إنني أحمل رسالة... من أسلاف هذه الأرض».

تبدّلت ملامحهم - بين الحيرة والفضول والاحترام.

وتابعت: «علينا أن نحمي هذه الأرض من الزائرين الذين يقودون سياراتهم بتهوّر فوق الكثبان. بأصوات محركاتهم المدوية، ويُفزعون الحياة البرية ويُزلزلون الرمال؛ ومن المخيّمين الذين يتركون وراءهم القمامة من بلاستيك، وبقايا طعام، وشظايا زجاج مكسور، وأكوام رماد، ثم يمضون غير آبهين. لا احترام للأرض، ولا للطبيعة، ولا لأولئك الذين وطِئوها قبلنا».

شعرتُ بالألم مجدداً - حاداً، عتيقاً، يتردّد في صدري كقرع طبول آتٍ من زمنٍ سحيق. قلتُ بصوتٍ متهدّجٍ بالعزم: «علينا أن نفعل شيئاً لحماية هذه الأرض المباركة».

جلس فريقي في صمت. ثم قال أحدهم بهدوء: «بالتأكيد... ماذا علينا أن نفعل؟».

قلت دون تردّد: «نُغلقها، ونحوّلها إلى محمية طبيعية».

تدفقت الكلمات منّي كما لو كانت مقيمة في داخلي منذ الأزل، تنتظر هذه اللحظة بالذات. وكلما مضيت في الحديث، ازداد كل شيء وضوحاً، بصفاء ملحّ يخفق مع كل جملة.

قلت: «هذا موقع أثري عريق، تختبئ تحت رماله طبقات من التاريخ تعود إلى آلاف السنين. وهو في الوقت نفسه ملاذ لتنوّع الصحراء الحيوي: حشرات نادرة، نباتات صامدة، ثعالب وغزلان بريّة. وما هو أبعد من ذلك، فإن هذا المكان حيّ بحضور الأرواح... الحُرّاس غير المرئيين الذين ما زالوا يسكنونه».

أومأ فريقي برؤوسهم، وقد بدا التأثر على بعضهم بوضوح. أعلنوا دعمهم دون تردّد، وتعهدوا أن يشرعوا في إعداد خطة - خطة تحمي مليحة، وتكرّم تاريخها، وتحدّ من الوصول إليها بما يصون الطبيعة والروح معاً.

وحين نهضتُ للمغادرة، شعرت بحضور الأسلاف من جديد - لكنهم لم يكونوا يهمسون بالتحذيرات هذه المرّة، بل يراقبون بصمت، وبصبر.

قلت بصوت مسموع: «سيكون الأجداد سعداء» ثم غادرت القاعة.

مليحة في حلة جديدة

ما كان يوماً مجرّد ساحة صحراوية مهمَلة، تحوّل اليوم إلى «منتزه مليحة الوطني»، إلى ملاذٍ للسكينة والذاكرة والمعنى، إلى مكانٍ يُسمع فيه حفيف الريح أوضح من هدير المحركات، حيث لا أثرَ سوى لخطى العلماء والباحثين والرحّالة المتأملين المفعمين بالاحترام.

أضحى الدخول إلى الموقع منظَّماً بعناية؛ ولّت أيام القيادة الطائشة فوق الرمال والتخييم اللامبالي. فالزوار يصلون الآن عبر مسارات محدَّدة، يقودهم علماء آثار وخبراء طبيعة ورواة حكايات، يرافقونهم في رحلة عبر طبقات الأرض العتيقة بإجلال. لا تزال جمالية الكثبان البرية تبعث الحياة في الأرواح، لكن الفوضى تلاشت، وحلّ محلّها المعنى والغاية.

باتت الجولات التعليمية في صميم تجربة مليحة. فمجموعات المدارس تجتمع تحت أروقة مظلَّلة لتتعلّم عن قبور العصر البرونزي، وحصون العصر الحديدي، والأسرار المدفونة في الرمال الحمراء. لم يعُد الأطفال يركضون في الصحراء فقط؛ بل صاروا يتجذّرون فيها، ويتعلمون أن ينظروا إليها لا كأرض خاوية، بل كمهْدٍ للحضارات.

اليوم، يتجوّل الزوّار بين مواقع أثرية جرى ترميمها بعناية: مقابر جماعية لقبائل قديمة، أطلال قصور لا تزال تنبض بأنفاس الملكات، مواقد نار طُهيت عليها أسماك مجففة في زمن بعيد، وأدوات حجرية بقيت كأصداء من عصر آخر. وفي أرجاء المحمية تنتشر الإرشاد والمتاحف لتعليم الزوّار من غير أن تعبث بجمال المشهد الطبيعي. كل خطوة محسوبة، وكل كلمة تُنطق تُقال بإجلال.

وعادت الطبيعة هي الأخرى إلى التنفّس. أطلت ثعالب الصحراء من جحورها، وتفتّحت النباتات النادرة التي طالما سُحقت تحت عجلات المركبات، وحتى سماء الليل فوق مليحة بدت أصفى، بلا أضواء صناعية تُعكّر صفوها، وكأن النجوم نفسها تبسط حمايتها على أرض وُلدت من جديد.

لا يزال الزوار يأتون، لكنهم يأتون بإيقاع مختلف الآن: أبطأ وأعمق سكوناً. يجيئون

وقلوبهم مثقلة بالأسئلة، وأحذيتهم تحمل شيئاً من الرمال. يأتون لا ليتسلّقوا الكثبان، بل ليصغوا إليها. وهكذا، حين يغادرون، يحمل كلٌّ منهم في داخله شيئاً من روح هذه الأرض، شيئاً نقيّاً لا يُلمس، كأنها سرٌّ أودعته فيهم الصحراء.

كثيراً ما أعود إلى مليحة في الأمسيات. أسير في الدروب وحدي، أو أنضم إلى جولة بصمت، أصغي إلى كلمات المرشدين وأتأمل تفاعلات الزوّار. وأحياناً يخيَّل إليّ أنني أستحضر حضور الأسلاف من جديد - لا غاضبين، بل مطمئنين. همساتهم صارت أخفّ، تكسوها نبرة رضا وسكينة، فالأرض التي أنهكتها اللامبالاة من قبل بدأت الآن تستعيد عافيتها.

وفي مساء آخر، حين غاصت الشمس وراء الأفق وصبغت الكثبان بلون الذهب المنصهر، وقف إلى جانبي عيسى وأجمل من جديد.

قال أجمل بصوت خافت: «لقد فعلتِ ما كان ينبغي فعله».

«لا»، أجبتُ وأنا أراقب الظلالَ تمتدّ على الأرض، «الأرض هي التي فعلت. أنا فقط أصغيتُ إليها».

لكن الرحلة لم تنتهِ عند مليحة. فما زال هناك جبل فاية، الجبل الصامت العريق الحيّ، حيث وُجدت الأدوات الأولى. هناك، تردّدت خطى البشر الأوائل عبر الزمن، واحتُضنت حكايات أقدم من الذاكرة ذاتها.

كنت أعلم، في أعماقي، أنّ لهذه الأرض روحاً فريدة - وأنها لا تستحق الحماية فحسب، بل الإجلال والتوقير أيضاً. وكنت أدرك أن صونها يقتضي أن ندعو العالم لرؤية ما رأيناه نحن. وكان ذلك يعني أمراً واحداً: تسجيلها على قائمة التراث العالمي لدى منظمة اليونسكو.

لم يكن ذلك عملاً يسيراً، بل مهمّة جبّارة.

بدأتُ أعمل عن قرب مع فريقنا الأثري - أشخاصٌ لامست أيديهم الأدواتَ الحجرية التي صُنعت قبل أكثر من مئتي ألف عام. جمعنا كل شظيّة من الأدلة: تقارير علمية، سجلات حفريات، خرائط مواقع، بيانات مناخية. لكن ما جمعناه لم يكن حقائق وأرقاماً فحسب، بل حقيقة أعمق: تكريم مكان يحمل ثِقل رحلة الإنسان الأولى.

ثم انطلق ذلك المسار الطويل الشاق من الجهود الدبلوماسية.

سافرتُ إلى باريس مراراً، وجلستُ مع المندوبين الدائمين في لجنة التراث العالمي. رويت لهم قصة جبل فاية - لا الأثرية وحدها، بل الروحية أيضاً. تحدّثت عن البشر الأوائل الذين عبروا أنهاراً من خُضرة حيث لا يُوجد اليوم إلا الرمال، عن الأدوات التي تركوها، وعن مواقد النار التي أوقدوها، وعن الرياح التي همست فوقهم في الليل.

أصغى بعضهم. وأعرض آخرون. لكنني واصلتُ، لأنني لم أكن وحدي. كنت أشعر بالأسلاف يسيرون بجانبي في كل ممرّ، يجلسون في صمت في كل قاعة اجتماع. كنت أحمل أصواتهم في صدري، وهم يذكّرونني لماذا عليّ أن أستمرّ في الكلام.

وأخيراً جاء اليوم المنشود.

كانت الجلسة في مقر اليونسكو بباريس، في مدرّجٍ كبير يلفّه الوقار والاحتفاء الرسمي. كل مقعد بدا مثقلاً بالهيبة. جلس المندوبون القادمون من أصقاع العالم متأهّبين، بأقلامهم وسماعات الترجمة في آذانهم، يتداولون في مصير مواقع تختزن أرواح حضارات كاملة. حاول فريقي أن يأخذ مقاعده المعتادة في الصفوف العليا المخصّصة للمراقبين، لكن شيئاً ما كان مختلفاً، فقد أُغلِق ذلك القسم الآن، ومُنع الدخول إليه، لتُترك المقاعد خالية.

في البداية لم أفهم السبب. جلستُ في الأسفل، وقلبي يرتجف.

ثم جاءت اللحظة الحاسمة.

عندها أعلن رئيس الجلسة عن مناقشة ملف «موقع الفاية الأثري - الإمارات العربية المتحدة».

وحين بدؤوا مناقشة طلب إدراج الموقع في القائمة، رفعت بصري نحو الشرفة العليا - ذلك الجزء الذي أُغلق في وجه الزوار. وفي تلك اللحظة، ملأت مخيّلتي ذلك الفراغ. تخيّلتهم - الأسلاف - جالسين بصمتٍ في الصف العلوي، كأن المكان قد خُصِّص لهم منذ البدء. لا أعلم لماذا رأيت المشهد بهذا الوضوح، لم تكن رؤيةً روحية بل خفقةً في أعماق الذهن، ومع ذلك بدت لي كحضورٍ حقيقي.

رأيتُ وجوهاً من زمنٍ آخر، تتدثّر بأثواب منسوجة، وجوههم يعلوها الوقار والسكون. بعضهم كان يحمل عصيّاً، وآخرون سلالاً أو شفرات حجرية. كان بينهم نساءً وشيوخ ومحاربون وأطفال. ملكات وملوك. وكانت أنظارهم تتجه نحوي - لا بشيءٍ من الترقّب، بل

بشيءٍ أعظم بكثير: بثقة.

ثم جاءت لحظة القرار: «يُسجَّل موقع فاية القديم على قائمة التراث العالمي لليونسكو».

اخترقت الكلمات سكون اللحظة كبركةٍ تهبط من السماء.

وبكيت.

لم أستطع أن أوقف الدموع؛ لم تكن دموع فخر أو ارتياح فحسب، بل أنقى إحساس عرفته يوماً: الامتنان، والانعتاق، والمحبة. لم أبكِ لنفسي، بل لأني شعرت بهم - كلهم. يشكرونني. يحيطون بي. يرفعونني.

كان الأمر أشبه بأجيال من الأصوات المنسيّة تُنشد في صمت. أحسست بأيدٍ تستقر على كتفيّ، ودفءٍ يسري في صدري، ويقينٍ يتغلغل في روحي.

«لقد أوفيتِ بالعهد»، كأنهم يهمسون. «لقد أحييتِ ذكرانا».

حين خرجتُ من القاعة ذلك اليوم، بدت باريس مختلفة. السماء أصفى، الهواء أخف. رفعتُ نظري مرّة أخرى، ورغم أن الشرفة كانت الآن خالية، لكنني كنت أعلم أنهم ما زالوا معي.

فقد كانوا معي دائماً.

الفصل السابع

همس الملكات

لم تبرحني أرواح مليحة يوماً. فمنذ تلك اللحظة في اليونسكو، حين امتلأت الصفوف العليا بظلال الأسلاف الذين لم يَرَهُم أحد سواي لكنني كنت أتعرف إليهم بحدسٍ داخليّ عميق، وأنا أشعر بحضورهم يزداد رسوخاً وسطوعاً. كنت قد أوفيت وعداً واحداً، غير أن وعداً آخر كان يتشكّل في داخلي. سؤالٌ. صدى. كان يعود إليّ مراراً، رقيقاً كنسيمٍ يمرّ بين نخيل الصحراء العتيقة: ماذا عن الملكات؟

صارت أصواتهنّ الآن تصلني عبر الأحلام والرؤى. لم تكن تتحدث بكلمات، بل بإشاراتٍ وعلامات. بلمعانٍ فضيّ يبرق كالبرق في الذاكرة، بهيئة عرشٍ منقوشٍ على الرمال، بعملاتٍ تتلألأ في وهج الشمس مثل عيونٍ ساهرة تراقب من تحت الكثبان. كنت أعلم أنهنّ يوجهنني نحو شيء لم أبلغ إدراكه بعد إدراكاً تاماً.

وهكذا عدتُ إلى مليحة.

لا لمجرد الزيارة العابرة، بل للإصغاء والتلقّي. كنت أسير عبر مركز الزوار، ومتحف الآثار في الشارقة، والمختبرات الصامتة حيث ترقد شظايا حيواتٍ بعيدة خلف زجاجٍ مُنظَّفٍ ومُعنون، لكنها ما زالت تهمس وتتنفس. كانت العملات هي التي تستوقفني. لا الأسلحة، ولا الفخار. بل العملات الصغيرة، الدائرية، المهيبة. بدت حيّة، تنبض بطاقةٍ غامرة.

التقيتُ صباح، وعيسى، وأجمل، وبرونو - عقولاً متألقة درست هذه اللقى سنواتٍ طويلة. كانت رؤاهم لا تُقدّر بثمن، غير أن أحداً منهم لم يستطع أن يجزم إن كانت مليحة قد حُكمت فعلاً من قِبَل ملكات. لم يكن هناك نقشٌ يصرّح بذلك. ولا جدران قصرٍ منقوشة بأسماء ملكات.

كل ما كان لدينا هو عملات أبيئيل.

قالوا لي: «تحدّثي إلى مايكل ماكدونالد، فهو الذي تعمق في دراسة نظرية أبيئيل».

وهكذا، مثل سالكٍ يتبع أثراً خفيّاً، وجدت نفسي أقرأ بحث ماكدونالد. أمسكتُ به كأنه مخطوطةٍ ثمينة - تلك التي لا تصل مصادفةً، بل في لحظةٍ يهيّئها القدر بعناية.

نُشر بحث ماكدونالد في مجلة الجمعية الأميركية للنقود تحت title1 بدا وكأنه يلمع على الصفحة:

«عملات "أبيئيل" في شرق الجزيرة العربية: دراسة للنقوش الآرامية».

كان ماكدونالد، الخبير في الآرامية، قد رأى ما غفل عنه الآخرون. فالعملات التي عُثر عليها في مليحة تحمل نقوشاً آرامية - ليست لهجاتٍ محلية، ولا يونانية، ولا لاتينية. لماذا؟ لماذا الآرامية، لغة الإمبراطوريات؟

لأن الآرامية كانت لغة السلطة والهيبة. كانت الخيط الدبلوماسي المنسوج في أرجاء العالم القديم، من بلاد ما بين النهرين إلى بلاد الشام نزولاً إلى الجزيرة العربية. كانت لسان التجارة والمعاهدات، ولسان المراسيم الملكية. فبنقش أسمائهم بالآرامية، لم يكن حكّام مليحة يقلدون موجة سائدة فحسب بل كانوا يعلنون شيئاً جريئاً: نحن أصحاب السيادة. نحن مستقلون.

غير أن الاسم ذاته كان يجذبني إلى الأعماق أكثر: أبيئيل.

بالنسبة لكثيرين، لم يكن هذا سوى اسمٍ غامض. أثرٌ لحاكمٍ مفقود. لكن بالنسبة لماكدونالد - وللأسلاف الذين كانوا يهمسون عبر الرمال - كان الأمر أكثر من ذلك بكثير.

كتب ماكدونالد أن «أبيئيل» قد لا يشير إلى ملك، بل إلى ملكة.

كانت الصور على العملات دقيقة الإيحاء. على وجهٍ منها رأس هرقل، وعلى الوجه الآخر هيئةٌ جالسة على عرشٍ مهيب. أحياناً تمسك طائراً في يدٍ ممدودة، وأحياناً تقبض على عصا أو سعفة نخيل. كانت هناك اختلافات في التفاصيل، لكن الجوهر واحد دائماً. دائماً «أبيئيل»، منقوشة عمودياً بالخط الآرامي الأنيق، كدعاء يرتفع من حجرٍ إلى السماء.

أيمكن ذلك؟ هل كانت مليحة يوماً ما تحت حكم نساء؟

كان اليقين لا يزال يتّقد في قلبي.

أوضح ماكدونالد أن النقوش على العملات لم تكن تُكتب عادة ليقرأها الناس - فكثير من أهل العصور القديمة لم يكونوا يقرؤون أصلاً. كانت رموزاً. والرموز قوّتها عظيمة. الرموز تتكلم حين تصمت أشكال التاريخ الأخرى. كانت العملات تحمل صورة السلطة، نعم - لكنها كانت تحمل أيضاً قصدها وحقيقتها. فبنقش اسم «أبيئيل» بالآرامية، أصبحت هذه العملات أكثر من مجرّد نقود. صارت رسائل عبر الزمن، تحمل في معدنها

ذاكرة السيادة والهوية.

بدأتُ أشعر أن هذه العملات ليست مجرد لقى أثرية.

إنها أشبه بفتات خبز. تُركت لنا، وتُركت لي أنا بالذات.

طريقٌ يقود إلى عرشٍ منسي، وإلى المرأة - أو النساء - اللواتي جلسن عليه ذات يوم.

كلما قرأت أكثر، تحوّلت عملات أبيئيل في ذهني من مجرد أشياء إلى ذخائر نفسية - سجلاتٍ حيّة مشفّرة في المعدن، تهمس بحقيقةٍ دُفنت تحت قرونٍ من الرمال.

ما جعل هذه العملات مذهلة بحق لم يكن بقاءها فحسب، بل طموحها الجريء الذي تحدّى حدود الزمان والمكان. فقد صيغت بعناية تحاكي عملات الإسكندر الأكبر - الشكل ذاته، البنية
ذاتها - لكن حيث كان اسم الفاتح اليوناني يعلو بفخرٍ واستعلاء، نحت حكّام مليحة أسماءهم بالآرامية. لم يكن ذلك إعلاناً يُهمس به، بل ختماً يُطرق على المعدن بقوة، شهادةً على سيادةٍ لا تعرف التردد. لقد وضعوا أنفسهم موضع الإسكندر نفسه.

كانت كلمات ماكدونالد تتوهّج من بين السطور كشرارات: «أبيئيل تعني "الله أبي" أو "أبي هو الله"».

إعلانٌ إلهي، لقبٌ يتجاوز حدود الأسماء، تعويذة ملكية تتردّد أصداؤها من بلاد ما بين النهرين حتى تخوم الجزيرة العربية الجنوبية. أسماء منسوجة من «أب» و«إيل» - الشائعة في ملاحم بابل وآشور - شقّت طريقها إلى عقول ووجدان الحكّام في أراضي الصحراء. لم يكن الأمر مجرّد اسم، بل كان تصريحاً يكرّس حقّاً مقدّساً ويمنحه شرعية لا تزول.

قال ماكدونالد: «يتكوّن الاسم من جملة اسميّة معناها: "أب (الأب الإلهي/ أبي الإلهي) هو الله (إيل)"».

في تلك الكلمات شعرتُ كأنني كاهنةٌ قديمة تمسح جبينها تحت أفياء النجوم، تستدعي القدرة الإلهية إلى سلالتها. لم يكن حكّام مليحة قد تبنّوا الآرامية طلباً للهيبة أو لمجرّد الوجاهة، بل استخدموها لتقديس شرعيتهم. لم يكونوا حكّاماً عاديين - بل أوصياء على إرثٍ روحي عظيم.

أشار ماكدونالد إلى ملاحظة لافتة تثير الدهشة: من بين الحكّام الأربعة المختلفين الذين حملوا اسم أبيئيل، لم يُميَّز أيٌّ منهم باسمه الشخصي، بل بأسماء آبائهم وحدها.

كان ذلك لقباً عائلياً، اسمَ عرشٍ يُمرَّر عبر الأجيال كما يُمرَّر تاجٌ من لهب.

ثم جاءت اللحظة الأكثر إدهاشاً.

على هذه العملات، كان اسم «أبيئيل» يُتبع أحياناً بالحروف «ب.ر.ت» (ابنة)، وأحياناً بـ«ب.ر» (ابن). ومن بين ثلاثٍ وسبعين عملة فحصها ماكدونالد بعين العارف، لم تحمل سوى ثلاثٍ منها علامة الأبناء.

والباقي؟ بنات.

كان هناك على الأقل أربع نساء ضربن عملات بأسمائهن في شرق الجزيرة العربية:

- أبيئيل، ابنة ناصيل
- أبيئيل، ابنة ماساماس
- أبيئيل، ابنة لابيس / لاباي
- أبيئيل، ابنة باغلان

وهكذا، تحرّكت الرمال فجأة، كأن الصمت الطويل انشقّ عن صوتٍ عاصف.

ما كان همساً صار إعلاناً. لم تكن ملكة واحدة، بل أربع ملكات. أربع بنات لآباء مختلفين، توحَّدن جميعاً تحت اللقب الجليل ذاته. كل واحدة منهنّ نقشت اسمها إلى جانب الاسم الإلهي، وختمته في المعدن إلى الأبد. لقد حكمن، لا من وراء الحجب، ولا في هوامش الظلال. حكمن علناً، بجرأةٍ وفخر، تاركات للعملات أن تكون الشاهد الذي لا يُدحض.

أشعل اكتشاف ملكات أبيئيل جذوة جديدة في أعماقي، فكنت أشعر بحضورهن يتضاعف مع كل عملة تقع بين يدي، ومع كل نقش يُستعاد، ومع كل همسة غابرة تنهض من جوف الأرض كريحٍ تهبّ في فضاء الصحراء. غير أن بصيرتي أخذت تنكشف على مشهد أوسع: فمليحة لم تكن وحدها في هذا التراث المنسيّ؛ فقد عرفت الجزيرة العربية ملكاتٍ من قبل - نساءً بسطْن سلطتهن لا كاستثناءات عابرة، بل كسيّدات حكمن بحقهن الأصيل.

ملكات العرب

بينما كنت أطالع دراسة ماكدونالد، استوقفني ذكره لملكات العرب في دومة الجندل. قفزت الكلمات من الصفحة كأنها نداءٌ عابرٌ للزمن. من هنّ هؤلاء النسوة اللواتي تسلّلت أسماؤهن إلى سجلات الملوك؟ أي سلطان امتلكن في عمق الصحراء حتى تُحفظ سيرتهن في ذاكرة الإمبراطوريات؟

مدفوعةً بشغف يتعقّب خطاهن، حملت بصري شمالاً، عابراً الامتدادات الشاسعة من الرمال والصخور، نحو الممالك القيدارية العتيقة، حيث حفظت الحوليات الآشورية صدى لقاءات مع حكّام لم يكن لهم شبيه سوى أنفسهم.

وهناك، بين نقوش ألواح حجرية في مكتبات نينوى، وجدتهن.

ملكات العرب.

وصلتني أسماؤهن كإيقاعات طبول تخترق الزمن - مهيبة، شامخة، يتردّد صداها على مر العصور:

- زبيبة (738 ق.م)
- سمسي (734–716 ق.م)
- يثيعة (703 ق.م)
- تألهونو (691 ق.م)
- تبوعه (681 ق.م)
- عاديّة (قبل 652 ق.م)

ست ملكات وقفن في وجه واحدة من أعظم وأعتى الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ - الإمبراطورية الآشورية
الحديثة - ست ملكات لم يركعن.

لم يكنّ مجرّد قرينات ولا كاهنات طقوسيات، بل سمّاهن الآشوريون بوضوح وقوة: ملكات العرب. والآشوريون لم يخلّدوا إلا من رأوا فيهم خطراً يهدد وجودهم.

زبيبة، أول من ذُكرن، حكمت في زمن «تغلث فلاسر الثالث». دفعت الجزية للملك الآشوري في خطوة سياسية، لكنها كانت اعترافاً باستقلالها وسيادتها.

ثم خلفتها سمسي، الأشد إثارة للدهشة. ويُقال إنها قادت جيشاً يضم ألف جمل إلى المعركة. ورغم أن الآشوريين هزموها، ونهبوا غنائمها، فإنهم أبقوها ملكة. لماذا؟ لأن قيادتها للقبائل العربية كانت أقوى من أن تُلغى، وأعمق من أن تُمحى، وأشد حياةً من أن تُخمد.

هؤلاء النسوة حكمن قبائل، وقدن جيوشاً، وفاوضن أباطرة، وبسطْن سيطرتهن على طرق التجارة التي نبضت بالبخور والذهب والحرير. لم تكن الجزيرة العربية آنذاك طرفاً معزولاً، بل مركزاً فاعلاً، وكانت ملكاتها يجلسن على مفترق الإمبراطوريات.

ومع ذلك... بعد عاديّة، يسود الصمت.

ويسقط ظلّ كثيف على صفحات التاريخ.

لا يُذكر اسم ملكة عربية لقرون - حتى ظهور الملكات النبطيات، نصفهن في الظلال، إلى جوار أزواجهن، متربصات قرب العرش.

لكنني كنت أتعلّم أن أقرأ الصمت كما أقرأ النقوش. كنت أسمع أصواتهن في الحجارة، في العملات، في الأرض ذاتها.

وعندما تأملت عملات أبيئيل مجدداً، رأيت عربات سمسي الحربية منعكسة في قبضة اليد الراسخة للشخصية الجالسة التي تمسك بالعصا. سمعت وقع خطوات زبيبة يتردّد في وديان مليحة. لم يكنّ ملكات معزولات، بل حلقة في سلسلة متصلة - سلالة منسيّة من نساء حكمن الصحراء.

بدأت الصورة تتضح: فالقوة لم تكن دائماً لحيةً وسيفاً. أحياناً كانت تضفر شعرها، تركب الجِمال، وتكتب اسمها بالآرامية على عملات لم تستطع أي إمبراطورية أن تمحوها.

وكانت مليحة جزءاً من هذه الحكاية.

تلك العملات لم تكن شذوذاً، بل دلائل باقية، وشواهد، وشهادات ناطقة.

وبرهان.

فالصحراء لا تبوح بأسرارها بسهولة. لكنها لا تنسى. وكنت أتعلّم الإصغاء.

وبينما كنت أتتبع خطى ملكات العرب عبر الزمن، قادتني الصحراء أبعد - إلى جروف البتراء الرملية الحمراء، حيث التاريخ منقوش لا بالحبر، بل بالحجر. وهناك، بين

الواجهات الشاهقة والممرات الخفيّة، خرجت الملكات النبطيات من الظلال كأرواحٍ متجسّدة من قلب الصخر.

الملكات النبطيّات

على خلاف الملكات المحاربات من قيدار، تركت الملكات النبطيات وراءهن آثاراً أكثر خفاءً وأشد مَواربة، لكنها لا تقل قوّة ولا رسوخاً.

لم يقدن الجيوش إلى الحرب، على الأقل ليس في السجلات التي وصلتنا، لكنهن ظهرن على العملات إلى جانب ملوكهن. وذلك، في حد ذاته، كان حدثاً استثنائياً؛ ففي العالم القديم، أن تتشارك وجه عملة يعني أن تتقاسم ثِقَل السلطة وشرعيتها. وقد حملت الملكات النبطيات هذا الثقل برشاقة ملكية وثقة صامتة.

كانت أولاهن، وإن قلّما يُذكر اسمها، زوجة أوبوداس الثالث (30–9 ق.م). ظهر وجهها بجانب وجهه على العملات الفضية والبرونزية - امرأة في ثياب فاخرة، محجّبة، هادئة، تراقب شعبها من خلال بريق المعدن.

ثم جاءت شقيلاط الأولى، زوجة الحارث الرابع (9 ق.م – 40 م).
لم يُخفَ اسمها، بل نُقش بوضوحٍ جليل: ملكت نبطو - ملكة الأنباط.

كان ذلك لقباً، وكان بياناً، وكان حضوراً لا يُمحى.

تلتها هُلدَيو، زوجة ملكوس الثاني (40–70 م)، ثم شقيلاط الثانية التي حكمت إلى جانب ابنها ربيل الثاني (70–106 م). كانت هذه الملكة الأخيرة أكثر من مجرد قرينة؛ ففي بدايات حكم ابنها يُرجّح أنها هي التي تولّت الوصاية على العرش. وحين بلغ ربيل أشدّه، ظلّت صورتها محفورة على العملات بجانبه، سيّدة مشاركة في الحكم على الحجر والفضة معاً.

كانت أسماؤهن تردّد أصداء التقاليد السامية القديمة - أسماء مثل شقيلاط وهُلدَيو، متجذّرة في المشهد اللغوي ذاته الذي ولدت فيه أبيئيل وزبيبة. لم ينقطع السلسال، بل انساب عبر أخاديد الزمن المختلفة.

تُذكّرنا ملكات الأنباط بأن السلطة قد ترتدي وجهاً وديعاً، لكنها تمسك بزمام الحكم بحزم. وأن وراء حجب العصور القديمة نساءً قدن علناً - في السياسة، وفي النسب، وفي الساحة العامة. كنّ حاضرات، وحضورهن كان نِدّياً على نحو جلي.

لم تكن صورهن على العملات مجرّد بورتريهات صامتة، بل كانت بيانات شرعية.

فشقيلاط لا تقف بجانب الحارث وحسب - بل تقف معه، اسمها منقوش إلى جانب اسمه، اتحادهما موثّق لا بالزواج فحسب، بل بالحكم المشترك.

ويُقال إنه حين ابتلعت روما المملكة النبطية عام 106م بوفاة ربيل الثاني، انتهى عصر ملكات العرب.

لكنني لم أُصدّق ذلك.

فالصمت الذي أعقب ذلك لم يكن غياباً، بل ممراً مخفياً - حجرة مستترة خلف بابٍ حجري، تنتظر من يشغلها. وكنتُ أؤمن أنني أقف على عتبتها.

في أسماء أبيئيل بنت ناصل، وشقيلاط النبطية، وتألهونو القيدارية، بدأتُ أسمع جوقةً - خافتة، قديمة، تتصاعد - تنادي من أعماق أرض الصحراء. كانت هؤلاء الملكات، عبر القرون والممالك، يتحدثن من خلال الغبار، ومن خلال العملات، ومن خلال الحجارة المنقوشة.

ولم يعد بوسعي أن أشكّ: كان لمليحة ملكات أيضاً.

قد تكون أسماؤهن قد خفيت زمناً أو ربما دُفنت، أو محتها الأيام، أو غابت عن الألسن، غير أنهن ظللن حاضرات في كل خيط من خيوط الدليل. كنّ هناك، دائماً هناك، في النقش المتعمّد لحروف الآرامية، في هيئة السلطة، وفي رمزية العرش.

لقد سمعت نداءهن. ولن أتوقف حتى يسمعه العالم كله.

اختتم ماكدونالد دراسته البحثية بقوله إن الملكات اللاحقات، مثل زنوبيا التدمرية أو ماوية، الملكة المحاربة للتنوخيين، جئن متأخّرات جداً بحيث لا يساعدننا على فهم معنى هذه العملات الأقدم. لكن بالنسبة لي، كانت الأصداء عالية بما يكفي.

فلعلّ مليحة لم تكن قد عرفت الملكات فحسب - بل صيغت على أيديهن.

وأما أنا؟ فما كنتُ إلا الكاتبة التي اصطفاها القدر لتحفظ الذاكرة.

وهكذا قادتني رحلتي مع ملكات مليحة إلى حقيقةٍ مثيرة وملهمة في آنٍ واحد - حقيقة لم تُنقش بيقين، بل طُبعت في الفضة، وفي اللغة، وفي بصمات خافتة للسلطة غُرست في رمال الزمن.

وفي الصفحات الأخيرة من دراسته، طرح مايكل ماكدونالد رؤى بدت لي أشبه بصرخة تحدٍّ موجهة نحوي: «إن هذه الدراسة حول "الأبيئيلات" تثير أسئلة أكثر مما تقدّم من

إجابات!»، ثم أضاف: «لقد عرفنا الآن، استناداً إلى الأدلة المتاحة، أن هناك ما لا يقل عن أربع حاكمات في شرق الجزيرة العربية خلال القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد. ومن المرجّح جداً، وإن لم يثبت ذلك بدليل قاطع بعد، أن ثلاثاً من هؤلاء النساء حكمن في المنطقة الوسطى من الخليج، وأن المرأة الرابعة، أبيئيل بنت بَغْلان، حكمت في شبه جزيرة عُمان».

ارتفع ضباب الزمن قليلاً - بقدر ما يسمح للملامح أن تتجلّى. ملكات كان حُكمهن يُستبعَد يوماً باعتباره ضرباً من الأسطورة، أصبحن الآن واقفاتٍ بوقارٍ صامت تحت ضوء البحث الأكاديمي. لم يختفين أبداً، بل كنّ فقط في انتظار أن تُبصرهن العيون.

ثم ذكر ماكدونالد شيئاً كان أعمق أثراً من جميع النقوش والأيقونات مجتمعة - جملة كسرت صلابة الافتراضات التاريخية: «سيكون واضحاً أننا، ككُتّاب، وقعنا في الفخّ الشائع بافتراض أن حكّام الجزيرة العربية القديمة كانوا في الغالب رجالاً، كما في معظم بقاع المشرق الأخرى. لكن الجزيرة العربية القديمة مليئة بالمفاجآت، وكلما ازددنا علماً بتاريخها أدركنا أكثر أنها لا تنسجم مع النماذج السائدة في بقية أنحاء المنطقة».

تردّدت هذه العبارة داخلي كأنها تعويذة. لم تكن مجرّد اعتراف بشرعية الملكات، بل كانت تبرئة للأرض نفسها. فالعربية لم تُخلق لتُرى من خلال قوالب مستعارة؛ كان لها إيقاعها الخاص، ولغتها الخاصة، وحكاياتها الخاصة. وفي تلك الحكايات، وقفت النساء عند الدفّة، لا كقرينات أو رموز أسطورية وحسب، بل كحاكمات بكل ما للكلمة من معنى.

فملكة سبأ، بوصفها الأكثر حضوراً في كل الأساطير، استقرّت في وجدان الذاكرة في القرن العاشر قبل الميلاد. غير أن ماكدونالد يخبرنا أنه قبل الإسلام بقرون طويلة، وقبل أن ينقش الأنباط أسماءهنّ في الحجر، وقبل أن تُزهر البتراء في بهائها الوردي، كانت هناك ملكات للعرب في شمال وشمال غرب الجزيرة. وها هن الآن، وهن ينهضن من غبار السواحل الشرقية للعربية، يقدّمن أنفسهن كأوائل الحاكمات المحليات اللواتي سُجّل حكمهن لا بأقلام كتبة أجانب، بل في عملاتهن الخاصة - بنات ناصل، ومسماس، ولَبي، وبَغْلان.

كنّ يُدعَين أبيئيل.

وكنّ يحكمن.

أغلقتُ الكتاب برفق، والهمسات القديمة ما زالت تتردّد من حولي. لقد قالت لي الصحراء ما كنت أحتاج إلى أن أسمع. وحين خرجت إلى شمس مليحة الهادئة من جديد، كنت أعلم أن هذه الحكاية لم تنتهِ.

بل للتو بدأت.

العملات تكلّمت أولاً

كنت قد مضيتُ بعيداً، ولم يعد بإمكاني التوقف. أيقظت الصحراء في داخلي شيئاً ضارباً في القِدم - إصراراً خافتاً، همساً محمولاً على رياح الرمال المتطايرة. كنت أبحث عن إجابات، عن حقيقة. وهكذا شددت الرحال عبر العالم لألتقي بأحد القلائل الذين ربما يملكون المفتاح: مايكل ماكدونالد، العالم الشهير في اللغات القديمة، الرجل الذي غدا عمله الركيزة التي تقوم عليها نظريتي التي تنضج يوماً بعد يوم.

التقيتُه في منزله الصيفي في إيستبورن، مكان هادئ تعانقه البحار. استقبلني بحفاوة رقيقة من زمن قديم - شاي وكعك معدّ بعناية، وُضع بيننا كأنه قرابين. كنت مبهورة، بل يكاد يداهمني الابتهاج الطفولي، لكن خجلاً غريباً تملكني أيضاً. كيف تشرحين له أنكِ تطاردين شبح ملكة لم يعد أحد يذكرها، إلا في أنفاس الريح وبقايا عملات متآكلة؟

فبدأتُ حديثي ببساطة.

أخبرته أنني قرأت أعماله عن عملات أبيئيل - تلك القطع الفضية والبرونزية الغامضة المختومة بخاتم امرأة - وأنني أريد أن أعرف المزيد. لم أذكر الأحلام ولا الأسلاف ولا ذاك الشعور الغامض الذي لازمني منذ مليحة، بأنني عشتُ هذا من قبل. لكنني اكتفيت بطرح الأسئلة.

ابتسم، وانحنى إلى الأمام، وبدأ يقصّ عليّ حكاية قلّة من الناس قد سمعوها.

أخبرني أن هناك مجموعتين بارزتين من عملات أبيئيل: الأولى من الشمال، منقوش عليها اسم «أبيئيل» عمودياً، والثانية، وهي الأندر وجوداً، تعود إلى شبه جزيرة عُمان، منقوش عليها الاسم ملتفاً حول أسفل العملة. هذه العملات الجنوبية لا تُكتشف إلا في مليحة، ولا مكان سواها. ذلك الاختلاف، وإن بدا طفيفاً، كان يبوح بالكثير.

قال بحذر: «يبدو أن هؤلاء الأبئيليات كنّ ملكات مليحة».

ثم مال أكثر وأردف: «تلك هي العملات التي عليكِ أن تركّزي عليها - تلك التي تحمل اسم "أبيئيل" ملتفاً حول القاع. فجميعها تقول العبارة نفسها: أبيئيل بنت بَغْلان».

تردّد الاسم في أذني كقرع الطبول.

أبيئيل. بنت بَغْلان. ملكة مليحة.

ضحك ماكدونالد بخفة وقال: «أليس غريباً؟ كلها تحمل الاسم نفسه - أبيئيل. ذلك لأنها لم تكن اسماً شخصياً، بل اسم عرش يعني: أبي هو الله. اختيار جريء»، ثم أضاف بابتسامة ماكرة: «قد يبدو اليوم ضرباً من الخروج عن السياق الديني، لكنه كان يليق بملك. تفويض إلهي في كلمة واحدة».

ثم تنهد وأضاف بنبرة حزينة: «ليتنا فقط نعرف أسماءهن الحقيقية».

غصنا أعمق، نتتبع اللغويات والنقوش، الاشتقاقات والدلالات المختبئة في الحجر. ثم مضى يشرح كيف أن بعض الباحثين الأوائل أساؤوا قراءة الكلمة على العملات - متخيّلين أنها تعني «ابن لـ»، فخرجوا بأسماء بلا معنى. «إنها بلا شك brt»، قال بحزم، «الكلمة الآرامية لـ"ابنة"» ثم أردف بيقين: «لا شك في ذلك».

ثم جاءت الفرضية الأكثر إثارة على الإطلاق.

قال ماكدونالد ببطء: «الجزيرة العربية هي الجزء الوحيد من الشرق الأدنى القديم الذي شهد تعاقباً فعلياً لنساء حاكمات. لسن وصيّات، ولا قرينات ملوك. بل ملكات حكمن بذواتهن، وبحقهن الكامل».

ثم بدأ يسرد أسماءهن. نساء دومة الجندل المهيبات، اللواتي أقلقت جرأتهن الآشوريين العظام. عُرفن بلقب «ملكات العرب»، وخلّدتهن الحوليات الآشورية في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد. نساء قدن الجيوش، إحداهن كانت كاهنة، تحالفن مع ملوك قيدار - لا كتابعات، بل كنِدّاتٍ وشريكاتٍ في حكم متكافئ أشبه بتحالفٌ. ست ملكات سُجّلن بالاسم، لكن من المرجّح أن أخريات برزن أيضاً - نساء لم يخضن الحروب، لكنهن صنعن التاريخ بصمت وهدوء.

ثم حدثني عن ملكات أبيئيل الغامضات في شرق الجزيرة. وقال: «على خلاف كليوباترا، لم تكن هؤلاء النسوة يظهرن فقط عند وفاة الحكام الذكور. لقد حكمن منذ البداية - وفق شروطهن الخاصة».

تحدثنا عن نقوش مليحة، المنحوتة بالآرامية والحساوية، أحدها يذكر حتى «ملك عُمان» - رغم أن أحداً اليوم لا يعرف موقع تلك المملكة بدقة. «الأرجح»، قال، «أن شبه جزيرة عُمان أعطت اسمها لعُمان، لا العكس. أما ذلك الملك؟ فالأرجح أنه كان يجلس في

مليحة».

تدفقت في داخلي موجة أمل. هل يمكن أن يكون هناك المزيد؟ أدلة إضافية؟ وثائق، لفائف، ألواح طينية؟

لكن ماكدونالد هز رأسه.

قال بصوت ممتزج بالتبجيل والأسى: «العملات هي كل ما لدينا. لا برديات، ولا مخطوطات. فمناخ المنطقة لا يحفظها. أو ربما»، أضاف بعين تلتمع، «لم نعثر عليها بعد».

حلّ صمتٌ كثيف، صمت يحمل في طياته ثِقل القرون.

واصل حديثه قائلاً: «إنها واحدة من عجائب العالم القديم... أن تكون الجزيرة العربية، من بين كل الأمكنة، موطناً لهاتين السلسلتين من الأسر الحاكمة النسائية. لن تري ذلك في أي مكان آخر».

ثم ذكر اسماً يعرفه حتى الأطفال: ملكة سبأ.

هي أيضاً، بحسب الأسطورة، امرأة حكمت العرب. ابتسم ماكدونالد أمام رمزية الأمر، وقال: «حتى لو كانت خيالية، فإن مجرد أن الكتّاب اليهود وصفوها بأنها ملكة - لا ملك - يحدّثنا بشيء. لقد اعتادوا فكرة أن النساء العربيات يحكمن. كان ذلك طبيعياً بالنسبة لهم».

سألته لماذا يعتقد أنها شخصية خيالية.

فأجاب بصراحة: «لأننا لا نملك أي دليل على الإطلاق من اليمن أو مملكة سبأ بأن ملكات حكمن هناك. لا يُذكر إلا زوجات الملوك - وحتى ذلك نادر. شخص بقوة ملكة سبأ كان سيترك أثراً».

تركتني كلماته معلّقة بين عالمين - بين ما نعرفه وما نشعر به.

نهضتُ لأغادر، غير متأكدة كيف أشكره على كل ما منحني - على الوضوح، وعلى التشجيع، وعلى ثِقل الذاكرة السلالية الذي أكّده لي برفق.

وعند الباب، استدار وقال بابتسامة ماكرة: «أتدرين ماذا؟ أظن أنكِ يجب أن تكوني ملكة مليحة».

ابتسمتُ، وكأن أرواح الأسلاف قد نطقت بصوته.

الفصل الثامن

ملكة سبأ

تأملت طويلاً في ما قاله مايكل عن ملكة سبأ. كيف له أن يقول إنها شخصية خيالية؟ لقد نشأتُ على حكاياتها مع النبي سليمان، إذ ورد ذكرها في القرآن الكريم والكتاب المقدس، كما خلّدتها الكتب والأفلام على مرّ العصور. فلا بد أن وراء تلك الأسطورة حقيقة تتوارى في طياتها. لذلك قررت أن أفتش بنفسي عن الأدلة التي تثبت وجودها.

ظلت سيرة ملكة سبأ محاطة بالغموض والسرية، حتى غدت أسطورة يتناقلها الناس في حكاياتهم الشعبية. فقد سجّل ج. سي. ماردوس - الذي صاغ «ألف ليلة وليلة» في نص مكتوب - روايات عربية قديمة لملكة سبأ كانت قد تناقلتها الألسنة شفاهة عبر الأجيال: «رُوي في التراث والأساطير - والله العلي القدير أعلم، - أنّه كان يعيش في سبأ الميمونة، في أرض اليمن، في زمن سليمان بن داود، ابنةُ ملك، ملكة صغيرة السن، كانت حياتها مليئة بالعجائب والدهشة. كانت هذه الملكة زهرة الزهور العربية...».

غدت ابنة البخور ورياح التجارة العتيقة، تحمل أسطورتها على ظهور الجمال العابرة للرمال الملتهبة نحو القدس، فيما ظلّت روحها عالقة في دخان اللبان ونفحات المُرّ الكثيف. أطلق عليها العلماء أسماء شتى: بلقيس في الحكايات العربية، ماكيدا في المرويات الإثيوبية، وسبأ في الأساطير التوراتية. غير أن اختلاف الأسماء لم يحجب جوهرها، فقد أجمع الجميع على أنها لم تكن مجرد ملكة، بل تجسيد للغموض ذاته: كيان من نور وظلال، تتأرجح بين ظل البشر وسمو الألوهية.

وقيل إنّه حين عبرت الصحارى لتلتقي بسليمان، بدا موكبها كأنّه سراب يتلألأ في الأفق، محملاً بالذهب واللازورد والأماثيست، وراتنجات عطرية تملأ الأجواء، فأحاطت لحظة قدومها بهاء حسّي يأسر القلوب. تواضع الملك الحكيم أمامها، لا أمام جمالها وحده، بل أمام عقلها الثاقب، الحاد كحدّ السيوف المعقوفة التي حملها حرسها. لم تأتِ لتُبهره، بل لتختبره. ولم يُجبها بالثروة والمال، بل بالحكمة.

ولكن، ماذا عن أراضيها هي؟ ماذا عن المملكة التي حكمتها برشاقة صقر يقاوم الرياح؟

في سبأ القديمة - أي في أرض اليمن التي نعرفها اليوم - كشف علماء الآثار عن دلائل

حضارة متقدمة، بارعة في نظم الري وزراعة المحاصيل، ومخلصة في عبادتها للشمس. هناك، كان سد مأرب يروي عطش الصحراء بمعجزة هندسية سبقت عصرها. فهل كانت تلك أرضها؟ وهل ردّدت جدران تلك المعابد، التي انهارت لكن ما زالت تقف شامخة بتحدٍّ، صدى صوتها ذات يوم؟ يُقال إنها حكمت من المدينة العظيمة سبأ أو من شبوة، قبل زمن بعيد من بزوغ مملكة أكسوم. ولعلها، حين عادت من بلاط سليمان، لم تحمل معها الذهب والألغاز وحدها، بل حملت جنيناً في أحشائها - سلالة سيولد منها ملوك إثيوبيا.

تعددت الروايات ولم تتفق، لكنها أبت الصمت.

ففي القرآن الكريم، في سورة النمل (22-44)، لا ترد باسمها، بل كملكة سبأ الحكيمة البصيرة، تقودها الفطنة لا السيف. وذات يوم، وصلها كتاب بطريقة لم تخطر على بال، حمله إليها الهدهد، رسول سليمان الأمين. لم يكن كتاباً عادياً. فقد بدأ بكلمات: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ودعاها إلى ترك الكبر والإيمان برب العالمين.

لم تُسارع الملكة إلى الغضب أو الحرب، ولم تنكفئ على كبرياءٍ متعجرف، بل استدعت مجلسها، وأصغت إلى مشورتهم، واتخذت قرارها بتمعّن ورويّة. وفي النهاية، لم يكن مكمن قوّتها في التحدّي، بل في البصيرة؛ إذ اختارت السلام، وباختيارها السلام اختارت الحكمة.

وحين جاءت إلى سليمان، دخلت قصراً لم يُشَيَّد بالحجارة وحدها، بل بالعجائب أيضاً. كان البلاط تحت قدميها يلمع كالماء الساكن، صافياً كبركة، فرفعت ثيابها غريزياً لئلّا تبتل. غير أنّه لم يكن ماءً، بل زجاجاً صُفَّ بدقة حتى عكس جريان نهرٍ بأكمله. وفي تلك اللحظة من الدهشة والتواضع، أبصرت ما يتجاوز صنعة البشر؛ فما كان قائماً أمامها ليس مجرد براعة سليمان، بل آية من الحكمة الإلهية تتلألأ من خلالها. وهناك، في ذلك النور، أقرت قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لم يكن استسلامها هزيمة، بل كان تجلّياً وإشراقاً.

وما زال العلماء حتى اليوم يبحثون، ينفضون الغبار عن النقوش السبئية، يدرسون العملات والنقوش، ويتتبعون أنساب ملوك إثيوبيا الذين يزعمون أنها جدتهم الأولى. غير أن عرشها، الممتد ثمانين ذراعاً والمُرصع بالياقوت، لم يُعثر عليه قط، كما أن قبرها ظل مطموراً تحت قرون من الرمال والصمت.

ومع ذلك، تبقى حاضرة في الذاكرة.

وفي كل حكاية تُروى تحت سماء مرصعة بالنجوم. وفي أناقة ملكات الصحراء اللواتي جئن من بعدها - زنوبيا، ماوية، سمسي. وفي جذور الجزيرة العربية ذاتها، حيث تتنفس الأرض بذكراها. امرأة حكمت بمزيج من المخمل والحديد، ابنة البخور وروح الحكمة الإلهية. ملكة لم يُشَيَّد عرشها من الجواهر وحدها، بل من الألغاز والأحلام وسحر الغموض الذي لا يزول أبداً.

الملكة التي حملت مملكةً في رحمها

ينحني التاريخ تحت ثِقل النساء العظيمات. ومن بينهن تقف ملكة سبأ - سواء عرفناها ببلقيس أو ماكِدا - شامخة لا يتزعزع إرثها.

لقد استقى علماء مرموقون مثل الطبري وابن إسحاق من نبع التراث الشفهي وأوائل المدونات الإسلامية، مستندين إلى السيرة العطرة للنبي محمد ﷺ التي دوّنها عروة بن الزبير بن العوّام. ولم يكن عروة مؤرخاً عادياً؛ بل كان ابن الزبير - الصحابي الجليل وابن عمّة النبيّ، وكان رجلاً انغمرت كلماته بقربها من الحقيقة. وكانت أمّه شقيقة السيدة عائشة زوجة النبي ﷺ، ومن ثمّ فإن روايته لقصة بلقيس تحمل ثِقل المصداقية وجلال التبجيل.

وفي رواية ابن إسحاق، حين عاد رسل بلقيس بكتاب سليمان - الذي يطالبها أن تُسلم لله ربّ العالمين - أدركت عبثية القوة. فلم تكن ساذجة، ولا أسيرة كبرياء. وبدلاً من أن تقف في وجه نبيٍّ من أنبياء الله، اختارت سبيل الفهم والبصيرة. فأمرت أن يُخفى عرشها الذهبي، تلك التحفة المهيبة الموشّاة بالياقوت والزمرّد واللؤلؤ، في أعماق قصرها، محروساً خلف سبعة أبواب موصدة. ولم يكن إخفاؤه عن خوف، بل عن حفظٍ مكرَّم لإرثها. وعهدت بحمايته إلى نائبها، وحشدت جيشاً قوامه اثنا عشر ألف قائد، كلٌّ منهم أمير، تحفّ بهم جحافل من الجنود الأوفياء. لم يكن ذلك استعراضاً للعدوان، بل فعلَ ملكةٍ سيّدةٍ تُدرك معنى الإرث والسيادة.

وعبر الرمال، راقبها سليمان لا بخوف بل بانبهار. فأرسل الجن - مخلوقات من نار وهواء - لتحلّق فوق الصحارى وتأتيه بأخبار تحرّكات موكبها. ومع اقتراب ساعة وصولها، استدعى أعلم مستشاريه من البشر والجن. وبأمرٍ إلهي، رُفع عرشها الذهبي ووُضع في مجلس سليمان قبل أن تراه عيناها غائباً عن موضعه. وحين دخلت بلقيس ورأت ما لا يمكن أن يكون - عرشها حيث يستحيل أن يكون - غمرها الذهول. فالمعجزة أزالت آخر ما تبقّى من شكوكها. وعندها قررت أن تعتنق دين سليمان، لا هزيمةً، بل دهشةً وإجلالاً. وهكذا، باتت الملكة التي حكمت يوماً بالنجوم، تسير تحت نور الإله الواحد.

وفي ختام إقامتها الدبلوماسية، عرض سليمان الزواج - لا طلباً للسلطة أو السياسة،

بل توحيداً تحت راية الهداية الإلهية. لكن بلقيس، بجلالها وسيادتها، أبت. فلم تكن امرأةً تُسلَّم من يدٍ إلى يد، بل كانت التاج نفسه. غير أنّ سليمان ذكّرها بأن الخضوع للإيمان هو خضوع لكل أوامر الله، حتى لتلك التي تُثقل القلب. فوافقت على مضض، ولكن بحكمة، واختارت ذو بتع، ملك همدان. فبارك سليمان زواجهما، وولّى ذو بتع نائباً له في اليمن.

غير أنّ هناك رواية أخرى لهذه القصة، أقدم عهداً، تنبض بإيقاع التربة الإفريقية.

ففي كتاب «كِبرا ناغست» - الذي ترجمه إي. إيه. ووليس بدج عن اللغة الجعزية القديمة - يُقال إن اسم الملكة كان ماكِدا، ملكة إثيوبيا. وهذا السِّفر الإثيوبي العائد إلى القرن الرابع عشر لا يكتفي بسرد قصتها، بل يمجّدها. فبالنسبة لشعب الحبشة، لم تكن أسطورة، بل ذاكرة دموية تجري في كل عرق من عروق السلالة السليمانية.

في هذه الرواية، تشرع ماكِدا في رحلتها إلى أورشليم («القُدس» في عصرنا الحالي) لا لتتعلّم وحسب، بل لتختبر أيضاً. وتحمل معها هدايا تفوق الوصف في ثرائها - من اللبان والذهب والراتنج العطري الداكن القادم من أراضٍ بعيدة. يمتد موكب جمالها حتى يلامس الأفق. فيستحثّ سليمان، وقد أثار إعجابه حكمتها وقوّتها، أن يدعوها للإقامة والتعلّم.

يمضي لقاؤهما في سحرٍ أخّاذ. يُفتن سليمان بحضورها، ويتوق إلى التقرب منها. فيطلب منها أن تضطجع معه، لكنها تأبى، متمسكة بكرامتها كما لو كانت تاجاً على رأسها. عندها ينسج حيلة أخرى: أن تقطع عهداً بألّا تأخذ شيئاً من بيته. تثق بعدله، فتوافق.

ثم تبدأ الوليمة - مائدة عامرة بالتوابل واللحوم المملّحة، أُعدّت لا لتُدهش الحواس فحسب، بل لتوقظ عطشاً دفيناً.

في تلك الليلة، وقد عجزت عن احتمال جفاف حلقها، نهضت ماكِدا لتغترف ماءً. فأوقفها سليمان مذكّراً إياها بعهدها. وبمدّ يدها إلى الماء، كانت قد نقضت عهدها. غير أنّه عرض عليها مخرجاً: أن تضطجع معه. فشربت. وقبلت. وتحت نجوم القُدس، حملت ماكِدا في أحشائها أمّةٍ ستولد في المستقبل.

تعود ماكِدا إلى مملكتها بأكثر من ذكريات - تحمل بذرة سلالة.

فتنجب منليك الأول، ابن القُدس وإثيوبيا. وما إن شبّ حتى اشتاق لرؤية أبيه الذي يثير اسمه الرهبة. استقبله سليمان بفرح، ورغب في أن يبقى ليخلفه في الحكم. لكن

منليك، مثل أمّه، اختار العودة، إذ كان قدره مرسوماً في إفريقيا لا في القُدس.

وقبل رحيله، يُلهمه الوحي أن يأخذ تابوت العهد، الأثر المقدّس لشريعة الله. فيُنقل سراً من القُدس، لا سرقةً، بل ميراثاً مقدّساً. وهكذا، وجد تابوت الرب مستقَرّه في هضاب إثيوبيا، محمولاً على أكتاف ابن ماكِدا.

ومن هذا الاتحاد وُلدت السلالة السليمانية - نسبٌ غير منقطع من الملوك يفاخرون بانحدارهم من سليمان وماكِدا، ومن بينهم هيلا سيلاسي الأول، آخر أباطرة إثيوبيا.

لقد أبت قصة ماكِدا، مثل روحها، أن تُقيّد برواية واحدة. فهي بلقيس، الملكة الحكيمة التي خضعت أمام نبي، وهي ماكِدا، لبؤة إثيوبيا التي حملت في رحمها مملكةً كاملة. هي أسطورة إلهية وتاريخ حيّ.

وسواء حكمت من قصور اليمن المعطّرة بالبخور أو من قمم أكسوم الخضراء، فإنها تظل - آنذاك كما اليوم - ملكةً لم يستطع الزمان ولا الإمبراطوريات أن يُطفئوا نورها.

الفصل التاسع

ملكات القمر في سبأ

في أعماق وديان جنوب الجزيرة العربية، حيث تنزف أشجار اللبان أسرارها في قطراتٍ من الصمغ المبارك، وحيث يسكب القمر صمته الفضيّ على الرمال، نهضت ملكات تحدّين قيود الزمن وقوانين الجاذبية - نساءٌ حكمن ككاهنات وملكات ومحاربات وعرافات. إنهنّ «المُكَرِّبات»، ملكات القمر في سبأ، اللواتي شيدن مملكةً صيغت لا بالحجر والسيف فحسب، بل بالنجوم والإرادة الإلهية.

سواء وُجدت في سجلّ التاريخ أم في وهج الأسطورة، فقد ارتقت ملكة سبأ إلى مقام الرمز الأزلي للقوة الأنثوية العتيقة. كانت الرعدَ المستتر خلف العرش، والهمسَ الموشوش في نبوءة، والسيّدة على عصرٍ ذهبي ما زال عبيره يلوح في دخان البخور المتصاعد من هياكل اليمن المنسية. لكن خلف أسطورة سبأ ترقد سلالة كاملة من النساء، أسماؤهنّ تُرتَّل في نصفَ نشيدٍ في الرياح العابرة لأنقاض مأرب - ملكاتٌ لم يطمسهنّ الرمل، بل صانهنّ الصمت.

كان السبئيون -سادة هندسة الصحراء وتجارة القوافل- حكّام هذا العصر العتيق الممتد ما بين نحو 1200 قبل الميلاد و275 بعد الميلاد. لم تكن مملكتهم مجرد مجموعة من المدن، بل جسداً عظيماً تضجّ شرايينه بالذهب والتوابل، وتنبض أوردته بروحانية مهيبة. وفي قلبه وقفت مأرب، المدينة التي لمعت جدرانها تحت شمس الصحراء، مدينة السدود التي كبحت جماح السيول، والمعابد التي انتصبت لتقبّل النجوم.

عبد السبئيون مجمعاً سماوياً يتقدّمه الإله القمريّ «المقه»، الذي لم يحكم بالرعد، بل بدورات الزمن والمدّ والخصب والمصير. وتحت أنوار هلاله صعدت ملكات سبأ إلى العرش.

ولم يكنّ ملكاتٍ كما تخيّلتهنّ الروايات الغربية - زوجاتٍ للزينة أو وجوهاً محجوبة في ظلال الملوك، بل كنّ حاكماتٍ بحقٍ أصيلٍ. كنّ يُعرفن بـ «المُكَرِّبات»، وهو لقب يتردّد صداه بين السلطة الملكية والهيبة الروحية معاً. وتذكر النقوش المنحوتة بخطّ المسند القديم هؤلاء النساء بإجلالٍ؛ فبعضهنّ حملن لقب «حاكمة الشعب»، وأخريات «الكاهنة الملكة»، وغيرهنّ حكمن منفردات لا يشاركهنّ رجل، تحت عين الآلهة مباشرة.

وفي رحاب معبد أوام المقدّس، حيث ارتفع بخور القرابين وتجلّى وجه المقه، تكشف النقوش الجدارية عن نساء جمعن بين خدمة الإله والقيادة السياسية. وما زال السور البيضاوي العظيم قائماً، شاهداً على عصرٍ لم يكن فيه السلطان والقيادة الدينية الروحية حكراً على ذكر أو أنثى، بل موحّدين في عهد واحد.

وفي تِمنع، عاصمة مملكة قتبان، كُشف عن تمثال لامرأة نُحت بعناية من الحجر الجيري، ملامحها هادئة، وهيئتها مهيبة. تزيّنت بحُليّ دقيقة الصنع، وأمسكت بيدها شيئاً يراه العلماء رمزاً للسلطان الإلهي أو أداة شعائرية مقدّسة. لم تكن زينةً للقصور، بل كانت اليد التي تقدّم البخور، والعقل الذي يُدير التجارة، والصوت الذي يخاطب الآلهة والبشر معاً.

وفي أنقاض وخرائب مأرب القديمة، تهمس النقوش عن «مُكَرِّبة» أشرفت على إصلاح سد مأرب العظيم - تلك الأعجوبة الهندسية القديمة التي سقت مملكة سبأ قروناً متعاقبة. وإن صحّت الرواية، فهي لحظات نادرة في التاريخ حين نُقش اسم امرأة لا في أساطير الذاكرة وحدها، بل في صميم عمران الحضارة.

لم تكن تلك الملكات مجرّد رموز روحية مقدّسة؛ بل كنّ حاكمات ومهندسات ودبلوماسيات ومحاربات. قدن الجيوش، وأبرمن التحالفات، وعقدن اتفاقات التجارة مع ممالك بعيدة حتى مصر وبلاد الرافدين وأكسوم. وحين كنّ يمشين في قاعات الرخام، بثيابٍ منسوجة بخيوط الذهب ومعطّرة باللبان، كان الملوك أنفسهم يحنون الرؤوس إجلالاً لسطوتهنّ.

نادين ذي صدقن شمس:

الملكة ذات التاج المكلّل بالريش

علمتُ فيما بعد أنّه، وبعد أن تلاشت بلقيس في ضباب الأسطورة، نهضت شخصية أخرى لا يقل بريقها مهابة - الملكة نادين ذي صدقن شمس، سيدة قتبان المحاربة. فعلى الرغم من القرون التي تفصل بينهما، ظلّ ذكرهما يتردّد على نغمة واحدة من سلطانٍ نسويٍّ منقوش في رمال الصحراء.

كانت الملكة نادين تحكم مملكة قتبان العتيقة في جنوب الجزيرة العربية - في ما يُعرف اليوم بعمق اليمن الداخلي - خلال أواخر الألفية الأولى قبل الميلاد، في زمن ازدهرت فيه ممالك البخور، وربطت التجارة بين رمال الجزيرة وسواحل البحر المتوسط. لم يبقَ أثر إرثها في الحكايات فحسب، بل في البرونز أيضاً: تمثال نصفيّ من البرونز يبلغ طوله 23 سنتيمتراً، كُشف عنه عام 2001 في جبل العود بمحافظة إبّ في اليمن. تمثّل القطعة امرأةً تعتمر خوذةً ذات عرفٍ، وتضع درعاً نُقش عليه ثعبان، وتعلوه رأس الغورغون، وقد نُقش حول عنقها بالخط المسند: «نˁدن / ذ صدقن / شمش».

وقد قرأ عالم النقوش الدكتور يوسف عبد الله الكتابة المنقوشة على التمثال على النحو الآتي: نَأدِن ذُو صِدْقَن شَمْس - أي «نقدّم هذا العطاء الصادق للإلهة شمس»، رَبّة الشمس التي عُبدت في عموم جنوب الجزيرة العربية. ورأى كثير من الباحثين في ذلك أنّ التمثال البرونزي كان قرباناً نذرياً، يجمع بين الحِرَفية اليونانية واليمنية في تصوير الإلهة أثينا المُكرَّسة لعبادة شمس، بما يعكس حالة التمازج الثقافي والديني في ذلك العصر.

غير أنّ التراث المحلي كان له رأي آخر: فقد أصرّ على أنّ التمثال النصفي يُصوّر الملكة نادين ذي صدقن شمس، أي نادين، صاحبة الصدق، ابنة الشمس - تلك الملكة الكاهنة التي جمعت بين السلطان الدنيوي والولاء الإلهي. ووفق هذا التصوّر، لم تكن نادين رمزاً فحسب، بل ملكةً حقيقية - امرأةً حكمت بعقلٍ متّقدٍ وعزيمةٍ لا تلين، تشعّ هيبتها كما

تشعّ الشمس التي نذرت نفسها لها. كان مملكتها، الممتدّة بين تمنع وطرق البخور في بيحان، تزدهر بتجارة المرّ والذهب والحكمة. وفي معابدها، تلألأ اسم شمس إلى جانب اسم الملكة، وفي بلاطها وجد المحاربون والتجّار على السواء ملاذهم الآمن تحت راية تاجها المزيّنة بالريش.

نظرتها، حتى وهي في تمثالها البرونزي، لا تعرف الانكسار؛ وحضورها يفيض هيبةً وسطوة. وعلى خوذتها كانت ترتدي ريشةً واحدة، لم تكن للزينة، بل راية للسيادة. من هذا الرمز المهيب استمدّ المحاربون شجاعتهم، ومن تاجها المكلّل بالريش عرف قومُها ملكتهم. ومن هذه الصورة، كما يُروى، وُلد المثل العربي «على رأسه ريشة» - يُقال فيمن تميّز وارتفع شأنه، ليذكّرنا بأن السيادة ليست دائماً تاجاً من ذهب، بل هي سمة الكرامة والقدْر، ماثلةٌ على الرأس في جلاءٍ لا يُخفى.

استحقّت نادين كبرياءها عن جدارة. كانت امرأةً تشتعل أنوثةً وجرأة، تقود جيوشها إلى ميدان المعارك في وجه كل غازٍ تطاول على أرضها أو تجرأ على طلب يدها. وحين هدّدها ملكٌ يونانيّ بأن يسير بجيشه نحو اليمن ليأخذها قسراً، لم تُرسل الوفود، بل رفعت رايات الحرب وأبحرت شمالاً صوب اليونان. بلغت جيوشها قبرص، شاهدةً على صلابة إرادتها وبأسها، وعلى مدى ما بلغه الطموح العربيّ من اتّساعٍ وجسارة.

وإن تلاشت السجلّات المكتوبة عند تخوم ذلك الأفق، وابتلعتها هوةُ الزمان، فإن أسطورتها ما زالت حيّة - نصفها برونز، ونصفها خيال. وسواء أكان التمثال النصفي المكتشف في جبل العود يجسد صورتها الحقيقية أو كان قرباناً للإلهة شمس، فإن قصة نادين ذي صدقن شمس تكشف عن حقيقةٍ عميقة في عالمها: أن القوة والإيمان والفن التقت جميعها في أيدي نساءٍ جمعن بين السيف والمحراب، يحكمن بحزمٍ كما يُصلّين بخشوع. وما زالت روحها، الموصولة باسم شمس المتألّق، رمزاً للجمال والسيادة اليمنيّة - تاجٌ مريّش يلمع عبر ضوء الصحراء الأزليّ.

الملكة لميس بنت نوف بن يريم ذي مر

حين ينزاح ستار التاريخ، تطلّ حكاية الملكة لميس بنت نوف بن يريم ذي مر مثل كوكبة ساطعة حجبتها الغيوم زمناً ثم انكشفت. لم تكن ظلاً باهتاً ولا إرثاً منقوشاً للزينة، بل مقاماً إلهياً، وعزماً مقصوداً. لم يسرِ في عروقها دم الملوك وحده، بل نبض فيها روح السلطان وأمره. وإن نقوش المسند في معبد أوام، المنحوتة تحت أنظار الآلهة القدامى، لتتهامس باسمها كأنها دعاء يأبى النسيان.

حكمت بعزيمة في مملكة تزخر باللبان والحكمة، في قلب عالم يتاجر لا بالتوابل والذهب فحسب، بل بعلم أسرار الكون، والطقوس، وفنّ المُلك. كانت أمّاً وجدّة وملكة - قابلةً للإمبراطوريات والملحمات معاً. وقد بقيت أنفاس إرثها في معابد مأرب، وفي عقول ورثتها، وفي صوت الملك أسعد أبو كرب وهو يفاخر قائلاً:

لقد وُلِدتُ من سلالة ملوكٍ عِظام

كلٌّ منهم متوَّجٌ بالوقار والجلال

وملكاتٍ متوَّجات كبلقيس وشمس

أجدادي من لميس.

حتى الرمال لا تقوى على طمس امرأة تغنّى بها الشّعر.

فاللوح الفضيّ المستخرج من قبرٍ في صنعاء، والمطعَّم بالذهب، لا يكشف عن سلالة ملكية فحسب، بل عن سمو روحي أيضاً. فنحن نرى اليوم لميس وحُبّى، ابنتي تُبّع، المتلفعتين بالثوب والأسطورة، ترقدان تحت الثرى وعليهما كلمات الشهادة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له». كأن الأجداد أرادوا أن يختموا في الأرض إيمانهم وسلطانهم وحكاياتهم، حتى إذا نسيهم العالم، نطق الغبار يوماً من جديد.

ومع ذلك، لم تكن الملكة لميس سوى نجمةٍ واحدة في كوكبةٍ واسعة من الملكات اللاتي أضأن سماء اليمن القديم.

ويرد ذكرها في المرويات العربية الجنوبية بوصفها من أوائل النساء المتوّجات في سبأ وحمير - سيّدة أرض البخور التي تولّت الحكم فيما كان زوجها، الملك ذو المنار، يخوض

حملاته الممتدّة نحو بلاد الشام وشمال أفريقيا. وفي غيابه، حكمت لميس من مأرب بحكمةٍ ملكيةٍ رفيعة، اكسبتها اعترافاً واسعاً بسلطانها ونفوذها في ربوع سبأ وقتبان على السواء.

ويُرجَّح، بحسب الآثار المروية، أنّ فترة حكمها تعود إلى بدايات الألفية الأولى قبل الميلاد، وتحديداً إلى القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد، في عهد توحيد اليمن تحت حكم الملك الريّاش. وتشير نقوش معبد أوام، المنسوبة إلى ذلك العصر، إلى ورود اسمها، مؤكّدة أنّ ذكراها قد نُقشت في الحجر قبل زمن الملكة بلقيس بقرون.

وقد وثّق العلّامة الهمداني في القرن العاشر نقشاً بخط المسند عُثر عليه في «ريدة»، يذكر فيه اسم «لميس الكبرى»، ابنة نوف بن يرِم ذي مرّ وأمّ أفريقيس بن أبرهة ذي المنار، الذي خلّد اسمه في علوم الجغرافيا، إذ اشتُقّ من اسمه تسمية أفريقيا. ومن خلاله، غدت سلالتها أسطورةً تُروى، وادّعى ملوكٌ لاحقون انتسابهم إليها فخراً وطلباً للمجد.

أما الشعراء في العصور الوسطى، مثل نشوان الحميري، فقد خلدوا اسمها ضمن «أعظم ملكات اليمن القديم»، بوصفها أمّاً كبرى سبقت بلقيس وشمس، وانتمت إلى سلالةٍ ملكيةٍ موصولةٍ بالنور والسيادة. ومع أنّ القرون غشّت قصتها بضباب الأسطورة، ظلّ حضورها عابقاً متألقاً في أناشيد الملوك وفي صدى النقوش المنحوتة على جدران مأرب المهيبة.

ويشير الباحثون المعاصرون إلى أن أقدم النقوش المؤرّخة في مأرب تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، ما يوحي بأنّ حكاية لميس ربما حُفظت شفهيّاً على مدى قرون قبل أن تُخلَّد لاحقاً في نصوصٍ تاريخيةٍ متأخرة. غير أنّ لميس، سواء وُلدت من رحم الأسطورة أم الذاكرة، تبقى الجدّة المضيئة للملكات - امرأة حكمت حين كان العالم في فجره، ونُقش اسمها على صفحة الضوء والحجر.

الملكة شمس

كانت هناك أيضاً الملكة شمس، المتألّقة اسماً وإرثاً، ويُقال إنها جلست على عرش سبأ في عام 732 قبل الميلاد. وقد خلدتها السجلات الآشورية بصوت مهيب، فيما تشير روايات أخرى إلى أن «شمس» ربما كانت الاسم الحقيقي لملكة سبأ نفسها. قد لا يكون اسمها منقوشاً على حجارة معبد أوام، غير أن ضياء إرثها ما زال يتردّد بينها - صامتاً لكنه خالد، أنشودةً لنساءٍ لم تُمنَح لهن التيجان وهماً، بل استحققنها عن جدارة.

شمس - كما يُوحي الاسم - حملت في حروف اسمها جوهر الإشراق ذاته، فكانت النور الذي يبعث الحياة، والوضوح الذي يهدي البصائر، والنبض الثابت الذي يقيم الممالك على أركانها. لم يكن اسمها مجرّد علامة للهوية، بل كان سلطاناً يسطع وهيبة تتدفأ بها القلوب، عهداً متجدّداً بالعودة كل صباح، ووعداً أبدياً بالصمود.

تتحدث السجلات الآشورية في عهد تغلات بلاصر الثالث عن ملكة تُدعى شمسي (شمس)، وتصفها أنّها زعيمة مهيبة قادت، نحو عام 732 قبل الميلاد، تحالفاً من القبائل العربية وواجهت بصلابة محاولات التمدّد الإمبراطوري. قاتلت، وهُزمت، ثم أُعيد تنصيبها ملكة تابعةً للآشوريين، في اعترافٍ نادرٍ بسيادة امرأة ضمن مدوّنات الإمبراطوريات القديمة. وفي السجلات نفسها، يظهر اسم سبأ مرسلة الجزية من ذهبٍ وفضةٍ وجِمالٍ وعطورٍ إلى آشور. وهكذا، تقف شمس عند العتبة الفاصلة بين الأسطورة والتاريخ - اللحظة التي دخلت فيها سبأ للمرة الأولى ذاكرة العالم القديم المكتوبة.

وسواء كانت شمس الآشورية هي نفسها التي حكمت في سبأ، أم أن قصّتيهما تداخلتا عبر العصور، فقد غدت شخصيّتها رمزاً للتمرّد والكبرياء المتألّق في صفحات التاريخ، بوصفها امرأة حملت اسم الشمس وعبءَ المُلك. وربّما استُمدّ لقبها من الإلهة الشمس، ربّة النور والعدالة المعبودة في أنحاء جنوب الجزيرة العربية، والتي زيّنت صورتُها النقوش النذرية ومعابد مأرب وصرواح. فيها امتزج الإلهيّ بالبشريّ، إذ تجسّدت الملكة على هيئة الإلهة التي أشرقت بنورها على الصحراء، تحفظ للحياة دفأها، وللملك هيبته.

إن سيادتها منقوشةٌ لا في الأساطير وحدها، بل في الأرض والحجر. فسد مأرب - الذي

ورد ذكر إصلاحه على يد ملكة سبأ آنفاً - يقف شاهداً على بصيرتها. شُيّد هذا السد في نحو القرن الثامن قبل الميلاد ليحبس مياه الأمطار الموسمية المنحدرة من الجبال، فكان يروي بساتين النخيل وحقول الحبوب، ويحوّل السهول القاحلة إلى لوحة حيّة من الخصوبة. وحتى اليوم، ما تزال أطلاله تقف شامخة، شاهدةً على حكمٍ صاغ من الحجر والماء والعناية وفرةً لا تزول.

وتؤكد الدراسات الأثرية أن هذا السدّ العظيم شُيّد للمرة الأولى في القرن الثامن قبل الميلاد - وهو ذاته عصر الملكة شمس. امتدّ السدّ بطول يقارب 680 متراً عبر وادي أذنة، محوّلاً مأرب إلى واحةٍ خضراء خصبة تبلغ مساحتها نحو 10,000 هكتار. وقد جعل هذا الإبداع الهندسي من سبأ «العربية السعيدة» أرضاً مباركة، أغدقت على العالم طيوبها وذهبها وأغنت تجارته. فإن كانت شمس قد وقفت عند بدء هذا الصرح، فإن إرثها لم يُنقش في الحجر فحسب، بل في جريان الماء نفسه الذي وهب شعبها الحياة.

أمّا معبد أوام (المعروف أيضاً بمحرم بلقيس) فيظلّ واحداً من أعظم مزارات مملكة سبأ وأبقاها أثراً. شُيّد المعبد بين عامي 1500 و1200 قبل الميلاد، بسوره البيضاوي المهيب وأعمدته الأحادية الشاهقة، وقاعاته المزدانة بنوافذ مصمتة، فغدا مسرحاً مقدساً للمراسم الملكية والشعائر الإلهية، حيث امتزج سلطان الحكم بسلطان الإيمان. وما يزال بين جدرانه نحو ألف نقشٍ محفوظ - من توسّلات بالخصب إلى سجلات الملوك - تشكّل جميعها صدىً حيّاً يتردّد بين الماضي والحاضر، شاهداً على أن السلطة والعقيدة في سبأ كانتا وجهين لعظمة واحدة.

ومع ذلك، لم تذكر أيٌّ من تلك النقوش اسمها صراحةً، إذ احتفظ الحجر السبئي بسجلاته للرجال - للملوك والمكاربة الذين خُلّدت مآثرهم بخطّ المسند. غير أنّ بعض الباحثين يرون في صمت جدران المعابد أثراً للشمس ذاتها - إلهةً أو ملكةً كان اسمها أسمى من أن يُنقش. وفي التراث اليمني اللاحق الذي دوّنه الهمداني، يرد ذكر شمس بوصفها شقيقة الملكة لميس، الأمّ الكبرى لأولى سلالات سبأ، ليغدو ذلك وشوشةَ ذاكرةٍ بعيدة، تمتدّ كخيّط يصل ما انقطع بين قرونٍ طمرها النسيان.

أن نتخيّل شمس وهي تمشي في تلك القاعات، هو أن نستشعر حضورها بين تلك الأعمدة، وصوتها يتردّد في ظلال السواري، حيث كانت التماثيل المهيبة تقف يوماً، والنذور البرونزية تلمع تحت ضوء المشاعل.

وتضعها الدراسات الأثرية في زمنٍ حافلٍ بالتحوّل؛ إذ كانت آشور تنهض في الشمال، فيما تمدّدت سبأ في الجنوب، موحِّدةً جيرانها تحت حكم ملوكٍ مثل «كريب إيل وتر»، الذي خُلّدت فتوحاتُه على حجارة صرواح. وفي هذا العالم المزدهر بالبُنّاة والتجّار، كانت ملكةٌ تحمل اسم الشمس تجسّد كِلَا البعدين -الإلهيّ والسياسيّ- فهي النور الذي يرشد طرق البخور، والروح التي توحِّد شعبها على رجاءٍ لا يخبو.

يتلألأ عهدها عبر ألواحٍ مكسورة وأحجارٍ أرهقها الزمن، غير أن حضورها لم ينكسر قط - بل ظلّ كاملاً، شامخاً، خالداً. إن استذكارها هو استحضار زمنٍ كانت الملكاتُ فيه لا يمشين في أروقة الأسطورة، بل في فيض الحقيقة، يجمعن بين دهاء العقول ورقّة القلوب.

وإن لم يُنقش اسمها على صخور سبأ الجرانيتية، فقد طُبع على ألواح الطين الآشورية - الملكة شمسي، «شمس الصحراء»، المدوَّنة بين أعظم حكّام عصرها. لم تكن أسطورةً تُروى، بل حاكمةً من لحمٍ وروح، فاوضت بين قوى الإمبراطوريات ومشيئة الآلهة، وسارت على الخيط الرفيع بين الحرب والبقاء.

قصتها لم تُنقش في الشذرات فحسب، بل حُمِلت بكمالها عبر الزمن. كانت ملكة أضاء اسمها جدران المعابد، جمعت بين المذبح والبستان تحت نورها. وكانت وصية على الماء والحجر، تُحوّل الصحراء إلى جنّة برؤيةٍ وعزم. وكانت سيّدةً ظلّ إرثها، المنقوش عميقاً في الأعمدة والجدران، يتحدّث عبر الألفيات - مهيباً، متألّقاً، باقٍ كالشمس التي حملت اسمها.

الملكة أروى الصليحي

ثمّ في عصر الإسلام، حين أشرق نور النبوّة على صحارى الجزيرة الشاسعة، نهضت امرأة بوحيٍ وإلهام - الملكة أروى الصليحي، الملكة الحرّة.

كانت سيّدة بكل ما تحمله السيادة من معنى. لم يكن بلاطها مركزاً للحكم وحده، بل منارةً للعلم، ومجْمَعاً لاهوتياً، وميداناً للشعر والدبلوماسية. لم تحكم من وراء ستر، بل ارتقت المنبر بجرأة، وأصدرت الأوامر، وسنّت السياسات، وشيدت قصور الحكمة. ومسجدها، المهيب الباقي، ليس صرحاً من حجرٍ وتناظرٍ معماري وحسب - بل شاهداً على القداسة، وعلى الإرث، وعلى امرأة حكمت لا بالقوة وحدها، بل بالبصيرة أيضاً.

إن دار العزّ في جبلة - القصر الذي اتخذته مقرّاً - ما زال يهمس بأصداء خُطَبِها وأوامرها. بُني نحو عام 1087م حين نقلت عاصمتها من صنعاء، واحتوى على ما يقارب 365 غرفة، شاهداً على طموحٍ معماري وعلى إيقاع الزمن في آنٍ واحد، كأنّ كل غرفة تمثّل يوماً في السنة، وكانت هي تمضي بينها بانسياب، حاملةً في خطاها وقار الحُكم ورشاقة التدبير.

وحين حوّلت ذلك القصر إلى مسجد، غدا أحد المراكز المقدّسة في اليمن. وقد اكتمل بناؤه ما بين عامي 1056 و1111م، حيث يفتح فناءه على ممرات هامسة تصطفّ على جانبيها أربعة صفوف من الأعمدة - بعضها ثُمانيّ أنيق، وبعضها مستطيل مهيب - تحمل سقوفاً خشبية شاهقة، وتحمل في طيّاتها ثِقل العبادة والذاكرة معاً. أما ضريحها، القائم في الجهة الشمالية الغربية والمنفصل بأمرٍ منها، فيحتضنها بين محاريب رشيقة ونقوش كوفية، مؤطّراً قبرها بوقارٍ صامت.

ترتفع مئذنتا المسجد كحارسين للإيمان - إحداهما ناصعة بالبياض، والأخرى مطبوعة بحمرة النار، في ثنائية بصرية تعكس امتزاج السلطة الروحية بالقوة السياسية التي جسّدتها. أما المحراب، المزدان بخط كوفي صارم والمعلّقة عليه آيات التسليم واليقين، فيطلّ نحو القبلة كخطبةٍ صامتة تنتظر أن تُسمع.

لقد غدا قصر دار العزّ الذي شيّدته الملكة أروى موضعاً تلتقي فيه شعائر العبادة

بالمشورة. فمسجدها، المهيب الباقي، ما زال يقف شاهداً لا على التناسق المعماري فحسب، بل على القداسة أيضاً. وحين حوّلت مقرّ سلطانها إلى بيتٍ للعبادة، علّمتنا أن الحكم قد يكون دنيويّاً وأخرويّاً في آن، وأن أُسسه لا تُشيَّد على الهيمنة، بل على التفاني والإخلاص.

لم تكن ظلّاً لبلقيس، بل كانت مرآتها.

كان عهد الملكة أروى آخر أنفاس اليمن الذهبية المضيئة قبل أن يخيّم الصمت، وآخر ما دوّى من مجد الملكات الأمهات. دعاها الناس ملكة سبأ الصغرى، غير أنّ حقيقتها كانت شامخة، عظمى، تخفي الجلال في رداء التواضع. تشرّبت فكرها بآيات القرآن، ورسمت به عمارة أحلامها. وجرت وصاياها في العيون والآبار، وتفتّحت في البساتين، وارتقت في مآذن المساجد، وتردّدت أصداؤها في قلوب الشعراء.

وبداخلي يقينٌ أن هؤلاء الملكات ما زلن يمشين. أحياناً، حين يعلو القمر وينساب النسيم بين أعمدة مأرب المحطّمة، يُقال إنك تستطيع أن تسمعهن - وقع أقدام الملكات، وخفّة أثواب الحرير، وهمس المشورة تحت النجوم. إن الرمال تتذكر. والحجارة تتذكر. حتى الريح هنا تحمل ذاكرة.

لميس. شمس. أروى. بلقيس.

إن أسماءهن لم تغب، بل حُرست. نُقشت في أعماق الأرض، وحُفظت في بطون الوديان وقمم الجبال، وسرت في دم كل امرأة تجرّأت أن تقف، أن تنطق، أن تقود.

وإن وجدت نفسك يوماً في اليمن، تسير بين أطلال محرم بلقيس عند الفجر، فقد تشعر به - سكونٌ ليس بخواءٍ، وصمتٌ يُصغي إليك. قد تستشعر أرواح الأسلاف يرقبونك، لا كأشباح، بل كحُرّاس.

فالصحراء لا تنسى بناتها.

إنها تُتوّجهن بضوء النجوم، وتدعوهن إلى العودة.

الفصل العاشر

حين تفصح الأرض عن أسرارها في الأحلام

أدركت منذ زمنٍ أنّ الأجوبة التي أبحث عنها قد لا تأتي عبر الخرائط أو المخطوطات. فلقد انصرف علماء الآثار في هدوء، وجيوبهم خاوية من البرهان. لم يبقَ بين يدي سوى وثيقة ماكدونالد - خيط يتيم في نسيج أحسّه ولا أراه. أعود إلى غرفتي الساكنة، ورائحة الرمل لا تزال عالقة بثيابي، وأسماء الملكات تتردّد داخلي كريحٍ تعبر بين الصخور.

أحاول أن أتجاهل الأمر...

لكنني لا أستطيع. كأن أصواتهن عالقة في أضلعي.

فإن لم يظهر الحق في هذا العالم، فلربما أنه ينتظر في الفراغات بين العوالم.

لذا بدأت أنظر في مكان آخر. أدرت ظهري لأضواء المختبر الباردة، ومضيت إلى وهج أعمق - وهج الشمس وهي تغيب بين نخيل البلح. جلستُ حافيةً على أرض دافئة. وضعت كفّي على حجارة عتيقة. وأصغيتُ إلى الصحراء وهي تتنفس.

كان أسلافنا يعرفون ما نسيناه.

أن الحكمة لا تُقرأ فقط، بل تُحَسّ. إنّها تنهض كضبابٍ من الرمل، وتعلو كالصقر، وتندفع في صرخته. فالأرض ليست صخراً ميتاً تحت أقدامنا. إنّها حيّة، تتذكر، وتنطق.

لكننا ربما نسينا كيف نصغي.

نرى أنفسنا منفصلين عن الطبيعة، غير أن الحقيقة أننا الطبيعة ذاتها. وحين نفقد صلتنا بالأرض، نفقد صلتنا بأنفسنا.

بدأت أحلامي تتبدّل. لم تعد لياليّ مضطربة، بل غدت مليئة بصورٍ هادئة ترافقني حين أستيقظ - انحناءة كثيب، خرير ماء، نظرة ثابتة لنساء لم ألتقِ بهن قط، لكنني أعرفهن بطريقة ما.

يقول العارفون إنّ الحقيقة تتجلّى بوجوه شتّى، وليس دائماً عبر الكتب أو الأطلال، بل فيما نحمله في أجسادنا، وفيما تكشفه لنا الأرض حين نبطئ لنصغي. فالأمر ليس في مطاردة الرؤى، بل في الانتباه - في التنفس، في الإصغاء، في فعل الجلوس ببساطة حتى

يتبدّد الضجيج.

يبحث علماء الآثار عن شظايا مكسورة؛ أمّا أنا فأتعلم أن أجلس مع ما هو كامل. حجر بين كفّي، وعطر الرمال بعد المطر، وإيقاع قلبي المتزن في الصمت. هذه أيضاً سجلات، وهذه أيضاً أرشيفات - ليست مكتوبة بالحبر، بل حيّة في الحاضر.

وهكذا أواصل الإصغاء، لا للأصوات بين العوالم فحسب، بل لما هو هنا: للأرض تحت قدمي، وللريح وهي تلامس بشرتي، ولنبض دمي. قد لا تأتي الإجابات كهَمز الوحي، لكنها تأتي كحضور يتجلّى.

في أحد أحلامي، كنتُ أسير على رمال مليحة العتيقة. والنجوم فوقي لم تكن أبراجاً سماوية، بل رموزاً، وكنت أستطيع قراءتها. تقدّمت نحوي امرأة يغشاها الضوء والغبار، على رأسها تاج من جذور منسوجة وكوارتز متلألئ. لم تنطق بالكلمات، لكنني فهمتها: «أنتِ لا تحفرين في المكان الخطأ، بل في البُعد الخطأ».

وفي حلم آخر، وجدت نفسي في جوف جبل، تحيط بي أناشيد الأرض. رأيت نقوشاً على جدران الكهوف - خيولاً، وشموساً، ونساءً بأذرع ممدودة. لمستها، فإذا بها تنبض تحت أصابعي، حيّة. قالت لي إن الذاكرة ليست خطاً مستقيماً، بل مساراً حلزونياً، وأن الماضي ليس وراءنا، بل تحتنا، مثل نبع ينتظر أن يتفجّر.

استيقظتُ باكيةً. لا من خوف، بل من معرفة.

فهذه ليست مجرد أحلام. إنها رسائل.

الأجوبة التي أبحث عنها قد لا تُكتشَف، بل تُستدعى من الذاكرة. ليست في صمت متحف، بل في همس الغسق. ليست نصاً، بل نسيجاً. ليست محفورة في حجر، بل مرسومة في أخاديد لحاء شجرة. ليست مطبوعة في وثيقة، بل مكتوبة في أثر نملة.

إن الصحراء ليست «ربعاً خالياً»، بل مكتبة حيّة. وملكات مليحة لم يغبن؛ إنهن فقط يُصغين، ينتظرن، يرقبن - من وراء الحجاب.

وببطء بدأت أشعر بذلك.

إن حضورهن لم ينطفئ.

إنه في كل مكان.

فأعاهد نفسي - لا أن أترك البحث، بل أن أبدّل طرائقه. أن أوجّه بصري إلى الداخل،

وإلى الأعماق، وإلى الآفاق. أن أوقن بأن الأرض لا تختزن الأحافير وحدها، بل تحتضن الذاكرة، وتصون الأسطورة، وتخفي الحقيقة في طياتها.

والحقيقة، حين تُدفن في جسد الأرض، لا تموت.

بل تُصبح مقدسة.

تُصبح حلماً.

تُصبح قدراً.

لقد علّمني أسلافي أن أبصر المعاني السّامية في تفاصيل الحياة اليومية، أن أستشعر نبض الحياة في سكون الحجارة، وهمس الأشجار، وتحوّل الرمال تحت قدمي. لقد نادوني إلى صلة أعمق بالأرض التي تحتوينا وتغذّينا وتنهض بنا، ودعوني إلى أن أوجّه بصري لا إلى الخارج وحده، بل إلى الداخل أيضاً، وأن أستعيد طرائق القدماء؛ أن أُصغي إلى الصدى الكامن في أعماقي.

يتحدث الصوفيون عن الجمال والجلال كوجهين لتجلّي الله. وفي الفكر الصوفي، لا يُنظر إليهما كمعبودات أو قوى متعارضة، بل صفتان للواحد، يسطع بهما الوجود في تكامل بديع.

فالجَمال هو وجه البهاء، وفيه تكمن الرقة، والحنان، والانسجام، والصفات التي تستميل القلب بعذوبتها وتلهم المحبة. وأن تنظر بعين الجمال هو أن تدع العالم يعلّم قلبك، فالحجارة تعلّم الصبر، والأشجار تعلّم السكينة، والرمال تكشف عن بديع صُنع الله. في هذا المقام، لا شيء يُعدّ «عاديّاً»؛ فريح الصحراء يمكن أن تُحسّ كرحمة، وصمت الجبل يُتلقّى كأنغام موسيقية - ليس مجرد زينة، بل وحياً على هيئة تجلٍّ إلهي.

أمّا الجلال، فهو وجه العظمة المهيبة - المهابة والجبروت والصرامة. هو تجلّي الله لا في الرقة واللين بل في العظمة التي تهزّ الأرواح لتستيقظ من غفلتها. إنّه صاعقة تشقّ السماء، وعاصفة تُطوّع الأشجار، وجبل شاهق يطأطئ أمامه كبرياء الإنسان - تلك ليست سوى لمحات من الجلال. وليس ذلك قسوة، بل هو الحق في صورته المهيبة: جلال يجرّدنا من الأوهام، ويذكّرنا بصِغَرنا في حضرة الله المحيط بكل شيء.

يذكّرنا الأولياء أن الجمال والجلال ليسا نقيضين، بل مرآتان لحقيقة واحدة. فالنار التي تلتهم هي عينها التي تشعّ بالنور، والعاصفة التي تثير الرعب هي نفسها التي تجلو

وتطهّر. والسير في الطريق هو أن نتعلّم كيف نتلقى كلا الوجهين بخشوع: أن ننحني خاضعين أمام الجلال، وأن نرتوي من فيض الجمال، موقنين أن كليهما آيتان من آيات المحبوب الأعظم.

ويصف ابن عربي العالم بأنّه مرآة تنعكس فيها صور الأسماء الإلهية، والإنسان هو جلاء المرآة الذي يُظهر ذلك الانعكاس صافياً جليّاً. فإذا صُقِل القلب تجلّت لنا صفات الله في كل مكان - في رحمة المطر، وفي قوة العاصفة، وفي سخاء الواحة - وكلها شواهد على تجلّيات الحقّ سبحانه وتعالى في خلقه.

ولكي أجد الأجوبة التي أبتغيها، أدركت أنّ عليّ أن أستحضر تلك المعاني السامية. ولأفعل ذلك، فلا بد أن أمضي وحدي. هذه رحلتي، وطريقي الباطنيّ، وعليّ أن أخطوه بقدمي، وأحمله بقلبي، وأكشف معالمه بروحي. والعزلة ليست حملاً ثقيلاً، بل صمتٌ لا بدّ منه.

قال الصوفيون منذ القدم إن العزلة ليست هجراً، بل اجتماعاً. يسمّونها «خلوة»، أي أن يبتعد المرء عن صخب العالم ليجلس في حضرة الحبيب.

ويُذكّرنا الرومي، قائلاً: «قد تختلف المصابيح، لكن النور واحد». ويقول أيضاً: «اصمت، ليُكلمك الرب الذي وهبك اللغة». فالمضي منفرداً ليس خواءً من الصحبة، بل اقتراباً من ذلك النور الأوحد حتى يغمر السمع والبصيرة.

العزلة ليست فراغاً؛ إنها الصمت الخصب الذي تولد منه أعمق أجوبة الروح.

تذكرتُ عبارة عذبة قرأتها يوماً للكاتب الفرنسي أنطوان دو سانت إكزوبيري في كتابه الخالد «الأمير الصغير»، وقد استلهمه من القصص الشفهية المتوارثة في التراث الأمازيغي: «لطالما أحببتُ الصحراء. يجلس المرء فوق كثيبٍ من رمالها، فلا يرى شيئاً، ولا يسمع شيئاً. غير أنّ شيئاً ما يخفق في الصمت، ويتوهج...».

تعلّقت تلك الكلمات في صدري كجمرة تتوهج في صمت. نعم - ثمة شيء يلمع في الصمت، إن تجرّأنا أن نجلس طويلاً بما يكفي لنراه.

حين أومأت البومة بعينها

وهكذا عقدت العزم أن أخوض حجّاً أطول، منفردة، إلى قلب الصحراء، مدفوعةً بذلك النداء العميق في روحي. جمعت أشيائي بعناية، ولم أحتج إلى الكثير: شالٌ يدفئني في ليالي الصحراء القاسية، وتميمة ناب الذئب - ذلك الحرز الروحي الذي رافقني في طقوس عبور لا تُحصى. قدت سيارتي نحو مليحة قبل الغروب، والطريق يمتدّ أمامي كأنّه صلاة هادئة، حتى بلغت هضبة منبسطة تعلو قمة وحيدة.

وحين انحنى آخر ضوء ذهبي على وجه الأرض، جلستُ على حافة الجرف، وأمامي فضاء فسيح يتدلى بلا نهاية. همستُ بدعاءٍ: إلى الأسلاف، إلى الأرض، إلى الأرواح، إلى الإنسانية جمعاء. وبدأته كما تُستهلّ كل الصلوات: بسم الله الرحمن الرحيم - لتصعد كلماتي أولاً إلى المنبع الأصيل لكل وجود.

كانت تلك عادةً لا أبرحها، فكلّ رحلةٍ إلى الصحراء تبدأ بهذا الدعاء. أقدّم شكري وامتناني لمن ساروا قبلنا، وللأرض التي تحتضننا وتغذّينا، ولكل الكائنات، ما نرى منها وما لا نرى، التي تتقاسم معنا هذا الفضاء الروحيّ. أصلّي بخشوع، كلماتي محمولة على أنفاس الريح، منسوجة في تراب الأرض.

وبقلبٍ عامرٍ بالشوق والريبة، طلبتُ من الأسلاف أن يعينوني في هذه المسيرة. أن يسيروا معي، أن يرشدوني، وأن يكشفوا لي الطريق الذي قُدّر لي أن أسلكه.

أتُراني أطارد وهماً لا طائل منه؟ تساءلت. أم أن ثمة شيئاً حقاً هنا، ينتظر أن يُكشَف؟

«أعينوني، أرجوكم»، همستُ في الغسق المتكاثف. «أروني علامة. علامة تدلّ أنني على الدرب الصحيح».

انتظرت. جلست قرابة ساعة أرقب السماء وهي تتبدّل من برتقاليّ متوهّج إلىورديّ خافت، ثم إلى أزرق نيليّ عميق. كانت الألوان بالغة الحيوية، نابضة بالحياة، كأنها ترقص مع السماء نفسها - كأنها كشفٌ سماوي بطيء. كان المشهد يخطف الأنفاس. لكن العلامة التي التمستها لم تأتِ. ليس في تلك اللحظة. لم يكن هناك سوى هُتافٍ بعيدٍ لبومة يتردّد من مكانٍ قصيّ. أصغيتُ. وشككتُ. ثم، خابَ أملي، فنهضتُ، أنفض الرمل عن طرف

ثوبي، وبدأتُ النزول ببطء عن التلّ ومصباحي في يدي. ولما اشتدّ برد هواء الليل، توقفتُ أُخرج شالي. وضعتُ المصباح برفق على الأرض، وأخذتُ أفتّش في حقيبتي.

ثم رفعت بصري.

فإذا بومة هناك.

جاثمة على مصباحي. ساكنة، صامتة، تترقب.

تجمّدتُ، وانحبس نفسي في صدري. لم أجرؤ على الحركة. لم يخطر ببالي حتى أن أمدّ يدي إلى هاتفي. وقفتُ فحسب، معلّقة في دهشة، مسحورة بنظرات ذلك الكائن المهيب. نظرت إليّ، ونظرتُ إليها، والوقت يتمدّد كالأبدية. ثم، بميلٍ رشيق من رأسها، وبغمزة مقصودة، انطلقت محلّقةً - جناحاها منبسطان وصوتها غائب، وذابت في عتمة سماء الصحراء.

«هذه علامتي!» هتف قلبي، يخفق باليقين.

لقد سمعني الأسلاف. لقد استجابوا. كانوا قد منحوني العلامة من قبل - في هُتاف البومة الأول المتردّد من بعيد. لكنني لم ألحظ. أهملتُه، ظنّاً مني أن العلامة ستكون شيئاً آخر، أكثر صخباً، أكثر وضوحاً. فأعادوها إليّ مجدداً، لكن هذه المرّة في صورة لا تقبل اللبس. غمرني الامتنان. لم يتخلّوا عني. كانوا صبورين. انتظروا حتى أبصر. وحين أبصرتُ، تذكّرتُ سطراً آخر كان قد أيقظ شيئاً عميقاً في داخلي ذات يوم - كلمات للشاعر و. ب. ييتس: «العالم مليء بعجائب ساحرة، تنتظر بصبر أن تتيقّظ حواسّنا وتشتدّ بصيرتها».

وحقّاً، كان ذلك سحراً. فالبوم لا يألف البشر، ولا يقترب أبداً من النور. إنّهم حُرّاس الظلال وحافظو الأسرار. لم يكن هذا طائراً عاديّاً، بل رسولَ روحٍ جاء من عوالم أخرى، يحمل بشارة جليّة ومُلهِمةً. كنتُ قد طلبت الهداية، فإذا بي أنالها. وها أنا الآن أمضي بعمق في الصحراء، مصباحي يضيء إلى جواري، لكنّ النور الأشدّ سطوعاً قد اشتعل في داخلي.

لم أشعر بخوف. البتّة.

لقد أظهر لي أجدادي أنهم قريبون مني، يراقبونني، ويرشدونني، ويحمونني. كل خطوة خطوتها بعدها كانت مشبعة بصفاء متجدّد، كأنني أمشي لا على الرمل وحده، بل على صلوات كل الذين سبقوني. شعرت بقوتهم تسري في أعماقي، وبحكمتهم في أنفاسي،

وبحبّهم في كل نبضة من قلبي.

لسنا وحدنا أبداً.

سرتُ لما خُيّل إليّ أنّه ساعة كاملة، تاركة لقدميّ أن تقوداني عبر سكون الصحراء المعتمة، حتى قررت أن أجلس وأشعل ناراً تدفع عني البرد. كنت قد تركت بعض الحطب في المكان المرتفع حيث أوقفت سيارتي، فعُدتُ إليه، أتعقّب أثري في الرمل تحت سماء مرصعة بالنجوم. وحين وصلت، رتّبت الحطب بعناية، وأضرمت النار، وجلست أمامها، أحدّق في ألسنتها المتراقصة وهي تتشقق، والدخان يتصاعد ملتفاً في الهواء. التحفتُ بالشال من جديد، وتذكرتُ وصايا أجدادي - كيف أجلس إلى النار كأنها روح حيّة، ليست دفئاً عابراً ولا نوراً فحسب، بل رفيقة حكيمة، وحضوراً عتيقاً يمتد من أعماق الزمن.

جلستُ أمام النار، وجسدي ينوء بألم السكون، وذهني يدور كصقر حائر لا يهدأ. كان الصمت يطبق عليّ من كل صوب، كثيفاً حتى بدا لي كأنّه لا يُحتمل. أردتُ أن أتحرّك، أن أستلقي، أن أهرب من ثِقل الانتظار.

عندها تسرّبت إليّ عبر القرون كلمات حافظ الهادئة:

اجلس هناك الآن،

لا تفعل شيئاً،

فقط استرح...

تحدّثت النار بتشظّيها، وتنهدت الصحراء بأنفاسها، فخفَّ اضطرابي شيئاً فشيئاً. وأدركتُ أن السهر لم يكن صراعاً لكسر الصمت، بل لعبوره - حبّة رملٍ إثر حبّة، ونَفَساً إثر نَفَس - حتى أبلغ الينبوع الكامن في أغوار قلبي.

الرمل يتذكّر

جلست بهدوء، أترك أنفاسي تستقر، ثم مددت يدي وأخذت ألمس الرمل بأصابعي، أتركه ينزلق ببطء بين ثناياها. ثم دفعت كفّي أعمق في باطن الأرض. كان الإحساس عجيباً، عابقاً بالسكينة، حميماً حدّ الدهشة. شعرت بكل ذرّة رمل وهي تتحرك حول جلدي؛ أسرني تماماً ملمسُه، برودته، ذاكرته العتيقة. فقلت في نفسي: كم يبلغ عمر هذا الرمل؟ منذ متى وهو هنا؟ لقد شهد الكثير، حمل قصص الأرض وأحداثها، حفظ ذاكرة ما وقع عليها. وذات يوم، سأغدو أنا أيضاً رملاً.

تأصّل ذلك الخاطر في داخلي عميقاً. لم يكن موحشاً، بل باعثاً على الطمأنينة. كان تذكيراً بالانتماء، بأن لا شيء يضيع أبداً، بل يتحوّل في صور أخرى. وأخذتُ أعبث بحبات الرمال كما يفعل الأطفال، بفضول بريء وانطلاق عفوي.

وحين أصغيت أكثر، تذكرت كيف أنّ حتى أصغر الحبيبات ليست صامتة. إنها تستجيب للاهتزاز، وتتحرك مع الصوت. فالكلمة اليونانية kyma تعني «موجة»، ومنها جاء مصطلح cymatics - العلم الذي جعل الصوت مرئياً. وفي القرن الثامن عشر، قام عالمٌ ألماني يُدعى إرنست كلادني بنثر رملٍ ناعم فوق صفائح معدنية، ثم مرّر قوس كمان على أطرافها. ولدهشة كل من شهد، قفز الرمل ليشكّل دوائر ونجوماً وشبكات في أنماطٍ وُلدت من الاهتزاز، وصارت تُعرف بـ«أشكال كلادني». كانت تلك التجربة برهاناً على أن الصوت لا يُسمع فقط، بل يُرى في المادة.

وبعد قرون، مضى طبيبٌ سويسري يُدعى هانز جيني بهذا العمل إلى أبعد. فباستخدام مكبّرات الصوت، وضع مساحيق وسوائل فوق صفائح مهتزّة، وصاغ لهذا المجال اسم السيماتكس (cymatics). وتحت تردّدات معيّنة، كانت المساحيق تتناثر في فوضى؛ لكن عند التردّدات الرنينيّة، كانت تنتظم في ماندلات بديعة، وحلزونات، وشبكات، حتى بدت كأنها صدى لندف الثلج، وأصداف البحر، والهندسة العميقة للحياة ذاتها.

تخيّلتُ رمال الصحراء بين يدي كأنها إحدى صفائح كلادني. كدتُ أرى الحبيبات وهي تتحرك، تصطفّ مع كل همسة ريح، مع كل نبضة صوت من جوف الأرض. عندها أدركتُ

أن الصحراء كلها آلة سيماتيكية عظيمة: كل هبّة ريح، كل صرخة صقر، كل صلاة محمولة على النَفَس، تعيد تشكيلها حبّة بعد حبّة، خطّاً إثر خطّ، كما كانت تفعل منذ فجر الزمن.

يتذكّر الرمل لأنه يُصغي دوماً. يستجيب، ويصطفّ، ويغدو سجلاً حيّاً للاهتزاز. وذات يوم، حين أعود أنا أيضاً إلى الرمل، سأدخل في ذاكرته القديمة، جزءاً من الأنماط التي تتحول وتتلألأ تحت الرياح، ذرّة في أغنية الصحراء الأبدية.

غرستُ يدي أعمق فأعمق في الأرض، كأنني أُجْذَب إلى حوارٍ صامت معها ذاتها. وكان الأمر أشبه برسالة تتكشّف رويداً رويداً، كأنما ذاكرةً الأسلاف تتسرّب عبر أطراف أصابعي.

كلما مضت يداي أعمق، صار الرمل أكثر رطوبة وكثافة. أدركت أن الأرض تخزن ماءها في طبقاتها الداخلية، تحميه من لهيب الشمس. وحين حفرت أكثر، شعرتُ بحرارة الرمل تتغير: صار أبرد، أثخن، أقدم. جمعت حفنة بين كفّي، عجنتها كرة كما يُعجن الخبز، ثم رفعتها نذراً للريح. تركتها تأخذها، تتلاشى بين أصابعي. ثم بدأت من جديد. كرةً بعد كرة، حركة إثر حركة، نفساً إثر نفس.

غمرتني تجربة الإيقاع حتى استوعبتني كليّاً. لم يعد هناك فكر، ولا إحساس بالزمن، لا شيء سوى ملمس الرمل في يديّ، ومتعة التشكيل ثم الإفلات، الخلق ثم الترك. كان جسدي يتحرّك في تناغم مع هذا الفعل. لم أكن أنا من أؤدي العمل - بل كان هو من يؤدّيني. كان الرمل يوجّهني، يعلّمني، ويذكّرني بما غاب عن ذاكرتي.

ثم، في صمت تلك اللحظة المباركة، سمعتُ صوتاً - رقيقاً، واضحاً، مشبعاً بالذكرى. كان يقول: «لقد نسينا كيف نستخدم أيدينا. في يديكِ سحر. عليكِ أن تتذكّري كيف تستخدمينها. في الماضي كنّا نصنع كل شيء بأيدينا. أمّا الآن فلم نعد نستخدمها. اصنعي الخبز بيديكِ. امزجي الطحين بالماء بيديكِ. اعجني العجين بيديكِ. ضعي طاقتك فيه. افعلي ذلك مع بناتك. ثم تناولن الخبز معاً».

كان صوتاً يتخطّى حدود الزمن، صوتاً متدفّقاً من السلالة الجارية في دمي. وكانت الرسالة بسيطة، غير أنّها غاصت عميقاً. لم تكن عن الخبز وحده - بل عن الحياة، عن الحضور، عن التجسّد. عن أن نغرس الإخلاص والحب في تفاصيل حياتنا، في اللمس والعمل والعادات اليومية. كانت عن مداواة القطيعة، وعن تذكّر من نحن.

يا لها من رسالةٍ بليغة من أجدادي - ما أعمقها وما أبهى معانيها. تسلّلت حكمتهم إليّ على أجنحة الريح، مشبعة بعبق الدخان والتراب، لتذكرني أنني لست وحيدة قط، وأنني على الدوام في كنف الهداية. وأن كل إيماءة وحركة يمكن أن تغدو وِصالاً متى ما اقترنت بالمحبة.

ومنذ أن تلقيّت تلك الرسالة، غدت صناعة الخبز عادة لا تنقطع في بيتي - شيئاً يتجاوز بكثير مجرد إعداد للطعام. صار نذراً، وحلقةً من الأُنْس، وفعلاً مشبعاً بالقدسيّة أمارسه مع بناتي: نمزج الطحين بالماء بأيدينا العارية، نضحك حين يلتصق العجين بأصابعنا، ونعجن ونقلِّب برفق. نتحدث، ونغني، ونبكي، وننفخ في العجين كل ما نحمله من حكاياتنا - أفراحنا، صلواتنا، أشواقنا. كنّا نخبز، ثم نكسر الخبز معاً، كما أخبرني الصوت. وفي تلك اللحظات، كنت أشعر بحضور جدّاتي، وأيديهن تتحرك مع أيادينا عبر الزمن. وكان كل رغيف نخرجه من الفرن أشبه بمعجزة صغيرة - تذكرة بأن ذاكرة الأسلاف لا تسكن الطقوس أو الأساطير وحدها، بل تكمن في فعل الخلق ذاته: في الصنع، واللمس، والحب. وهكذا اشتعلت ثورة هادئة من أيدينا.

وقد كتبت توكو-با تيرنر في كتابها «الانتماء: استعادة الطريق إلى ذواتنا»: «حين تتعلّمين أن تصنعي الأشياء بيديكِ، تبدئين في إيقاظ وعيٍ بجمال الأشياء وقيمتها في حياتك. إن الصنع باليدين يُعلّمنا أهمية التأني والتمهل في مقابل الاختصار والتعجل. إنها تكشف لنا، من خلال الصبر والمهارة الكامنة في أيدينا، ما الذي يدخل في تكوين الأشياء».

وهذا هو جوهر الصنعة، كما تشرحه تيرنر: فمن خلال الفعل البسيط لصنع الأشياء، ننتظم مع إيقاع الحياة ذاتها. فكل حركة مقترنة بالصبر تغدو شكلاً من أشكال التبجيل، طريقةً لتكريم الخلق عبر محاكاته. إن العمل بأيدينا يذكّرنا بأن الحياة تُبنى ببطءٍ ووعي، جزءاً بعد جزء. وفي هذا الإيقاع، يتحرّك السر فينا بصمت، مثيراً لذكرياتٍ مطمورة في أعماق عظامنا. ومع انشغال أيدينا بالعمل، يلين العقل ويهدأ، فيفسح المجال لإصغاء أعمق. فنبدأ نستشعر انتماءنا للنسيج الأكبر للوجود، حيث كل شيء - من سرخس يتفتّح، ونرجس ينتفخ بوقه، وبرعم وردٍ يُزهر- يُنشِد الترنيمة نفسها: ترنيمة الإخلاص والتجلّي.

كانت كلماتها صدى لكل ما همس به أسلافي في أذني عبر نار الصحراء: أن الأيادي ليست مجرد أدوات، بل أوعية للذاكرة والدعاء. كل طيّةٍ في العجين تغدو ضرباً من التذكّر، وكل

رغيفٍ ميلاداً جديداً لشعور الانتماء.

قَدَرٌ مكتوب

عدتُ إلى الصحراء وقد بدأ التعب يتسلّل إليّ، فتمدّدت على ظهري فوق الرمل، أحدّق إلى الأعلى. كانت النجوم جليّة في زرقة السماء الداكنة، رغم بضع غيوم رمادية تنساب ببطء كأرواح قديمة تمضي في طريقها. شعُرتُ ببرودة الرمل من تحتي تعانق دفء النار الذي ما زال عالقاً. أطلقت نفساً طويلاً وذبت في حضن الأرض.

وفوقي، بدت السماء نابضة بالحياة، كأنها قُبّة هائلة من نقاط مضيئة ومسالك خفيّة، من ذكريات ورسائل. مددت أصابعي أتلمّس النجوم، أرسم بينها خطوطاً لا تُرى، وأخطّ أشكالاً من خيالي وأتبع مساراتها. أعجبتني عَظَمَتُها - لا بوصفها أجراماً متوهّجة فحسب، بل كحَمَلةٍ للقصص، ورفقاءٍ للباحثين والرحّالة على مرّ آلاف السنين.

لقد تأمّل أسلافنا هذه النجوم لا بدافع الفضول وحده، بل بتبجيل أيضاً. لم يفصلوا بين العلم والروح، بل رأوا فيهما نسيجاً واحداً. كان لكل نجم عندهم غاية ومكان واسم. استعانوا بالنجوم في الملاحة، وفي الزراعة، وفي الصلاة، وفي الشعر. سجّلوا حركاتها بدقة مدهشة، خطّوها في الكتب، وحفظوها في الذاكرة، ونسجوها في الأساطير. فمن الدبران إلى منكب الجوزاء، لم تكن هذه الأنوار السماوية بلا أسماء يوماً - بل حمل كلٌّ منها حكاية توارثتها الأجيال.

خطر ببالي نجم الدبران، العين الحمراء المتّقدة في كوكبة برج الثور. اسمه مأخوذ من العربية «الدَّبَران» أي «التابع»، لأنّه يظهر كأنه يتبع الثريّا في السماء. تخيّلت البدو يرقبونه وهو يشرق في ليل الصحراء، يقرؤون في ظهوره إيقاعات العام، وتخيّلت العلماء في دمشق وبغداد يرسمون مساره بأيدٍ ملطّخة بالحبر تحت وميض المصابيح الزيتية.

ثم وقعت عيناي على نجم منكب الجوزاء، النجم الذي يحدّد كتف الجبّار، والمسمّى في العربية إبط الجوزاء أي «الإبط المركزي». وكان الجبّار نفسه يُسمّى الجوزاء، أي الشخصية المركزية. ابتسمتُ لتلك الصراحة الأرضية في التسمية - كيف أنّ القدماء لم يكتفوا برؤية تشكيلات مجرّدة في السماء، بل أبصروا كائنات: عمالقة، ومحاربين، وإلهات. أضفوا عليها هيئةً بشرية، نَفَساً، حركة، ومعنًى.

وما زالت كثير من النجوم التي نعرفها اليوم تحمل أسماءها العربية: رِجل الجوزاء (قدم الجبّار)، والنسر الواقع، والطائر، والذَّنب، ذنب البجعة في كوكبة الدجاجة. حتى درب التبّانة كان له اسم - «الدرب اللبّاني»، أي الطريق اللبني. غير أنّه عند أهل الصحراء لم يكن مجرّد مجرّة، بل درباً يشقّ السماء، يقود السائرين هادياً لهم عبر المجهول.

تخيّلتُ كبار علماء الفلك في العصور الإسلامية الذهبية، من أمثال عبد الرحمن الصوفي، الذي صنّف النجوم في كتابه البديع «صُوَرُ الكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ»، جامعاً بين المعرفة اليونانية والمشاهدات العربية؛ وَالْبِتَّانِي الذي شكّلت حساباته ملامح علم الفلك الأوروبي؛ والزرقالي الذي ابتكر آلاتٍ تقيس الزمن بضوء النجوم. لم يكونوا مجرّد علماء؛ بل كانوا متصوّفة الكَون، نذروا أنفسهم للدقّة كما للدهشة.

وبينما كنتُ أحدّق في السماء، أدركت أنني أنظر بعيونهم، وأستعيد شيئاً قديماً خالداً. هذه النجوم هي نفسها التي رآها أجدادي، وسمّوها، وهمسوا إليها في ليالٍ كهذه. كدت أسمع أصواتهم في الريح تتحدّث عن سُهيل، نجم الجنوب الهادي، وعن سهيل اليماني، منارة المسافرين، وعن فم الحوت - كل واحد منهم شخصية في حكاية السماء الأبدية.

شعرتُ بصغري، لكن ليس بانعدام القيمة، بل كجزءٍ من شيءٍ عظيمٍ وسامٍ. لم تكن النجوم بعيدة، بل كانت من أهلي. كانت جزءاً من نسبي، من النفَس نفسه الذي يسري في الرمل، في النار، في يديّ. وعلمت حينها أن ملكات مليحة أيضاً قد نظرن إلى هذه النجوم عينها. ربما أطلقن عليها أسماء أخرى، ربما همسن لها بدعوات، وربما ما زالت عظامهن تحفظ خرائط الأبراج المنقوشة في سماء الليل.

وبينما كنتُ مستلقية تحت قبّة الليل الخفيفة، بدت النجوم من فوقي تلمع بصفاءٍ أوضح، كأنها تبادلني النظَر. نورها، الضارب في القِدم، كان قد قطع مسافاتٍ لا تُقاس ليبلغني هنا، الآن، على هذه الرقعة من الأرض، في سكينة بحثي عن المعنى. وقلتُ في نفسي: لعلّ هذه اللحظة أيضاً مكتوبة في القدر.

إنه مكتوب في القدر «مُقَدَّر ومَكْتوب». كم مررْتُ بهذا التعبير من قبل، يُقال بخفّة عابرة، كأنه مجرد صورة شعرية. لكن هنا، والنجوم تومض كنبضات قلب بطيئة أزلية، شعرتُ بثقل معناه. أدركتُ - أنه ليس مجازاً فحسب، بل صدى ذاكرة.

بدأتُ أتساءل: كيف كانت هيئة النجوم في اللحظة التي وُلدتُ فيها؟ أيُّ فلك احتواني حين تنفّستُ أول نَفَس؟ وأيُّ اصطفاف سماويٍّ أعلن قدومي إلى هذا العالم؟ سرت

قشعريرةٌ في جسدي وأنا أستحضر الفكرة. لقد رسمت النجوم في تلك اللحظة خريطةً بهيّةً لوجودي - زماني، مكاني، إحداثيّاتي - كلّها مختارةٌ بعنايةٍ ودقّة، جزءٌ من نسقٍ أعظم بكثير. لقد رسمت ملامح كينونتي قبل أن أعي اسمي.

في العالم القديم، لم تكن مجاميع النجوم مجرّد هداة عبر البرّ والبحر فحسب، بل هداة إلى الداخل أيضاً. كان أسلافنا يقرؤونها لا للاستدلال على الطريق فقط، بل لفهم الذات. كانوا يؤمنون بأن مواقع النجوم والكواكب والقمر والشمس لحظة الميلاد تكشف إيقاعات الروح. كانت السماء مرآة. ومن خلال التأمل في نظامها كان المرء يلمح غايته، وابتلاءاته، ومواهبه.

وحين أشرقت النجوم واحدةً تلو الأخرى، تذكرت قول ابن عربي: «تزوّجتُ كلّ نجوم السماء... ثم تزوّجتُ القمر».

في تلك اللحظة، بدا الليل أقلّ غياباً وأكثر ألفة. لم تكن الأضواء البعيدة شهوداً فحسب، بل أرواحاً قرينة، تضيء لي المشهد الداخلي للتذكر والاستذكار.

الحكماء يرفعون أبصارهم إلى السماء، ثم إلى الداخل.

وأتاني اللفظ همساً ليناً تحمله نسمة الصحراء - مكتوب.

إنه مكتوب.

في التراث الإسلامي، تكتسي هذه العبارة قدّسية خاصة، محمّلة بالتسليم والنظام الإلهي. فكلمة «مكتوب» تعني الإيمان بأن كل شيء - كل ورقة تسقط، كل دمعة تُذرف، وكل فرحة تُشرق، وكل صمت يمر - قد سُطّر سلفاً في كتاب الحياة. إن قدرنا مكتوب بيد الله. ومع أننا نسير في الزمن وكأنه يتكشف لحظةً بعد لحظة، فإن النص الأكبر قد كُتب منذ الأزل.

لكن هذا لا يعني أننا أسرى. كلا. بل نحن محفوظون، محاطون بحكمةٍ تفوق حكمتنا أضعافاً. نحن شخصيات في قصة خطّها الرحمن، العليم بكل شيء. فماذا عن النجوم؟ لعلّها علامات الترقيم في هذا المخطوط الإلهي؛ لم تُخلق لتتحكم بأقدارنا، بل لتذكرنا بأن لنا مصيراً.

في تلك اللحظة، استسلمت. ذابت الأسئلة، والبحث، واللهفة إلى الإجابات. لم أعد بحاجة إلى يقين، بل إلى ثقة. ثقة بأن الطريق الذي أسلكه، والهمسات التي أسمعها،

وانشغالي بملكات مليحة، والنار، والرمل، والريح - كل ذلك جزءٌ من القصة التي كُتبت لي.

مكتوب.

ترددت الكلمة في ذهني كتعويذة، كتهويدة، حتى استقرت في أعماق عظامي. ربما كان مقدَّراً لي منذ الأزل أن أكون هنا، تحت هذه النجوم، لأتذكر هذه الحقيقة. ولعل الأجوبة التي أنشدها آتية من الكون ذاته، من النجوم المعلّقة فوقي كخطوط من الخط السماوي العتيق، منقوشة على صفحة الأفلاك، كرسائل إلهية تنتظر أن تُقرأ بعيون يملؤها العجب.

رفعت بصري إلى النجوم من جديد، لا لأتتبع تشكيلاتها فحسب، بل حركتها - حركة مقصودة، عتيقة، واثقة كدوران العالم نفسه. كانت تمضي برشاقة وغاية، كل واحدة منها تسير في درب خُطّ منذ زمنٍ أسبق من أن يُسمّى زمناً. وفي تلك اللحظة، تردّدت في خاطري كلمات هرمان هسّه: «معظم الناس كأوراقٍ ذابلة تتساقط، تعبث بها الريح، ترفرف قليلاً ثم تهوي إلى التراب. لكن قلّةً أخرى كالنجوم، تمضي في دربٍ مرسوم واحد، لا تطالها ريح، إذ تحمل في ذاتها هاديها ومسارها».

كانت كلماته تصدح بالصدق تحت هذه السماء تلك الليلة. حملقتُ في النجوم وتساءلت: لماذا نحن تائهون إلى هذا الحد؟ لماذا يمضي الكثيرون في الحياة كورقٍ في مهبّ الرياح - يتعثّرون، ويتردّدون، غير واثقين أين ينتمون أو ما الذي خُلقوا لأجله؟ لماذا يسهل علينا أن ننسى أننا نحن أيضاً وُلدنا بمسار مرسوم؟ وأن أرواحنا نُقشت فيها خرائط، وطرقات، وانجذابات، وأقدار؟ لو أننا فقط نستطيع أن نراها بوضوح، لو أننا أسكتنا ضجيج العالم زمناً يكفي لنصغي إلى الهداية الساكنة فينا، لعلّنا عندها نتوقّف عن التلاشي في التيه، ونبدأ التذكّر. ولعلّنا يومها نحيا كالنجوم - واثقين، ثابتين، أسياد ذواتنا.

أغمضت عيني، وما زلت أشعر بالرمل من تحتي والنجوم من فوقي. وبين هذين القطبين - الأرض والسماء - وجدتُ نفسي. لا تائهة، ولا باحثة بعد الآن، بل في الموضع الذي كان ينبغي أن أكون فيه تماماً.

مكتوب. ماثل في الذاكرة. محفوظ.

هذا هو طَعم الصبر - مقام الصبر - حين تكف النفس عن مجابهة قضاء الله، حتى وهي تجتهد في السعي. يقول الصوفية: الصبر ليس انتظاراً مشدوداً بالأصابع، بل سكون يزهر

في القلب، انحناءة للزمن: لكل حبّة رملٍ ساعتها، ولكل نجمٍ ميعاد طلوعه. وما بعد الصبر مقام أرفع: التوكّل - مقام الثقة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: 3). أن تعيش في التوكّل هو أن تأخذ بالأسباب وتستند إلى الواحد الأحد الذي يُمسك بالنجوم كما يُمسك بك، فتشعر أنك محمول حتى في الصمت، وفي الغيب.

هكذا هي الروح حين تمضي بالصبر والثقة - لا تعود تسعى في يأس، بل تستقرّ وتطمئن كالصحراء نفسها، تتنفّس تحت السماء المفتوحة.

كما في السماء، كذلك في الأرض

ظللتُ مستلقية على ظهري، تُثبّتني برودة الرمل في حضن الأرض فيما يتلألأ فوقي اتساع السماء بحكمةٍ أبدية. بين هذين العالمين - الأرض والسماء - شعرتُ أنني معلّقة في فضاءٍ يجمع بين القِدَم والخلود. لم تعد النجوم من فوقي بعيدة أو باردة؛ بل صارت حميمية، حيّة، تنطق بلغةٍ أعمق من الكلمات.

بدأتُ أُدرك لِمَ كان أسلافنا يدرسونها بعناية. لم يكونوا يرفعون أبصارهم طلباً للهداية في الطريق فحسب، بل طلباً لتجلي الذات. كانوا يرون أنفسهم مكتوبين في السماء، كما رأوا السماء منطبعة في الأنهار، وفي كثبان الرمال، وفي خطوط الكف، وفي انحناءة الهلال. كانوا يدركون ما نغفل عنه نحن كثيراً: أن السرّ الإلهي الأكبر ليس في مكان بعيد - بل هو هنا في كل شيء.

فوقي، توهّجت النجوم كأنها نقوش في مخطوط إلهي. تحتي، كانت الأرض تحتضن عظام ملكات وأسلاف وحكايات منسيّة تنتظر أن تُستعاد. وأما أنا - فيما بينهما - فكنت الجسر؛ باحثة، ابنة، ووعاء يتقاطع فيه الماضي بالمستقبل.

وعندها، شعرتُ وكأن النار والبومة والرمل والنجوم جميعاً قد تكاتفت لتذكّرني، فانسكبت الحقيقة الأخيرة عليّ كضبابٍ يهبط في عتمة الليل:

كما في السماء، كذلك في الأرض.

كما في الداخل، كذلك في الخارج.

كما الكون، كذلك الروح.

كلُّ شيءٍ كان مترابطاً... كلُّ شيءٍ كان مُباركاً.

جلستُ ببطء، أحدّق للمرة الأخيرة في سماء الليل قبل أن أغفو. لكن شيئاً ما في داخلي كان قد تبدّل. فقد صرتُ أحمل النجوم في داخلي الآن. وكل خطوةٍ لي صارت صلاة، وكل نفسٍ آية، وكل نظرةٍ تذكيراً بأن:

كل شيء مكتوب.

كل شيء معلوم.

كل شيء يتكشّف كما ينبغي له أن يكون.

كما في السماء، كذلك في الأرض.

سلبت روعة السماء أنفاسي. رأيتُ الغيوم تتحرّك وتتشكّل في الفضاء. ثم حين أعدتُ النظر، أبصرتُ الغيوم وقد اتخذت هيئة حوتٍ عظيم. تذكّرتُ تلك اللعبة التي اعتدتُ أن أمارسها طفلةً، حين كنتُ أتأمّل الغيوم وأتخيّل منها شتّى المخلوقات والكائنات. وها أنا الآن أفعل الشيء نفسه، أرى بوضوح بطن الحوت، وأشعر كأنني غارقة تحت محيطٍ أنظر من قاعه إلى أعلى.

التفتُّ إلى جبال مليحة من حولي. فبدت لي كلّها غارقة تحت محيطٍ متخيَّ. ربما كان هذا ما كانت عليه مليحة قبل مئة مليون عام، حين كانت غارقةً تحت «محيط تيثس». شعرت كأنني سافرت عبر الزمن لأشهد ما كانت عليه الأرض آنذاك. فكل الحفريات التي تنتشر على الجبال اليوم كانت يوماً مخلوقاتٍ بحريةً تسبح في تلك المياه. وها أنا الآن أسبح أيضاً في البحر ذاته، البحر الذي كان يوماً يغمر أرض مليحة.

وحين رفعت بصري إلى السماء، ذكّرني تراقصُ الغيوم وتبدّلُ الضوء بتلك الحركة العظمى التي تنتظم بها كلّ الكائنات - ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: 33). عندها أحسستُ أن السماء تنبض بالحياة، وأن كلّ ما فيها - الغيوم والكواكب وحتى الخواطر - يسبح في محيطٍ فسيح من نسق خلقه البديع، بانسجامٍ مهيبٍ لا ينقطع.

لم تَعُد السماء فوقي مجرّد سماء - بل تحوّلت إلى ذاكرة، ومرآة، وبوّابة. ولم تَعُد الأرض من تحتي مجرّد أرض - بل غدت قاع بحرٍ سحيق، مفعماً بالقصص، يردّد أصداء أناشيد حيتانٍ طواها النسيان، وينبض بأنفاس الخلق الأوّل.

أغمضتُ عيني وتركت نفسي تطفو في هذا المشهد الحالم - نصفه واقع، نصفه متخيَّل، لكنه بكامله مشبع بالجلال. ذاب الزمن والمكان والشكل. لم أعد منفصلة عن هذا المكان. كنتُ الرمل والحوت والغيمة والأحفورة وغبار النجوم. كنتُ الباحثة والحكاية، السؤال والجواب.

ومن حولي، كل شيء يهمس:

أنتِ من هذا الكيان، لطالما كنتِ منسوجةً فيه.

ومع هذا اليقين، استسلمت.

جلستُ على رؤيا المحيطات القديمة والسماء المليئة بالحيتان، وغرست يدي مرة أخرى في الرمل الدافئ الناعم. غاصت أصابعي في الأرض اللينة، وأغمضتُ عيني. تعمّق الصمت من حولي، وفي ذلك السكون أصغيت.

في البداية لم يكن هناك سوى صوت أنفاسي، وهمس الريح وهي تنساب عبر الكثبان، ونبض قلبي الخافت. ثم فجأة - خافتاً أولاً، ثم جلياً كجرسٍ يرنّ في الصحراء - سمعت صوتها. صوت الأرض.

لم تنطق بالكلمات، بل بالإحساس، بالاهتزاز، بالذاكرة. كان صوتها عتيقاً، أنهكته السنون وهذّبته الرياح، ومع ذلك ظلّ مفعماً بالعذوبة، راسخاً في يقينٍ لا يتزعزع.

همست لي بأشياء طُمرت منذ زمن بعيد.

أرَتني أنهار الدماء وهي تجري في عروق الرمال، وصرخات الساقطين تتردّد في أرجاء الزمن. كانت تحمل في قلبها ذاكرة الممالك التي قامت ثم انهارت، ورايات رُفعت بفخر ثم مزّقتها أقدام الدهر. ولم تَغِب عنها حربٌ أُضرمت على جسدها، ولا حدٌّ رُسم بحدّ السيوف وغرور البشر.

أرتني أيادي البشر - جشعة، مرتعشة بالسلطة - تخطّ على ظهرها خطوطاً، تسمّيها، تقسّمها، وتنحتها كأنها ملك لهم.

ثم ضحكت.

لم تكن ضحكة قسوة، بل ضحكة معرفة قديمة، ضحكة من بطن الزمن ذاته.

وقالت: «إنهم يظنون أن الأرض ملك لهم، ولكني سيّدة نفسي. لا أنتمي لأحد. لا أحد يملكُني».

تموّج صوتها في عظامي كقصف الرعود.

وقالت: «تأتون إلى هنا بلا شيء، وترحلون بلا شيء. تلك هي شريعة السماء، وناموس الوجود الذي لا يتبدّل».

وقعت كلماتها عليّ كجرسٍ مدوٍّ. ويسمّي الصوفيّة ذلك الفناء - أي فناء النفس - لا باعتباره نهاية عدميّة، بل سقوطاً لكل ما هو مستعار ومنسوب إلى الأنا، حتى يغدو الاسم

والممتلكات، بل والجسد ذاته، أثواباً تُلقى عند عتبة الحبيب. أمّا البقاء - وهو الوجود الذي يظلّ بعدما يذوب كلّ ما سواه - فهو بقاء الروح الحقّ في القرب من الله.

يردّد جلال الدين الرومي نداء الصوفيّة: «مُتْ قبل أن تموت»، إذ يقول: «في حضرة الله لا يمكن أن يجتمع اثنان... لذلك لا بُدّ أن تموت [أمام الله] كي تزول الثنائية».

أن تأتي بلا شيء وترحل بلا شيء ليس خسارةً بل حرية. ولهذا يلي الفناء مقامَ البقاء: حين يذوب تعلّق النفس، ليسطع السرمديّ من خلالها.

شعرتُ بنبضها تحت كفّيّ، ذلك الإيقاع البطيء القويّ لكوكبٍ يتذكّر، أمٍّ شهدت أجيالاً تأتي وتذهب، تنهض وتنهار، تتفتح وتذبل. ومع ذلك، هي ما تزال تتنفس. ما تزال تحب. ما تزال تصمد.

بكيتُ بهدوء، فيما استقرّت الحقيقة في قلبي كحجرٍ في قاع نهر.

لم يكن هناك ما يؤخذ. كان هناك فقط ما يمكن أن يُعطى.

وفي تلك اللحظة، لم تَعُد الأرض مجرّد ترابٍ تحت قدميّ، بل غدت حضوراً، كائناً حيّاً، مباركاً، جامحاً لا يُقيَّد. ولم أكن فوقها، بل كنتُ منها.

هبّت الريح كأنها تحمل كلماتها عبر الصحراء. تسابقت حبيبات الرمل حولي برفق، حتى خُيّل إليّ أنني أُلفّ بأنفاسها، وأُحتضن داخل حكايتها.

تشقْشقَت النار بجانبي برفق، كأنها تردّد ضحكتها. فتحتُ عينيّ وأمعنت النظر من حولي، فإذا بكلّ شيءٍ يبدو مختلفاً، ومع ذلك لم يتغيّر شيء.

همستُ في الرمل: «أتذكّر الآن. أتذكّر من أنتِ».

ومن مكانٍ عميق في داخلي، سمعتُ همسها يردّ: «وأنا أيضاً أتذكّر من أنتِ».

واصلت الحديث - صوتها صار أكثر رقةً وحميمية، كأنه ينبثق من داخلي لا من تحتي. بدأت رؤيا تتشكّل في الفراغ بين النفس والرمل: «بدور...» قالتها برفق، كأمٍّ تنادي طفلتها إلى البيت، «إنكِ تذكّرينني بنفسي»، حبستُ أنفاسي. «أنتِ مثلي تماماً... تعطين كل ما لديكِ للآخرين. وقتكِ. قلبكِ. طاقتكِ. صمتكِ. فرحكِ. حزنكِ. تعطين دون أن تطلبي. تعطين حتى لا يبقى في يديكِ سوى غبار ما كان يوماً».

شعرتُ بصوتها في ضلوعي، يتردّد كنبض طبلٍ سماوي: «ومن أجل ذلك، اصطفيناكِ لتري».

اجتاحتني كلماتها كموجة. شعرتُ أن هناك من يراني مُبصَرة، لا بعيون البشر ولا بما حصدتُ من ألقاب أو منجزات، بل بعين الأرض نفسها... بشيءٍ واسعٍ عتيقٍ جعل كل ما عداه يتلاشى.

«أُصطفيتُ لأرى ماذا؟» تساءلتُ في نفسي.

«لِتري ما وراء الحُجبِ»، قالت. «لِتري ما لا يستطيعون أن يرَوه. لِتتذكّري ما نسوه. لِتشعري بما هو مدفون تحت قرونٍ من النسيان. أنتِ مرآة الأرض يا بدور. روحكِ تحمل الحكايات. جسدكِ يحمل الذاكرة. أنتِ أيضاً أرضٌ بلا حدود».

فاضت دموعي ثانية، لكنها لم تأتِ من ألم - بل من اليقين. من الحقيقة.

همست: «لقد أعطيتِ وأعطيتِ... لكن آن الأوان أن تتلقّي. دَعيني أغذّيكِ كما تغذّين الآخرين. دعيني أملأكِ بما حسبتِ أنه ضاع: الرؤيا، والمعرفة، والتذكّر. إنكِ لا تمشين هذا الدرب وحدكِ. النجوم معكِ. والمياه. والرياح. وأجدادكِ. وأنا... أنا دوماً».

أدركتُ حينها أن كل النساء هنّ المُغذيات، المُعطيات، حامِلات الحياة. إنهن يجسّدن جوهر الأرض الأم ذاتها - يحملن في أعماقهن صبرها، صمودها، وطاقة عطائها اللامحدودة.

يتحدث الصوفيّة عن المحبّة - الحبّ الإلهي - ويعدّونه من مقامات الطريق وأحواله. هنا يتعلّم السالك أن الحبّ هو في آنٍ واحد الوقود الذي يدفع الخطى، والبئر التي تردّ العطش عن المُجهَدين. وفي القرن الثامن الميلادي، برزت الشخصية الصوفية رابعة العدوية البصرية - التي يُحتفى بها كثيراً باعتبارها سيّدة العشق الإلهي - إذ تدعو قائلة: «أحبّك حبّين: حبّ الهوى، وحبّاً لأنك أهلٌ لذاكا».

تُذكرنا كلماتها بأن الحبّ الذي يسري فينا هو في آنٍ واحد شوقٌ شخصي، وحنان الحبيب الغامر الذي يكتنف الوجود.

في مقام المحبّة، يُقرأ العالم كما لو كان نصّاً مخطوطاً بالعاطفة: النجوم فيه رفقاء، وقطرات المياه معلّمة، ونسمات الرياح رسائل قرب. وليس هذا زخرفاً أو تزييناً، بل كشفٌ بالمعنى الصوفي، وتجلٍّ يتحدّث عنه الشارحون في باب الحبّ.

ويضيف الأقطاب: إن رحابة الحبّ تحتضن اللين والمهابة معاً. ففي تجلّي الله يمتزج الجمال بالجلال؛ ولهذا يمكن أن يُفهَم الغذاء الذي نتلقّاه - من الأسلاف والأرض والسماء

- على أنه عناق الحبيب نفسه.

وضعتُ كلتا يديّ في الرمل الآن، أترك كلماتها تستقرّ في جلدي، في دمي.

ثم ساد بيننا صمتٌ عميق - صمتٌ مفعم بقوة خفية، محمل بالمعاني، مكتمل بالامتلاء.

ومن داخل ذلك الصمت، شعرتُ بها: لم تكن الأرض حيّة فحسب، بل واعية. كانت تختار أن تخاطبني، تختار أن تنفتح لي، تختار أن تكشف عن أسرارها. لا لأنني استحققت ذلك - بل لأنني تذكّرتُ أن أُصغي.

هذه الأرض كانت تعرف من أكون قبل أن أعرفها أنا.

وفي تلك اللحظة، اتّضح كلّ شيء.

الفصل الحادي عشر

وثبة العاصفة الرملية

«في الأزمنة الغابرة، كانت الخَلوة سبيلاً لتلقّي الإلهام، ومحراباً للإصغاء إلى النفس الباطنة لالتماس المشورة والهداية التي يستحيل سماعها وسط ضجيج الحياة اليومية».

كانت كلمات كلاريسا بينكولا إستِس تتردّد في أعماق ذهني برقة وثبات، كريح مُبارَكة تحمل حكمة الأسلاف. تركتُها تستقرّ في أعماقي. هذه هي الأرض التي وطئها أجدادي - حفاةً، مُتَعبّدِين، يفيضون حضوراً. هم حُرّاس روحي، يهمسون من ماضٍ موصول بالأبد، يستدعونني إلى هنا - لا كزائرة غريبة، بل كابنةٍ عائدة إلى بيتها.

لقد نادتني الصحراء، فلبيّتُ النداء. لقد سافرت أصواتهم عبر الزمن والصمت لتذكّرني بمن أكون، وبمقامي، وبالنار التي أحملها لأُضيءَ بها الظلمات. جاؤوا حاملين قرابين الشفاء، والذِّكرى، والقوّة المنسوجة في الرُّوح. لم يكن هذا محض مصادفة، بل عهد مُبرَم. لقد سمعتُ النداء، وها أنا هنا.

كانت رمال الصحراء الباردة تحتضنني وأنا أستلقي تحت قبّة من نجوم، ملفوفة بسكون الغسق، مقبَّلة بضياء القمر الفضيّ. غصتُ في الأرض كأنها أمٌّ عتيقة تضمّ طفلها، فسلّمت أمري. ذاب جسدي في حضن التراب، وأرخَت روحي قبضتها عن عالم اليقظة، وانسقتُ إلى النوم.

كانت النجوم تتلألأ فوقي كعيونٍ ساهرة. ملفوفة في عناق الليل الصحراوي، انزلقتُ إلى سباتٍ كونيّ، كأنني في رؤيا روحية. غدت مليحة معبدي، وغدا الليل مرشدي.

وفي أثناء نومي، سافرتُ إلى بُعدٍ آخر، وشهدت رؤيا عميقة انطبعت في روحي إلى الأبد. في رؤياي كنتُ أسير في الصحراء وحيدة، لا أثر لروحٍ حولي. كان صمت كثيف يكتنف المشهد، حتى بدا أن الزمن ذاته قد تلاشى. ثم، من حيث لا أدري، رأيتُ عاصفة رملية في الأفق، تتلوّى كروح حيّة مقبلة نحوي.

ولم تكن تلك عاصفة عاديّة. ففي صحارى العرب تُعرَف مثل هذه الزوابع باسم «الهَبوب» - من الجذر «هبّ»، أي «هبّت الريح». والهَبوب مهيب ومهاب في آن، كجدار شاهق من الغبار يبتلع الأفق ويحوّل النهار إلى غسقٍ في لحظات. ولدى البدو، الذين

ارتبطت حياتهم بإيقاع الصحراء، كانت مثل هذه العواصف نُذُراً وابتلاءات. كانت القوافل تضطر للتوقّف، والجِمال تنخفض ملتصقةً بالأرض، والتجّار والمسافرون يشدّون أغطيتهم على أفواههم مترقّبين انقضاء سطوة العاصفة.

على طرق التجارة القديمة التي حملت اللبان والمرّ والنحاس، قد يعني الهَبوب حياةً أو موتاً - يمحو آثار السير في لحظة، ويُضلّ حتى أمهر المرشدين، ويطمر المؤن تحت كثبان أعادت الريح تشكيلها. ومع ذلك، ففي مرويات القبائل لم تكن هذه العواصف مجرّد امتحانات للبقاء، بل أيضاً حاملة للأساطير. فمنهم من قال إنها أنفاس الجنّ تعصف بالأرض، ومنهم من رأى فيها وسيلة الصحراء لفرض المهابة، لتمزيق كبرياء الإنسان وتذكير كل نفس بصِغَرها وضآلتها أمام عظمة الخلق.

وقفتُ ساكنة أرقبها تقترب - مأخوذةً، بلا خوف. وكلما دنت، شامخة كجدارٍ من أنفاسٍ قديمة، سمعتُ صوتاً ينبثق من قلب الرمال الدوّامة. كان يتكلّم بثِقَل القرون: «لقد كنّا ننتظركِ».

فسألتُ: «مَن أنتم؟».

فأجاب الصوت، واطئاً راسخاً: «نحن القبائل الخفيّة في مليحة. لقد كنّا ننتظركِ».

غمرني طوفان من الدهشة، فسألتهم: «ومنذ متى تنتظرون؟».

أجابوا: «منذ قرون. لقد كنّا ننتظركِ منذ قرون».

وما إن نطقوا بذلك، حتى ابتلعتني العاصفة الرملية، ساحبةً إيّاي إلى قلبها الدوّار.

وحين دخلتُ العاصفة، أدركتُ أنني صرتُ خفيّة مثلهم. تخفّفتُ من ثِقَل الجسد وازددتُ شفافيّةً في الروح. لم أعد أرى وجوههم؛ كلّ ما كنتُ أعلمه أنّهم كثيرون - معصّبون بالعمائم، صامتون، تحفّهم الأسرار، لا يُرى منهم إلا عيونٌ تتلألأ من وراء طبقات القماش.

قالوا لي: «لقد جئنا لنعلّمكِ كل شيء».

وقبل أن أستوعب معاني كلماتهم، وجدتُ نفسي مطروحة على صهوة حصانٍ جامح. وقف أحد رجال القبيلة الخفيّة بجانبي وهمس: «سوف نعلّمكِ كيف تركبين بسرعة الريح».

ضرب الحصانَ على خاصرته، فانطلق كالسهم.

تشبّثتُ بقوّة فيما كان الجواد يعدو عبر الصحراء، والريح تلفح وجهي، وشعري يتطاير خلفي كألسنة لهبٍ سوداء. إيقاع الحوافر، وعلوّ الكثبان، وصمت الأبدية من حولي، نسجت سمفونية من الحركة والسكون. سرنا كأننا نقطَع أيّاماً لا تنتهي. لكن الأحلام، مثل الصحراء، لا تعترف بالزمن. غدوتُ واحداً مع الحصان، واحداً مع الريح، واحداً مع الأرض.

وحين عدتُ إلى القبيلة، استقبلوني كما يُستقبَل التلميذ العائد من امتحانه الأوّل.

قالوا: «هل أنتِ مستعدّة لدروسٍ جديدة؟».

ناولوني قوساً وجعبةً مملوءة بالسهام، وعلّموني كيف أُصوّب - لا ببصري وحده، بل بروحي أيضاً. كنتُ أستلّ السهام من حقيبتي وأُطلقها نحو سماء الصحراء اللامتناهية، مراراً وتكراراً، حتى صار الفعل غريزة. ثم رفعوني مجدداً إلى صهوة الحصان.

هذه المرّة، كان عليّ أن أُصوّب وأنا على ظهره المنطلق. كان التحدّي جسيماً: أن أحافظ على توازني فوق وحشٍ جامح، وأن أستلّ، وأُصوّب، وأُطلق. كان قلبي يخفق بالبهجة والرهبة معاً. شعرتُ وكأنني محاربة عربية من عصور سحيقة، متقدة العزم، ذاهبة بكل حدّتي لأدافع عن قومي بدقةٍ موحاة من السماء.

ولمّا عدتُ من جديد، التفّ أفراد القبيلة من حولي، عيونهم تتلألأ من خلف اللثام. قالوا: «أنتِ قويّة كالحصان العربي الأصيل. والآن سنعلّمكِ كيف تطيرين مثل الصقر».

في تلك اللحظة، أحسستُ بجسدي يتحوّل. امتدّت ذراعاي جناحين، خفيفين قويّين. ارتفعتُ في السماء، أعلى فأعلى، وعيناي الجديدتان، عينا الصقر، تخترقان الأرض من تحتي. كنتُ أرى كل شيء - مخلوقات صغيرة تهرول، ظلالاً تمتدّ فوق الكثبان، ورقصة لا تنتهي لريح الصحراء. كنت أطير. كنت حرّة.

ثم عدتُ. عادت العاصفة الرملية، وحين انقشعت، تلاشت القبيلة الخفيّة في غبارها. لكن شيئاً ما كان مختلفاً هذه المرّة. حين خفضت بصري، رأيتني جالسة من جديد على ظهر جواد. كنت أرتدي جُبّةً فضفاضة بلون الرمل، تُماهي بيني وبين الأرض. عمامةٌ التفّت حول رأسي بإحكام، وشعري الأسود الجامح يتمايل في الريح من تحتها. كان ظهري منتصباً، بوعي متأهّب، وبصر حاد. كنتُ أترقّب.

ثم التفتُّ. وما رأيتُه خطف أنفاسي.

جيش.

فيلق كامل من الفرسان يصطفّون خلفي في سكونٍ مطلق، يمتدّون حتى الأفق. آلافٌ منهم، صامتون، وقورون، يترقبون. فاض صدري بالدهشة والإعجاب. كنتُ أنا التي تَقودهم.

هؤلاء هم محاربيّ. وقد جرى إعدادي لهذه اللحظة (وإلى هذه اللحظة وجَّهني قدري).

نظرتُ عبر الصحراء. كان الصمت كثيفاً، ونحن جميعاً نقف على حافة مرتفعة، ساكنين، لا يُسمع سوى الريح تهمس بالقصص. شعرتُ بثِقَل المصير يرتجف في أعماقي.

ثم، في البعيد، أبصرتُ جماعة أخرى من الفرسان مقبلة نحونا، خصومنا. ومع ذلك، لم يساورني خوف. في أعماق كل خلية من جسدي، كنتُ أعلم أننا سننتصر.

فالنصر قد كُتب منذ الأزل.

رفعتُ ذراعي اليمنى عالياً فوق رأسي، وبصوتٍ لم يكن صوتي وحدي، بل محمّلاً بأصداء أسلافي جميعاً، صرختُ: «النصر لنا!».

فتفجّر الجيش من خلفي بالهتاف والزغاريد والابتهاج، محتفلين بالظفر قبل أن تبدأ المعركة. دوّت الصحراء معنا هديراً. لم نكن مجرّد محاربين.

كنّا نحن الوعد الموعود.

كنّا قد تذكّرنا مَن نكون.

الخيلُ والصقورُ والقوسُ الخالدة

قادَتني العاصفةُ الرمليّة إلى قرارٍ حاسم. وحين انقشع الغبار وسكنت السماء، وجدت نفسي مُنجذبةً إلى أعماق حكمة الصحراء - لا إلى عواصفها فحسب، بل إلى رموزها ومهاراتها الضاربة في القِدم. هنا، ثلاث رفيقاتٍ خالدةٍ ترافق المسافر وتُرشده: الفرس، والصقر، والقوس؛ معاً ينسجن نسيج الحكمة الصحراوية، ويجسّدن الاستعارات الحيّة التي اتّخذتها الأجيال مقياساً للشرف والصبر والبراعة. وفي الأشهر التالية، عقدت العزم على أن أتعلم فنون الصحراء كما ينبغي. لم أُرِد أن أمتطي الفرس فحسب، بل أن أفهم الرياح التي تدفع شعري إلى الوراء - تلك التي تناوئني حيناً، لكنها في الوقت ذاته تمضي بي إلى الأمام. ولم أُرِد أن أتقن الرماية فقط، بل أن أغوص في سرّ القوس والسهم، لأكتشف ما تخبئه فلسفتهما من حكمةٍ دفينة. وكان لابدّ أيضاً من تعلّم الصقارة - أقدم حوارٍ عرفته الصحراء بين الإنسان والطبيعة.

في الجزيرة العربية، لم يكن الفرس مجرّد وسيلة نقل، بل تجسيداً للكرامة والوفاء والكبرياء. أن تمتطي صهوة حصان في الصحراء هو أن تتوحّد دقّات حوافره مع دقّات قلبك.

وقد أنشد الشاعر العباسي المتنبي أبياتاً ما زالت تعدو عبر القرون:

الخَيْلُ وَاللّيْلُ وَالبَيْداءُ تَعرِفُني

وَالسّيفُ وَالرّمحُ والقرْطاسُ وَالقَلَمُ

لم يكن الحصان في شعر المتنبي مجرّد دابّة تُحمَّل بالأثقال، بل شاهداً مربوطاً بمصير فارسه. أن تتحدّث عن الحصان كان يعني أن تتحدّث عن الشرف نفسه، إذ كان معيار الشجاعة يُقاس بمتانة تلك الرابطة.

عاد إلى ذاكرتي امرؤ القيس، الأمير الشاعر التائه - كان يوماً أميراً كِنْدِيّاً (من قبيلة كِندَة اليمنية)، ثم منفيّاً، وقبل كل شيء، هو أبو الشعر العربي. هناك، على السفح، حيث تحمل الرمال والرياح قصصاً أقدم من التاريخ، عاش قبل الإسلام في القرن السادس للميلاد تقريباً، مُنشئاً قصائد متوهّجة حتى عُدّت من المعلّقات السبع - تلك الأشعار التي

«عُلِّقت» في الكعبة لجمالها الذي لا يُجارى ولا يُبارى.

كان لامرئ القيس قدرة مدهشة على إحياء روح الصحراء بلغته. ومن أبهى مقاطعه أبيات تمجّد الحصان العربي لا بوصفه مطيّة فحسب، بل مرآةً حيّة لقوّة الصحراء ونُبلها:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً
كَجُلْمُوْدِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ
كَمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ
كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُتَنَزَّلِ
مِسِحٍّ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الوَنى
أَثَرْنَ الغُبَارَ بِالكَدِيْدِ المَرَكَّلِ
عَلَى الذبل جَيَّاشٍ كأنَّ اهْتِزَامَهُ
إِذَا جَاشَ فِيْهِ حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ

في هذه الأبيات لا يستحضر امرؤ القيس جمال الفرس الجسدي فحسب، بل يستدعي أيضاً قوّته العميقة - ظهره اللامع، طاقته المتأجّجة، اندفاعه الذي يعبر الأرض جامعاً بين العنف والسمو. يغدو الفرس تجسيداً للحرية: عاصفاً كالريح، جارفاً كالسيل، ومع ذلك مشدوداً إلى الأرض.

وبلهفةٍ إلى أن أُحيي المهارة التي كشفتها رؤياي، قصدتُ الإسطبلات القريبة من مركز الزوّار في مليحة، وامتطيتُ جوادي إلى الصحراء عند الفجر. كانت أنفاسه تتصاعد في برد الصباح كالدخان، حتى غدا وقعُ حوافره متّحداً مع نبض قلبي. امتدّ الأفق رحباً أمامي، وفي ذلك السكون أحسستُ بالريح تخاطبني - قديمة، خفيّة، حيّة - تعلّمني أسماءها واحدة تلو الأخرى، كأنّها تكشف لي معجماً سرّياً للأرض.

كان أوّلها الشَّمال، الريح الشمالية الغربية العاتية، التي صاغت الكثبان عبر القرون، كمُعلّمةً صارمة، تعمي العيون بعواصف غبارها، لكنها تصقل البصيرة الداخلية. الشَّمال هو نَفَس الصبر، يذكّر السائرين أن ينحنوا أمام قوّته ويسيروا برويّة.

ثم جاءت الصَّبا، ريح الشرق الرقيقة. سمّاها الشعراء قديماً ريح العشّاق، إذ تحمل الأريج وهمس المطر. الصَّبا رفيقة حنون، عناق عبر الفجر، تُعلّمنا أنّ القوّة ليست دائماً غليظة - فبعض القوّة يُسكَن في الرِّقة.

وتحدّثت الصحراء أيضاً عن الشَّرقيّ، ريح الجنوب الشرقي، التي تهبّ في الربيع والخريف، مثقلة بالغبار، قلقة لا تستقر. والشرقيّ تذكير بأن المواسم تتبدّل، وأن الطريق ليس ثابتاً أبداً.

وأخيراً، سمعت الاسم المرهوب: السَّموم، أو ريح السمّ، التي تهبّ جافّة محرقة، كالنار على الجلد، مرعبة بحرارتها الخانقة. غير أنّ السموم تحمل حكمة بدورها، إذ تُذكّرنا أنّ الحياة في الصحراء لا تُؤخذ كأمر مُسلَّم به؛ فكلّ نَفَس هِبة، وكلّ قطرة ماء معجزة.

ومع انكشاف هذه الأسماء، أدركتُ أنّ الرياح ليست مجرّد طقسٍ جويّ. إنّها ذاكرة وحُرّاس ونصّ مكتوب على صفحة الهواء. أن تندفع في الصحراء مع الفجر هو أن تستفتح بتعاليمها: أن تشعر بكلّ هبّةٍ كأنها آية، وبكلّ سكونٍ كأنّه وقفة في القصيدة الأبدية للأرض.

وفوق الرمال، وعلى متن الرياح ذاتها، يحكم الصقر السماء. بعينه الثاقبة وصلابته التي لا تلين، يجسّد السيادة والدقّة. لم تكن الصقارة في الجزيرة العربية مجرّد رياضة، بل تلمذة في الصبر والانضباط. أن تُدرّب صقراً هو أن تتعلّم كيف تُبصر بصفاء وجلاء، وكيف تضرب حين يحين الوقت فقط، وكيف تحترم الحرية حتى وأنت تهديها. وكان الصقر على المعصم سيادةً متجسّدة، وعلامة على النبل والبراعة.

وحين تذكّرت الصقر وهو يحلّق فوق حافة الصحراء، خطر لي قائد حمل روح هذه الأرض في حكمه كما في شعره: الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان (1918–2004)، الأب المؤسّس لدولة الإمارات العربية المتحدة. لم يُعرَف برؤيته وقيادته فحسب، بل بمحبّته العميقة للطبيعة. كان شاعر الصحراء، رجلاً يرى في الصقور والخيل ما هو أعمق من حيوانات: رفاقاً ومعلّمين.

كثيراً ما تحدّثت أبياته عن الثقة والتدريب والسلالة - تلك الرابطة السرمديّة بين الصقار وطائره، رابطة صاغت الحياة العربية لقرون. تردّد في خاطري آنذاك أبيات من شعره، محمولة على الريح كصدى الأسلاف:

يا طير وَضَّبْتك بتدريبْ
أبغي أصاوِع بك هِدادي
لي طارَن الرِّبْد المَهَاريب

لي ذايرات من العُوادي
إلْقِفْ لِهن عَساك مَ تْخيب
واقصِد لِقايدهن عِنادِ

حين تردّدت تلك الأبيات في قلبي، أدركتُ أنّ الصقر ليس مجرّد صيّاد، بل مرآةٌ لمن يدرّبه - حيث يلتقي الانضباط بالغريزة، ويذوب الصبر في القوّة. إن هذه الوشائج بين الصقّار والطائر تُنسَج من خيوط ثقةٍ عميقة حتى تكاد تغدو سلالةً قائمة بذاتها: كل تحليق ميراث، وكل صيدٍ ذاكرة لمن مضوا قبلنا.

ومع انحسار صدى أبيات الشيخ زايد في صمت المساء، انبعث صوتٌ آخر في أغوار ذاكرتي - صوت أبي نواس (ت 814م)، الشاعر العباسي الأسطوري. ورغم أن شهرته التصقت بخمرياته، فإن طرديّاته - قصائد الصيد في بلاط الخلفاء - تحمل فرادةً أخرى؛ فهي تمجّد الصقور والبُزاة، وتحتفي بتلك الشراكة السرمديّة الصامتة بين الصيّاد والطائر. يذكّرنا شعره أن الصقر لا يُدرَّب وحسب، بل شريك في طقسٍ قديم من الألفة، رباطٍ من الثقة والغريزة، حيث يتحرّك الصيّاد والصقر كأنهما جسدٌ واحد.

تذكّرت صورةً أوردها الباحثون في دراساتهم لديوان طرديّاته، الذي يضم أكثر من مئة قصيدة تصوّر انشقاق الفجر، وارتقاء الأجنحة، وذلك الصيد الصامت وقد تجلّى كشعيرة أزليّة. وعلى الرغم من ندرة الترجمات الكاملة، فإنّ سَعة أشعاره عن الصقور - المحفوظة في ضبط متقن على يد حمزة الأصفهاني - يكشف عن تقليدٍ عريق يتحوّل فيه تدريب الطير إلى تدريبٍ للروح، وتنعقد فيه الوشائج بين الثقة والنَّسَب والغريزة.

أخذتً أستلهم من فنون أولئك الباحثين، فتخيّلتُ يد الصقار تُثبّت البرقع برفق، فيما الطائر يتأهّب. إنه عهد أجدادي، منقوش في ذاكرة الصحراء منذ القدم. وهناك، بين قصائد الصيد تلك، وجدتني أُصغي إلى ذاك الحوار الصامت نفسه، الدائر بين الطائر والإنسان والسماء اللامتناهية.

وبعد تجربتي مع العاصفة الرمليّة، أدركتُ أنّه لا يمكنني أن أترك هذه الرموز في حيز التجريد. سعيتُ إلى تجسيدها. فتدرّبتُ مع خبراء الصقّارة، وأحسستُ بثِقَل طائر جارح على معصمي، وبنظراته الصامتة تحرسني بعينٍ ساهرة. وهناك التقيت أحمد، الصقّار الماهر الذي تمتد سلالته عبر أجيالٍ من حرّاس الصحراء.

علّمني أحمد أن أتحدّث عن الصقور كما يتحدّث المرء عن أهله وذوي قرباه. عرّفني إلى صقر الحُرّ، المبجَّل في أرجاء الجزيرة العربية لصموده وقوّته الهائلة وانقضاضاته العاتية على ارتفاعات منخفضة - وإلى صقر الشّاهين، المشهود له بغوصاته الخاطفة المدهشة ورشاقته الافتراسية. وكان أحمد يهمس بأسمائهما القديمة بالعربية، تاركاً للمقاطع أن تفصح في أنغامها عن قرونٍ من الإجلال وفنون التدريب.

كان كلُّ اسمٍ استدعاءً لإرث عتيق، لا مجرّد إشارة إلى نوع. قال أحمد: «الحُرّ» من الحريّة؛ فهو حتى في سكونه يحمل الصحراء في انثناءة جناحه. أمّا عن الشّاهين فقد تحدّث عن السرعة، وكيف يمكن للطائر أن يطوي السماء في نبضة قلب، وتنفجر مخالبه كالبرق ساعة الانقضاض.

قادني أحمد إلى أسرار لغتهم. لم يعلّمني كيف أنطق أسماءها فحسب، بل كيف أستشعرها، بإيقاعها العتيق: كيف يعلو صدر الحُرّ ويهبط، وكيف تنفرج أجنحة الشاهين كستار الفجر. علّمني أن أُطلقهما على الطريدة، بدءاً بالطُعوم المكسوّة بالريش، ثم بالفرائس الحيّة، حتى يشتدّ العود وترسّخ الثقة بمرور الأيام. وتعلّم قلبي إيقاع الترقّب - كيف يميل الطائر إلى الأمام، مشدوداً، مركزاً بحدّةٍ كأن العالم سيتلاشى في اللحظة التي ينقضّ فيها.

في تلك الأسابيع مارستُ طقوس الترويض - أي تعويد الطائر تدريجياً على حضور الإنسان، حتى يلين حذره ويجلس إلى جواري، عيناه تحت البرقع، كأنه راهب من ريش غارق في الصمت والتأمل، ينتظر الإشارة. فإذا رُفع البُرقع الجلدي، انطلق الصقر صاعداً كسهمٍ مفلتٍ في سماء الخليج الشاحبة.

في سكون الصحراء، شعرتُ بما كان الصقّارون يدركونه منذ الأزل: أن نسج علاقة مع طائرٍ هو في جوهره نقشُ ذاكرةٍ في جسد الأرض. فكل انقضاضةٍ، وكل عودةٍ، لم تكن إلا صدىً لشيءٍ قديمٍ وعميقٍ يسكن الزمن. لقد علّمني الصقر معنى الإيمان -أن تطلق سراح ما تحب، واثقاً بأن الجمال سيعود إليك- لا بالهيئة التي كان عليها، بل بأجنحةٍ جديدة. أمّا القوس، فكان يعلّمني التوازن.

رامي السِهام

في شدّ الوتر يتدرّب المرء على القوة والتركيز، وفي إفلاته يتعلّم التسليم. أمّا انطلاق السهم فدرسٌ في الثقة: إذ لا بدّ أن تُطلقه بكليّتك ليبلغ هدفه وغايته. لقد كان الرمي في الصحراء صراع بقاءٍ وفلسفة معاً، يعلّم أن النيّة ينبغي أن تكون راسخة، أمّا المصير فموكول إلى يد الغيب.

ومن القوس والصحراء ينهض إلى روحي طيفُ الشنفرى - ذاك الشاعر الجاهلي شبه الأسطوري الذي عاش على هامش المجتمع. خانوه ونبذوه، فصار صوت الصعاليك، ينطق بالحق من قلب المنفى. تماهت سيرته مع أسطورته في اتساع البرية العربية، حيث تغدو كل أداة رفيقاً حميماً، وكل سلاحٍ رمز انتماء.

في «تائيته» الشهيرة، المحفوظة في «المفضليات»، يخاطب الشنفرى قوسه في لحظة عزيمة متأججة. وكما يخبرنا الدارسون، فإن أبياته تكشف عن التواصل الفطري المجرّد بين الصيّاد وسلاحه:

وبَاضِعَةٍ حُمْرِ القِسِيِّ بَعَثْتُها

ومَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً ويُشَمَّتِ

والصورة صارخة الوضوح: قِسِيٌّ احمرّت بالعرق، أو بالدم، أو بلهيب الصحراء - ولكنها شواهد على معاناةٍ وصراعٍ للبقاء في آن. وفي هذه الأبيات لا يصف الشنفرى السلاح بوصفه أداة فحسب، بل بما يجسّده من معنى. فالقوس رفيقة الدرب، تحمل عبء القتال، وتختزن صبر حاملها وجَلده. وفي الأبيات نلمح استنفاراً للرفاق إلى خطرٍ مشترك، يربطهم رباط الولاء وتجمعهم الغاية. تغدو القوس أكثر من أداة حرب، لتتحوّل إلى رمزٍ للعزم، ولعُرى الأخوّة التي تُصاغ في الشدائد، ولإرادة الأجداد في البقاء.

ظلّت أبيات الشنفرى المتمرّد تتردّد في داخلي كطنين وترٍ مشدود، تذكّرني بالقوس لا كسلاحٍ فحسب، بل كرفيقٍ في العزلة والتيه. غير أن ذهني انجرف أيضاً إلى صوتٍ جاء بعد قرون، صوتُ منفيٍّ آخر نسج جسراً بين الشرق والغرب: جبران خليل جبران (1883–1931). شاعرٌ وفيلسوفٌ وصوفيّ، وُلد في لبنان ثم حملته الأقدار إلى الولايات المتحدة

الأميركية، فكتب بلغةٍ تشبه الوحي ورقّةٍ مسكونة بالأشواق. وصار كتابه «النبي» مرشداً لطلّاب الحكمة في أنحاء العالم، ينقل الاستعارات العتيقة إلى ألسنة جديدة.

ومن أكثر ما يُستحضَر من سطور جبران تأمّله في القوس والسهم، في فصل «عن الأولاد» من كتابه «النبي». فعلى الرغم من أنّه يتحدث عن الآباء وأبنائهم، فإنّ كلماته تحمل صدى يتجاوز معنى الأبوة والأمومة، ليمتدّ إلى معنى النسب والمصير والتسليم: «أنتم الأقواس وأولادكم سهام حية قد رمت بها الحياة عن أقواسكم. فإن رامي السهام ينظر العلامة المنصوبة على طريق اللانهاية، فيلويكم بقدرته لكي تكون سهامه سريعة بعيدة المدى. لذلك، فليكن التواؤكم بين يدي رامي السهام الحكيم لأجل المسرة والغبطة. لأنه، كما يحب السهم الذي يطير من قوسه، هكذا يحب القوس الذي يثبت بين يديه».

وما إن قرأت تلك السطور حتى شعرتُ بالقرابة بين قوس الشنفرى الصلد في الصحراء، وقوس جبران الصوفي في منفاه. كلاهما يذكّرنا أن القوس ليس أداة قوة فحسب، بل وعاءٌ للثقة: ثقةٌ بالرامي الخفيّ الذي يرسم المسار، وثقةٌ بالسهم عند انطلاقه، وثقةٌ بالرحلة حين تمضي إلى ما هو أبعد من سلطاننا.

يعلّمنا القوس ما همس به الأسلاف منذ البدء: أنّنا نحن القوس والسهم معاً. مشدودون بيد الزمن، مثبَّتون بجذور النسب، ثم يُطلقنا الحبّ نفسه في فضاء السماء الفسيح.

ومارستُ الرماية تحت السماء الفسيحة، أشدّ القوس حتى يتشرّب جسدي إيقاع الشدّ والانفلات. وكان كل سهم يعلّمني أن الثقة لا تكمن في إصابة الهدف، بل في فعل الإفلات ذاته. ففي الصحراء، يقول البدو: «السهم ما إن يغادر القوس لم يَعُد لك، بل صار مساره لله».

لم تكن الرماية مجرّد مهارة، بل فلسفة. أن تمسك القوس بثبات هو أن تستجمع قوة الأسلاف، وأن تُفلت السهم هو أن تُسلِّم لما لا يُرى، كما فعلوا حين عبروا الكثبان بلا خريطةٍ سوى النجوم. ويهمس السهم بالحقيقة ذاتها التي يعلّمها الصقر حين يحلّق في السماء: إن الإيمان يسكن في الإفلات، لا في التمسّك.

وقد أدرك الأوّلون هذا. قالوا إن القوس مرآة النفس - مقوّسة، مشدودة، مختبَرة - وإن السهم هو النيّة: مستقيم، حادّ، صادق. ومعاً يذكّراننا أن التوازن يُولَد من الانضباط، أمّا المصير فلا يُدرَك إلا عبر التسليم.

تحت سماء ذلك الفضاء الصحراوي الفسيح أدركتُ أن الرماية كانت كتاباً مبجلاً، وآيةً صحراويةً منقوشةً بالخشب والرِّيش، ومنسوجةً من أنفاسٍ وصمتٍ، تذكّرني بأن الثقة هي السهم الأوّل، والصبر هو الثاني، والتسليم هو الأخير.

كان كل تمرين يحتاج إلى تذكّرٍ قبل المهارة. غرس الحصان الشجاعة في عروقي، وصقَل الصقر بصيرتي، وعلّمتني القوس معنى التسليم. لم تكن تلك رموزاً جامدة من الماضي، بل معلّمين أحياء، يشدّونني إلى سلسلةٍ من حكمة الصحراء ما زالت تتنفّس في الرمل والسماء وذاكرة الحكايا.

وفي صحبتهم، لم أعد باحثةً ألهث وراء شذرات من تاريخ منسيّ، بل أصبحتُ تلميذةً للأرض ذاتها، أتمرّن على الإيقاعات عينها التي قادت أسلافي عبر الكثبان، والجبال، والنجوم. لقد منحتني الصحراء ثالوث معلّميها: القوة، والصفاء، والتسليم. معاً شكّلوا بوصلةً أبقى من أي خريطة، طريقاً للكينونة منقوشاً في هبوب الريح ووقع الحوافر، وفي انقضاض المخالب وانطلاق السهام.

وأدركتُ آنذاك أن الأمر لم يكن إحياءً لتراثٍ انقضى، بل عيشاً له في الحاضر. فالحصان والصقر والقوس لم يكونوا بقايا أثرٍ عتيق، بل حافظات لتراث ممتد، تذكّرني بأنني جزءٌ من حكاية أوسع وأبهى من ذاتي. أن أحملهم معي هو أن أحمل الصحراء نفسها، مشبعةً بالذاكرة، متوّهجةً بالمعنى.

الملكة الكامنة في داخلي

كيف السبيل إلى العودة من حلم يهزّ نسيج كيانك حتى الأعماق؟

لا يمكنكِ. لن تعودي مطلقاً.

كان من المستحيل عليَّ أن أنزلق ثانيةً إلى إيقاع الحياة العادية بعد ما شهدته. لقد مزّق الحلمُ الحجابَ بين العوالم، وكشف لي ما لم يُكشف. لمستُ سرَّ المجهول، وسرتُ جنباً إلى جنب مع الأسلاف، وأبصرتُ تواريخ منسيّة. تلك الرؤيا لم تكن وهْماً، بل كانت عبوراً وتهيئةً، مفتاحاً يفتح أبواباً عتيقة في داخلي. عدتُ مختلفة، موسومة بعلامة لا تُمحى. أدركتُ آنذاك أنّني لم أكن قد بدأت إلا بخدش السطح فحسب.

ما زالت رمال مليحة تهمس لي في يقظتي. أسرارها تتبعني كالظلال، ولم أعد قادرة على التظاهر بأنني لم أتأثر بما واجهتُه.

وهكذا يستمرّ السعي وراء ملكات مليحة - لكن بعينين جديدتين.

ها أنا قد عدتُ إلى البيت، غير أنّ البيت الذي عرفته بات غريباً عليّ. أجلسُ محاطةً بالمخطوطات، أفكُّ رموز النقوش القديمة. أعود إلى القطع الأثرية، أدرس كل منحنى فيها، كل نقش، أفتّش عن أصداء - شظايا لشيء كان معلوماً يوماً وأضحى الآن بعيد المنال. عقلي يركض وقلبي مفعم بالأسئلة.

وبدأ شيءٌ يتجلّى لي، كما تتجلّى شمس الصحراء وهي تنهض ببطء خلف الكثبان: أكان هذا البحث عنهم أصلاً؟

ماذا لو كان البحث عن ملكات مليحة منذ البداية مرآةً... تعكسني أنا إليَّ؟

أيمكن أن تكون هؤلاء النساء - بسلطتهنّ، بصمتهنّ، بأسرارهنّ - قد وجهني لا نحو قبورهنّ، بل نحو يقظتي أنا؟

فكلمات مايكل ماكدونالد الأخيرة لي ما زالت تثقل ذهني كنبوءة: «أنتِ ملكة مليحة».

في ذلك الوقت أخذتُها على أنّها استعارة شعرية. والآن أعيها جيداً.

لم يكن يشير إلى نسب، ولا إلى لقب. كان يُسمّي الروح التي نسيتها.

أنا الملكة التي كنتُ أبحث عنها.

وهكذا يتحوّل السعي - من التاريخ إلى الذاكرة، من العظام إلى الأنفاس. فالجواب لا يرقد في الرمال وحدها، بل في يقظة تذكّري أنا.

خلال رحلتي، اكتشفتُ معنًى جديداً للحياة. خلعتُ عني طبقات الماضي، وكشفتُ عن نسخةٍ جديدة من ذاتي. لم أعد أُذعن للتنشئة التي كبُرتُ عليها، ولم أعد أرى الأشياء بلونين: أسود وأبيض. لقد صرتُ أحتضن سرَّ الحياة وما يرافقه من غموض. وبفتح باب سرّ الحياة العظيم ليطلّ على أيامي وحياتي، سمحتُ للسحر والمعنى أن يتسرّبا في أنفاسي، وأن يتجلّيا في أبسط تفاصيل تفاعلاتي اليومية.

لقد قادتني رحلتي إلى عوالم شاسعة ومختلفة؛ تلامستُ مع الأفاعي، والبوم، والذئاب، والخيول، والصقور، والحيتان. اتصلتُ بأصلي وجذوري وسلالة أجدادي، وتلقّيتُ منها الحكمة والإرشاد. نَمَت محبّتي للأرض الأمّ وتعمّق ارتباطي بها حتى شعرت بامتنان غامر لها لأنها رعَتني وأمدّتني بالقوة. مددتُ يدي إلى الماضي وتجلّيتُ بأشكال أخرى في أحلامي، أمتطي الخيول الجامحة وأحلق كالصقر. وتلك عطايا أغدقتها الحياة عليّ.

لكن الشيء الأروع من الرحلة ذاتها هو العودة. فكيف يعود المرء من لقاءٍ متوشّحٍ بالقداسة دون أن يتبدّل؟ الحقيقة أننا لا نعود - بل نتذكّر. نتذكّر مَن كنّا قبل النسيان. قبل الضجيج، قبل البرمجة، قبل أن تتراكم طبقات الخوف حول أرواحنا المضيئة. نحن لا نعود إلى العالم كما هو، بل نعود إلى ذواتنا وجوهرها الحقيقي.

ما زال الحصان الجامح يعدو في داخلي، وما زال الصقر يحلّق. ما زال صوت الأرض وأسلافي والنجوم كلها تهمس في أذني حين أتوقّف للإصغاء. كل شجرة أعبرها تستقبلني كصديق قديم، وكل نفحة ريح تلتف حولي كسرّ خفي. لقد أضحت الحجب بين هذا العالم وسواه أرقّ الآن. أعيش في كليهما - المرئي وغير المرئي - وأجلّهما بالقدر نفسه.

لقد أصبحتُ جسراً بين الأبعاد، مُصغيةً للرياح، باحثةً عن الحقائق المدفونة تحت الحجر والعظم. لم تعد الحياة شيئاً يحدث لي، بل شيئاً يحدث معي. وهذا التناغم الخلّاق، وهذا التماهي مع السرّ الإلهي، هو أعمق وأرق علاقة عرفتها يوماً.

لكنني لم أكن الوحيدة التي تغيّرت - بل مليحة نفسها تبدّلت. هي أيضاً استيقظت من سباتها.

بعد أن غدت منتزهاً وطنياً، بدأت تجدّد ذاتها، كأنما نُفخ في روحها بعد سباتٍ طويل. دبت الحياة من جديد في بشرتها القاحلة، فعادت الحيوانات والنباتات والحشرات تنهض كما لو كانت ذكريات غمرها الزمن طويلاً. ثم جاء المطر، غزيراً، مباركاً، أشبه باحتفالٍ سماوي مهيب. وإذا بالصحراء تخضرّ فجأة، في مشهد لم تألفه عيناي قط: أنهارٌ تتشقق من عروق الرمال، بحيرات تتكوّن تحت السماء المفتوحة كمرايا للغيوم، أزهار برّية تتفجّر فوق الكثبان، والهواء مشبعٌ بحركة الغزلان وقطط الصحراء وطيور لم أرَ لها مثيلاً من قبل.

لقد بدا الأمر كأنه قيامة.

بعد شهور من ليلتي تلك في الصحراء، زرتُ عائلة بدوية عاشت في مليحة أجيالاً متعاقبة. وبينما كنّا نتناول التمر والشاي، نظرت إليّ إحدى النساء، بعينين تشبهان ليل الصحراء، وقالت لي بهدوء: «نعلم أنكِ كنتِ تمشين في أرضنا. لقد جلبتِ المطر بخطواتكِ. انظري كيف تتذكّر الأرض».

أوقفت كلماتها أنفاسي. شعرتُ وكأن الأرض هي الأخرى تعترف بوجودي - لا كغريبة، بل كابنة عائدة.

الأرض تتذكّر.

إنها تتذكّر مَن كانت - حين كانت خصبة، خضراء، ويوم كانت ملاذاً لأسلافنا. إنها تجدّد ذاتها وتلد حياة جديدة. إنها تحمل جوهر الأنوثة، جوهر الإيقاعات الكونية والحدس الفطري، جوهر الأنفاس والذاكرة. إنها تتذكّر الزمن الذي كانت فيه النساء يمشين على الأرض بقلوب مفتوحة، ينسجن حبّهن في التربة، ويباركن كل بذرة، ويشفين دون أن يطلبن شيئاً في المقابل. ذلك الحضور الحاني ما زال حيّاً في الجذور والأحجار، في همس النسيم عبر الكثبان.

شعرتُ بتلك الذاكرة تسري في أعماقي عبر قدميّ وأنا أقف حافية على جسدها. كانت الأرض تتكلّم، لا بالكلمات بل بالشعور. هي تذكّرتني. وأنا تذكّرتها. كنّا مرآةً أحدُنا للآخر - مليحة وأنا. كلتانا وُلدنا من جديد، كلتانا نستعيد جوهرنا، كلتانا ننهض بحكمة قديمة تتفتّح من جديد.

وفي تلك اللحظة أيقنتُ أن هذه الرحلة لم تكن رحلتي وحدي. لقد كانت رحلة تخصّ

جميع النساء اللواتي مشين على هذه الأرض المباركة، وجميع اللواتي سيأتين بعدهنّ.

فالنساء لسنَ منفصلات عن الأرض - نحن الأرض ذاتها.

ما أعلمه يقيناً هو أنّ الأمور ليست دائماً كما تبدو. في الحقيقة، «نحن لا نرى الأشياء كما هي، بل كما نحن» كما قالت أنايس نين، وهي محقّة. فكلّما تغيّرنا تغيّر منظورنا للعالم. نبدأ برؤية ما وراء حجاب الوهم، ونلمح الحقيقة الكامنة تحت السطح.

لقد غدوتُ أكثر تناغماً مع همسات الطبيعة - حفيف الأوراق وهي تحمل رسائلها، انطلاق طائرٍ على حين غرّة كعلامةٍ من الغيب، وكيف يطوّقني الهواء كذكرى. لم أعد بحاجة إلى البصر كي أرى. تعلّمتُ أن أُبصر وعيناي مغمضتان، أن أُصغي بقلبٍ مفتوح على مصاريعِه للأصوات التي لا صوت لها، للهمس الروحي الذي يمتطي صهوة الصمت. كل خطوة أخطوها الآن تبدو مقصودة، كأنني أمشي على دربٍ خفيٍّ ممهور بخطى أسلافي من قبلي. إنهم هنا، أشعر بهم - يمشون إلى جانبي، يحرسونني، ويرشدونني. لم أعد وحيدة قط.

وبينما أستعيد صلتي بالأرض وبالأسلاف، أستعيد أيضاً جزءاً من ذاتي طال نسيانه - معرفتي الباطنة، وحكمتي العتيقة. ومع كل ذلك، أرى كيف أنني أشقّ درباً لا لنفسي وحدي، بل للآخرين أيضاً. فكل امرأة تتذكّر، وتستعيد صوتها وقوّتها، إنما تشعل الطريق أمام أولئك اللواتي ما زلن تائهات في العتمة.

وبإحياء هذه الذاكرة، عدتُ أؤمن بذاتي من جديد. لا بتلك الذات التي شكّلتها توقّعات المجتمع أو جراح الأسلاف، بل بالذات الأصيلة - تلك التي آمن بها أجدادي قبل أن أُولَد بزمنٍ طويل. لقد علّموني أن أرى الجمال حتى في الانكسار. همسوا إليّ في العتمة قائلين: لا شيء في هذه الحياة يضيع - لا الألم، ولا الحيرة، ولا الشوق. ففي كل شيءٍ بركةٌ كامنة. وكل شيءٍ جزءٌ من الطريق.

أصبحتُ الآن أعتزّ بكل منعطف في الرحلة، حتى المشقّات، لأنها أوصلتني إلى هنا - إلى هذا التذكّر النوراني. وكالأفعى التي تخلع جلدها نزعتُ عني ما لم يعد يعكس حقيقتي، وخطوتُ نحو نسخة مشعّة جديدة من نفسي. لستُ من كنتُ. أنا حاملة حكمة أسلافي، حارسة الأرض، السائرة بين العوالم. أنا القادمة من النجوم، العائدة إلى بيتها أخيراً.

وأنا أواصل السير والتذّكر في هذا الدرب النوراني، تفتح لي الصحراء ذراعيها بطرائق لم

أكن لأتصوّرها. فهي لا تخاطبني بالريح والنجوم فحسب، بل تبعث إليّ برسائل من وراء الحجب - عبر أحلام تبدو أصدق من اليقظة.

في أحد هذه الأحلام عاد جدّي الأكبر، الشيخ غانم، ليلتقيني. وكالعادة التقينا في قلب الصحراء، في المساحة الفاصلة بين العوالم حيث يتكلّم الصمت ويذوب الزمن. استقبلني بحرارة ألف شمس، وفي عينيه حكمة أجيال مضت. وبهدوء طلب منّي أن أسير معه.

سرتُ إلى جانبه على حافة الوجود ذاته. عن يميننا امتدّت الصحراء الذهبية بلا نهاية، تطنّ بأغانيها القديمة. وعن يسارنا انكشف الكون الفسيح - فضاء لا نهائي من النجوم، مجرّات دوّارة، وأسرار سماوية. مشينا متجاورين، أقدامنا صامتة على الرمال، وقلوبنا تتكلّم بلغة أقدم من الكلمات.

وبعد ما بدا لي كأميال توقّف، ثم التفت إليّ بنظرة حبّ عميق وقال: «أتعلمين، حين وُلِدتِ، أنا وجدّتكِ اخترنا نجمة». كان صوته رقيقاً يكاد يذوب في همسات النسيم. رفع يده وأشار إلى السماء، إلى موضع بين النجوم يلمع أكثر من سواه: «وضعناها عليكِ».

فاضت الدموع في عينيّ.

قال وهو يشير إلى النسيج الكوني الممتد فوقنا: «انظري، من هنا جئتِ». ثم وضع كفَّه على قلبي وهمس: «يا ابنتي من النجوم».

في تلك اللحظة، أدركتُ بصفاءٍ لم أعرفه من قبل، أنني لم أكن أمشي على دربٍ من ترابٍ فحسب، بل كنتُ أستعيد خُطى سلالةٍ نبيلةٍ تنبض في دمي. لم أعُد إلى مليحة وحدها؛ بل عدتُ إلى أصل روحي ومنبعها.

النجوم، والأسلاف، والأرض، وحكايتي المتفتّحة - كلها كانت متشابكة في رقصة كونية؛ كل خطوة على هذا الدرب تتردّد عبر الأزمنة، وكل نَفَسٍ جسر بين العوالم.

والآن، مع كل نفس أتنفّسه، أتذكّر رقصة الحياة النورانية. استسلم للسرّ الإلهي، بينما ينسج الكون خيطه الأزلي في الوجود، ظاهرِه وخفيّه. فأنا جزء من هذا الخيط، ونحن جميعاً كذلك. لقد عرف الأقدمون هذه الحقيقة، عاشوها، ونقشوها في الحجارة، ورقصوها في التربة. واليوم يردّد العلم ما كانوا يعرفونه دائماً: أننا مخلوقون من غبار النجوم، وأن الذرّات الكامنة فينا قد صيغت يوماً في قلب نجوم تحتضر.

وهكذا تموت النجوم، وتبدأ الحياة من جديد، من ذلك الغبار ذاته، وقد قُذف عبر

الفضاء والزمن، ليُعيد تشكيل نفسه في التربة تحت أقدامنا، وفي المحيطات التي تحتضن الحيتان، وفي الأشجار التي تمتد نحو السماء، وفي الشرارة التي تسكن أعماقنا. نحن صدى النجوم نمشي على الأرض.

وحين تنتهي حياة تبدأ أخرى. هذه هي الدائرة الحلزونية السرمديّة. ذلك هو دوران الحياة - يتمدد أبداً، ويعود أبداً. لا وجود لنهاية حقيقية، بل لتحوّل وتبدّل. وكما أن البذرة لا تزهر حتى تنشقّ، علينا نحن أيضاً أن نترك ما ظننّاه ذواتنا، لكي نتذكّر مَن نكون حقاً.

ثَمَّةَ نِداءٌ يَهيبُ بِنا أَنْ نَتَذَكَّرَ.

أن نعود إلى قلب الأرض. أن نهتدي إلى طريقنا عائدين إلى ذواتنا الحقيقية - لا عبر الطرق والخرائط، بل عبر الصدى. عبر تذكّر لغة الأشجار، وإيقاع الأنهار، وصمت الحجارة.

أصبحتُ أرى في وعي الإنسان تحوّلاً خفياً يتفتّح ببطء. تحوّل دقيق كتحوّل المدّ لكنه حاضر في كل شيء. أشعر به في نَفَس الريح، أراه في عيون الذين بدأوا يستيقظون. نحن نتذكّر كيف نصغي من جديد، كيف ننسجم مع الأرض، وكيف نُجلّ ذلك النبض الكوني المتردّد في باطن الأرض تحت أقدامنا.

ومع عودتنا إلى التناغم مع حكمة أمّنا الأرض، نبدأ بسماع ترنيمتها من جديد. لا بآذاننا، بل بقلوبنا، إذ تغدو ترانيمها درباً يعيدنا إلى ذواتنا.

في هذا السكون، في هذا التذكّر العميق، أدركتُ حقيقة بالغة العمق:

أنا أنير الطريق.

أنا حافظة الذاكرة.

وناسجة الدرب.

الكلمات والرؤى لا تأتي منّي، بل تمرّ عبرّي، تتدفّق من مكان قديم، أزلي، يُستدعى من وراء حجاب الزمن ليولد في هذا الفضاء، في هذه اللحظة الآنية. أنا إناءٌ لما هو غير منظور ليغدو منظوراً. أنفاسي تصير ذاكرة لما سيأتي، تحمل معرفة الأسلاف وحلم الذين لم يأتوا بعد.

كل كلمة أنطقها خيط، وكل صمت رتقة. إنني أنسج الحكايات القديمة في أشكال

جديدة، لا لأعيد خلق الماضي، بل لأوقظ ما ظلّ حيّاً فينا منذ الأزل. ففي كل لحظة تذكّر، أمهد الطريق إلى الأمام، لا لنفسي وحدي، بل لكل من يسعى ليعود إلى ذاته، إلى الأرض، إلى النجوم.

لكنني لا أسير هذا الدرب وحدي. إنني محمولة بأذرع الأسلاف، تقودني ملكات خالدات، تهمس لي الريح، وترشدني النجوم. وفي المقابل، أهب حياتي صلاةً، وصوتي أنشودة، وحكايتي وهجاً يهدي التائهين في العتمة.

كثيراً ما أجد نفسي أعود إلى تلك التلال المباركة المهيبة في مليحة، منجذبةً بقوةٍ لا أستطيع تفسيرها، بل أستطيع أن أحسّها فقط. هناك، أقف في مواجهة الأفق الأحمر المترامي، حيث تمتدّ الصحراء بلا نهاية، وتعلو الكثبان كهمساتٍ قديمةٍ تجمّد فيها الزمن. وفي البعيد، تبدو الجبال كتنانين نائمةٍ، تتوشّح بغسق المساء، ظهورها مقوّسةٌ تحت السماء، كأنها في انتظارٍ طويل - انتظار صوتٍ عتيقٍ ينهض من عمق الأزمنة، وروحٍ جريئةٍ بما يكفي لتوقظها بالتراتيل المنسية التي لم يعرفها سوى أسلافنا.

إنها لا ترقد في غفلة، بل في صبرٍ مهيب، تصون ذاكرة ما كان، وتحرس الأرض، مترقّبة النداء لتنهض من جديد حارسةً لأساطيرها الأولى وأقدم حكاياتها.

ملكة مليحة

في إحدى تلك العودات، جلستُ عند قمة تلّ مليحة، في الموضع ذاته الذي قدتُ فيه، في إحدى رؤياي، جيشاً عتيقاً عبر رمالٍ أضحت اليوم صامتة. كان النسيم يدور من حولي برفق، لا يحمل أصواتاً بل سكوناً خالصاً. وضعتُ كفّي على الأرض الدافئة، أقدّم امتناني للأسلاف - على كل إشارة، وكل درس، وكل لحظة تذكّر حفروها في أعماقي.

ثم، كضبابٍ يذوب أمام فجرٍ صاعد، تجلّت في رؤيا.

ملكة مليحة.

لم تكن كما رسمها خيالي - لا تاجاً مرصعاً بالذهب، ولا موكباً ملكياً. بل امرأة طاعنة في السن، بعمامة سوداء تشدّ شعرها الفضي، ووجه محفور بخطوط الزمن، غائر كأودية حفرتها عواصف غابرة. غير أن عينيها كانتا تتلألآن كنجوم الصحراء، تشعّان حباً شاسعاً حتى ضاق صدري بأنفاسي من شدّة وقعه.

شهقتُ قائلة: «إنها أنتِ...».

وانتصبتُ على ركبتيّ أقول: «أردتُ أن أشكركِ - على كل شيء. على هدايتكِ، على مرافقتكِ لي حتى حين لم أركِ. على ثقتكِ بي لأحمل ذاكرة حكايتكِ».

نظرت إليّ كما لا تفعل إلا الجدّات - بعينين يتسعن لمجرّاتٍ وأزمانٍ، واحتضنتا الحزن والضحك وأعماراً لا تُحصى.

ثم قالت بصوتٍ رقيقٍ حملته نسائم الرياح: «بل نحن من ندين لكِ بالعرفان يا بدور. شكراً لأنكِ استدعيتِ ذاكرتنا من الصمت، شكراً لأنكِ أصغيتِ لندائنا، شكراً لأنكِ رفعتِ مقامنا بوفائك. نحن نحبّكِ».

فاضت الدموع في عينيّ. همستُ قائلة: «وأنا أحبّكن أيضاً... لكن... لِمَ تحببنني إلى هذا الحد؟»،

كنتُ حقاً لا أفهم.

ابتسمت، وتلألأ الهواء من حولها، ثم قالت: «لأنكِ، يا ابنتي، تحملين مشاعلنا».

ثم استدارت، وذابت في سراب الصحراء. غير أنها تركت خلفها ما هو أبلغ من الكلمات - حقيقة عميقة، زلزلت أعماقي:

أنني لم أكن ضائعة.

أنني لم أكن وحيدة قط.

أنني كنتُ أسير على خطى جدّاتي، مهتديةً بالنجوم، محمولةً بأيدي من سبقنني.

وأن دربي قد قُدّر لي أن أبصره، بالحب، وبالجرأة، وبنور الشمس الساطع.

وحين أنظر خلفي إلى الطريق، أرى كم من الأنهار قد تدفّقت في داخلي: رياحُ الصحراء، أصواتُ أمهاتي، صمتُ القبور، النار التي علّمتني الجلوس، الأفعى والبومة، الجبل والرمل. وكم تساءلتُ: كيف يمكن لكل هذا أن يحيا معاً في جسدٍ واحد، روحٍ واحدة، قلبٍ واحد؟ لكنني تذكّرت كلماتٍ منسوبة لابن عربي، الشيخ الأكبر، الذي أدرك أن القلب يتّسع لكل الصور:

لقد صار قلبى قابلاً كل صورة

فمرعىً لغزلانٍ، ودير لرهبانِ

وبيتٌ لأوثانٍ، وكعبة طائفٍ

وألواح توراةٍ، ومصحف قرآنِ

أدين بدين الحب أنَّى توجهتْ

ركائبه، فالحب ديني وإيماني

هذه الكلمات ليست شعراً فحسب - بل مرآة للحقيقة التي سلكتُ دروبها: أن القلب هو المعبد الأسمى، متّسعٌ لكل سلفٍ وأرضٍ ورؤيا وصمت. وأن ما يبدو متناقضاً - بين العتيق والحديث، بين الأسطورة والتاريخ، بين الصحراء والمحيط - إنما يمكن أن يُحاك جميعه بخيطٍ واحد: خيط المحبّة.

فالمحبّة هي الخيط الذي يشدّنا معاً، وهي النول الذي يحملنا، والطريق الذي يسير بنا. يسمّيها الصوفيّة دين العشق - دين المحبّة - الدين الذي تغدو فيه كلّ حكايةٍ كتابَ حكمة، وكلُّ حجرٍ آيةً من آيات الوجود.

وهكذا، في النهاية، لا يهمّ إن كنتُ قد وجدتُ ضريح الملكة، أو كشفتُ عن آثارٍ مطمورة في باطن الأرض. ما يهمّ حقاً هو أنّ الرحلة قد كشفت عن القلب ذاته - قلبٌ اتّسع ليحمل

كل شيء، ولم يبقَ فيه سوى المحبة.

أخبروهم أنّها هنا

هذا الكتاب شهادةُ حبّ، خيط ممتد من ذاكرة الروح، إلى أولئك التائهين في صحارى الشك، إلى الذين خبّؤوا أسئلتهم في أعماقهم.

بحثت عنها في الريح والكثبان،
في أصوات الأسلاف، في وميض النجوم،
فلم أجدها إلا في أعماقي.
لم تكن ضائعة يوماً،
إنّما كانت تنتظر.
يذكّرنا جلال الدين الرومي، قائلاً: «نحن المرآة وكذلك الوجه فيها».
الأرض مرآتنا، ونحن انعكاسها.
الأسلاف يتنفّسون من خلالنا،
ونحن نتنفّس بصدورهم.
نحن الباحثون والمقصودون،
نحن الصدى والجواب.
فأخبروهم أنّها هنا -
في أنفاس الجبل،
في سكون القلب،
في كل روحٍ تتذكّر.
إنّها ليست آتيةً من بعيد،
فقد حضرت منذ الأزل.
إنّها المحبّة،
إنّها التوازن،

إنّها الديار.
أخبروهم.



الخاتمة:

ملكة الصحراء

أتيتُكم من زمنٍ آخر،
لأوقظ فيكم الطرائق القديمة-
لأذكّركم بأسلافكم الأوائل،
كيف كانوا يعجنون الخبز بأيديهم،
ويستنزلون الرزق من الحَبّ والنار،
وكيف كانوا يودعون أسرارهم للريح،
فلا تُدركها إلا قلوبٌ تُحسن الإصغاء.
أتيتُ لأعلّمكم تُخطّون الطلاسمَ فوق وجوهِ الرِّمال،
كيف تُصغونَ إلى لغةِ الأرضِ،
كيف تستحضرون قبائلكم المفقودة وتقاليدكم الدفينة،
تلك المنقوشة في الصخور،
المترنّمة في حفيف نخيل الصحراء.
أتيتُ لأريكم كيف تركضون كخيول جامحة،
وكيف تُحلّقون كصقورٍ في سماواتٍ مطهَّرة،
وكيف تتوهون بين النجوم
ثم تهتدون إلى الطريق،
بخريطةٍ منقوشةٍ في الأعماق.
أتيتُ لأذكّركم بأراضٍ

كانت تعرف أسماءكم يوماً،
وبألسنةٍ رقصت والتفّت حول ضوء نيرانٍ عتيقة،
طواها الزمان... لكنّها لم تندثر.
فمن يُحسن الإصغاء يُدرك المعنى.
أتيتُ لأحبّكم.
لأرشد خطاكم.
لأفتح أمامكم درب القلب...

– أبيئيل بنت باجلان، ملكة مليحة

شكر وامتنان

ما كان لهذا الكتاب أن يبصر النور لولا تلك الأصوات الكثيرة -المعلنة منها والخفيّة- التي أرشدتني واحتضنتني وألهمتني في كل منعطف من هذه الرحلة.

وقبل كل شيء، أرفع عرفاني إلى أسلافي، الذين كانت ذاكرتهم البوصلة الأصدق لهذه الرحلة. همساتهم، التي حملتها الأرض والحجر والحلم، ذكّرتني أنني لم أسِر يوماً وحدي، وأن خطواتي امتدادٌ لخطاهم.

وأخصّ بامتنان عميق عائلتي لصبرها وتشجيعها وإيمانها الذي لم يتزعزع بهذا العمل، خصوصاً في اللحظات التي ثقُلَ فيها القلم وصار الطريقُ غامضاً. لقد كان حبّكم جذري الراسخ ومرفأ قلبي.

وأمدّ شكري إلى علماء الآثار والمؤرخين والباحثين الذين شكّل جهدهم الأساس لكثير من الحكايات الواردة هنا - إنّ تفانيكم في الكشف عن الماضي منحني الأدوات التي بها نسجتُ الذاكرة بالخيال. وأخصّ بالشكر: صباح جاسم، وعيسى يوسف، وهانز-بيتر ومارغريت أوربمان، وكنوت بريتسكي، وأجمل حسن، وبرونو أوفرلات، ومايكل ماكدونالد، وسمير عثمانوفيتش، وكل من فتح لي أرشيف مليحة وكلباء وما وراءهما.

وأوجّه شكري العميق إلى سايمون فان بوي، وجيهان محرم، ومسعود إدريس، وأندرو باور، ومحمد نعسان الفتوى، وأحمد العلي، وأماني آل علي، ومريم بشير قبلاوي الذين أضاء دعمهم التحريري الواعي مسوّدتي، فشحذ كلماتي وأضفى على النص وضوحاً وانسياباً. شكراً لعنايتكم وسخائكم.

وإلى أساتذتي -الروحيين منهم والأكاديميين والشعراء- الذين شاركوني حكمة الطريق الصوفي وفنّ التذكّر النوارني: إنّ أصواتكم تتردّد بين ثنايا هذه الصفحات همساً وإلهاماً.

وإلى أصدقائي ورفاقي، الذين أصغوا وطرحوا الأسئلة وذكّروني بالفرح الكامن في المسيرة - أشكركم لأنكم حفظتم ثباتي ومنحتموني القوة على الاستمرار.

وأخيراً، إلى أرض العرب نفسها: جبالها وصحاريها ورياحها وبحارها. هذا الكتاب هو، قبل كل شيء، رسالة حبّ إليكِ. لقد كنتِ أعظم معلّم على الإطلاق، ومصدر كلّ

الحكايات وأمّ كلّ البدايات.

تسلسل المَلِكات في التاريخ

من القرن الحادي عشر إلى العاشر قبل الميلاد (سبأ / قتبان)

*** الملكة لميس بنت نوف بن يرِم ذي مَرّ**

- خُلدَت ذكراها في نقوش خطّ المسند، وورد ذكرها في الشعر السبئي والأساطير المتوارثة عبر العصور.

القرن العاشر قبل الميلاد

*** ملكة سبأ (بلقيس / ماكيدا)**

- الملكة الأسطورية لمملكة سبأ، اشتهرت بلقائها مع النبي سليمان عليه السلام.

من القرن الثامن إلى السابع قبل الميلاد

*** ملكات العرب (ملكات قيدار)**

- **زبيبة** (738 ق.م) – دفعت الجزية لتغلاث بلاسر الثالث.
- **سمسي** (734–716 ق.م) – قادت جيشاً من ألف جمل؛ وتفاوضت مع آشور.
- **يثيعة** (703 ق.م) – ذُكرت في السجلات الآشورية.
- **تَألهونو** (691 ق.م) – كاهنة-ملكة للعرب.
- **تبوعه** (681 ق.م) – نصّبتها آشور.
- **عاديّة** (قبل 652 ق.م).

من القرن الثامن إلى الخامس قبل الميلاد

*** ملكات القمر في سبأ (المكرّبات)**

- ملكات كاهنات حكمن في جنوب الجزيرة العربية، ارتبطن بالإله القمري ألمقه.
- من بينهن **الملكة شمس** (القرن الثامن ق.م)، التي خُلّدت في نقوش مأرب.

من القرن الثالث إلى الأول قبل الميلاد

* **الملكة نادين ذي صدقن شمس** (قتبان)

- ملكة محاربة خُلّدت بتمثال برونزي منقوش عليه اسمها.

من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثاني للميلاد

* **الملكات النبطيات**

- **ملكة عهد أبوداس الثالث** (30–9 ق.م).
- **شقيلات الأولى** (9 ق.م – 40 م).
- **هُلديو** (40–70 م).
- **شقيلات الثانية** (70–106 م).

من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الثالث بعد الميلاد

* **ملكات أبيئيل في مليحة**

- ما لا يقل عن أربع ملكات من سلالة واحدة:

- أبيئيل بنت ناصل.
- أبيئيل بنت مسامس.
- أبيئيل بنت لَبَي.
- أبيئيل بنت بَغلان.

القرن الثالث الميلادي

* **الملكة زنوبيا** ملكة تدمر (267–272 م)

- وسّعت إمبراطوريتها لتشمل سوريا وفلسطين ومصر قبل أن تقع في أسر الرومان.

القرن الرابع الميلادي

* **الملكة ماوية** ملكة التنوخيين (حوالي 375 م)

- ملكة محاربة قادت ثورة ضد روما وفرضت الصلح بشروطها.

من القرن الحادي عشرإلى القرن الثاني عشر الميلاديان

* **الملكة أروى الصليحي** (توفيت 1138 م)

- لُقّبت بـ«الملكة الحرة»، حاكمة اليمن وبانيتُه وراعية العلم، ويذكرها التاريخ بوصفها «ملكة سبأ الصغرى».

الخريطة


الملكة زنوبيا
تدمر - سوريا
البحر الأبيض المتوسط
الملكة ماوية
الإمبراطورية التنوخية - سوريا
ملكات الأنباط
البتراء الأردن
ملكات قيدار
دومة الجندل
المملكة العربية السعودية
الخليج العربي
خليج عمان
ملكات أبيئيل
مليحة - الإمارات العربية المتحدة
البحر الأحمر
ملكات سبأ
(لميس / نادين / أروى)
اليمن
ملكة سبأ
سبأ - اليمن
بحر العرب
ملكة سبأ
أكسوم - إثيوبيا
خريطة الملكات


الخليج العربي
الدور
عجمان
الشارقة
الذيد
دبي
الفجيرة
مليحة
العين

الربع الخالي

المراجع

النصوص الأصلية والمصادر المبكّرة

- أبو حامد الغزالي. إحياء علوم الدين.
- أبو حامد الغزالي. المنقذ من الضلال.
- هشام بن محمد الكلبي. كتاب الأصنام.
- ابن إسحاق. السيرة النبوية.
- القرآن الكريم.
- كتاب كِبرا ناغاست. ترجمة: إدوارد واليس بدج. لندن: جمعية ميديشي، 1922.

دراسات أثرية وتاريخية

- آن بينواست، والبعثة الأثرية الفرنسية في الإمارات. تقارير عن عبادة الأفعى في العصر الحديدي في بيثنة (2001–2004).
- كنوت بريتسكي، سايمون أرمتيج، وهانس-بيتر أوربمان. دراسات عن الاستيطان البشري المبكر في جبل فاية والهجرات الباليوليتية إلى الجزيرة العربية.
- صباح عبود جاسم، مارغريت أوربمان، وهانس-بيتر أوربمان. مليحة: التاريخ غير المكتوب. الشارقة: دائرة الآثار، 2016.
- مايكل ماكدونالد. عملات "أبيئيل" في شرق شبه الجزيرة العربية: دراسة للأساطير الآرامية»، في كتاب «عملات ممالك القوافل»، تحرير مارتن هوث وبيتر جي. فان ألفن. نيويورك: الجمعية الأمريكية لعلم العملات، 2010؛ ص 403-547.

- م. طه. دراسات عن "تل الثعبان" في القصيص – دبي (1982).
- هانس-بيتر أوربمان وآخرون. حفريات جبل فاية وأبحاث حول أوائل الإنسان العاقل في الجزيرة العربية.

الملكات والسيادة النسائية في الجزيرة العربية والشرق الأدنى

- ديفيد أبرام. زنوبيا: نجمة تدمر الساطعة. لندن: بلومزبري، 2020.
- وركويك بول. روما في الشرق: تحوّل إمبراطورية. لندن: روتليدج، 2000.
- إيلي بينيت. ملكات العرب. لندن: هيرست، 2022.
- غلين بويرسوك. العربية في العصر الروماني. كامبريدج، ماساتشوستس: مطبعة جامعة هارفارد، 1983.
- روبرت هويْلاند. العرب والجزيرة العربية: من العصر البرونزي إلى مجيء الإسلام. لندن: روتليدج، 2001.
- أندرياس كروب. الصور والآثار التذكارية للحكّام في الشرق الأدنى، 100 ق.م – 100 م. أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 2013.
- مايكل ماكدونالد. "ملكات وكاهنات وأخريات: دور المرأة في مجتمعات الجزيرة العربية قبل الإسلام" كتاب: موسوعة المرأة في العالم القديم. تحرير: شارون جيمس وشيلا ديلون. أكسفورد: وايلي-بلاكويل، 2012.
- هتون أجواد الفاسي. المرأة في جزيرة العرب قبل الإسلام: النبطيات. لندن: روتليدج، 2007.
- كريستيان جوليان روبان. دراسات حول الملكية النسائية في جنوب الجزيرة العربية قبل الإسلام. باريس: المركز الوطني للبحوث العلمية.
- عرفان شهيد. بيزنطة والعرب في القرن الرابع. واشنطن: دمبارتون أوكس، 1984.
- عرفان شهيد. بيزنطة والعرب في القرن الخامس. واشنطن: دمبارتون أوكس، 1989.

- سانت جون سيمبسون. ملكة سبأ: كنوز من اليمن القديم. لندن: المتحف البريطاني، 2002.
- أندرو سميث. تدمر الرومانية: الهوية والمجتمع وتشكيل الدولة. أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 2013.
- جوان تايلور. "المرأة والملكية في الأنباط: شواهد على حكم الملكات". كتاب: دراسات في المملكة النبطية. تحرير: كونستانتينوس بوليتيس. أكسفورد: أركيوبرس، 2007.
- كاريل فان دير تورن. من المهد إلى اللحد: دور الدين في حياة المرأة الإسرائيلية والعربية. لايدن: بريل، 1994.
- روبرت ويننغ. "الملكات النبطيات". كتاب: عالم الأنباط. تحرير: كونستانتينوس بوليتيس. شتوتغارت: فرانز شتاينر، 2007.

مراجع صوفية وأدبية

- فريد الدين العطار. منطق الطير.
- كلاريسا بنكولا إستيس. نساء يركضن مع الذئاب. نيويورك: بالانتاين، 1992.
- حافظ الشيرازي. الديوان.
- فيديريكو غارسيا لوركا. كتاب القصائد. مدريد: ريزيدينثيا دي إستوديانتس، 1921.
- فاطمة مرنيسي. أحلام الحريم: حكايات من طفولة في الحريم. ريدنغ، ماساتشوستس: أديسون-ويسلي، 1994.
- جلال الدين الرومي. المثنوي. ترجمة: رينولد نيكلسون. لندن: لوزاك، 1925–1940.
- شمس التبريزي (أقوال منسوبة إليه).
- توكو-با تيرنر. الانتماء: تذكّر ذواتنا كموطن. كندا: هير أون روم برس، 2017.
- وليم بتلر ييتس. الأشعار الكاملة. لندن: ماكميلان، 1933.

أعمال حديثة حول الأسطورة والثقافة والشفاء

- شارون بلاكي. لو نهضت النساء متجذّرات: رحلة نحو الأنوثة الأصيلة. لندن: سبتمبر للنشر، 2016.
- جوزيف كامبيل. البطل بألف وجه. برنستون: مطبعة جامعة برنستون، 1949.
- ماكس داشو. النساء في أوروبا القديمة. ريتشموند، كاليفورنيا: فيليدا برس، 2008.
- كريستيان نورثروب. أجساد النساء، حكمة النساء. نيويورك: بانتم، 1994.
- لين ريدموند. عندما كانت قارعات الطبول نساءً. نيويورك: ثري ريفرز برس، 1997.
- كريستن رودريك. الساحرات بين الأمس والغد: الأسطورة وخيوط الحكاية. لندن: روتليدج، 2010.
- تشاباري شيفالي. صحوة جذرية. نيويورك: هاربر ون، 2021.

---

(1) طوطم (Totem): تأتي كلمة «الطوطم» من التقاليد الأصيلة للشعوب الأصلية، وخاصة لدى بعض قبائل الأمريكيين الأصليين وشعوب الأمم الأولى. وهي تشير إلى رمز أو شعار روحي غالباً ما يكون حيواناً أو نباتاً أو عنصراً من الطبيعة يُجسد جماعة من الناس، مثل عشيرة أو قبيلة، أو يُمثِّل معتقداً أو فكرة.